المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

الوطن المغتصب

إسرائيل فى فلسطين والبحث عن الحل

تأليف : مايكل رايس

ترجمة : إبراهيم سلامة إبراهيم

567

المشروع القومى للترجمة

الوطن المغتصب

إسرائيل فى فلسطين والبحث عن حل

تأليف : مايكل رايس

ترجمة : إبراهيم سلامة إبراهيم

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٣

المشروع القومى للترجمة

إشراف د. جابر عصفور

- العدد : ٥٦٧
- الوطن المغتصب (إسرائيل فى فلسطين والبحث عن حل)
- مايكل رايس
- إبراهيم سلامة إبراهيم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لكتاب

Title : False Inheritance.
By : Michael Rice .
Publisher : Kegan Paul International .
London and New York
First Edition : 1994

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House. El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084

المحتويات

تصدير

بقلم المترجم

حينما تصفحت هذا الكتاب للمرة الأولى ، كنت أظنه صورة مكررة من الكتب التى تصدر حول مشكلة فلسطين ، قضية العرب الأولى التى تجاوز مداها الزمنى نصف القرن بكثير ؛ ولكننى حينما عرفت المعلومات الضرورية عن المؤلف ، وتاريخه المشرف فى العمل بالمنطقة العربية ، تشجعت وأخذت أقلب صفحات الكتاب على أمل أن أجد فيه ما يبرر ترجمته إلى اللغة العربية أو يقدم لنا الجديد الذى يشرح فيه أبعاد هذه القضية التى كانت قضية القرن العشرين وما زالت مستمرة مع بدايات القرن الحادى والعشرين ، حيث يرتبط بقاؤها ببقاء الأطماع الأجنبية فى منطقتنا العربية بل فى منطقة الشرق الأوسط كلها ، كما يرتبط كذلك باستمرار حيوية الحركة الصهيونية التى ربطت مصيرها بمصير هذه الأطماع الأجنبية ، وحولت الدولة التى أقامتها فى فلسطين إلى ثكنة عسكرية مدججة بأحدث ما اخترعته العبقريات العسكرية من أسلحة الدمار ، لحراسة هذه الأطماع والمحافظة على استمرار اشتعال نيرانها.

أما المؤلف مايكل رايس Michael Rice فقد عمل فى منطقتنا العربية وعلى وجه الخصوص فى الخليج العربى أكثر من ثلاثين عامًا مستشارًا لعدد من الحكومات العربية ، كما كان على دراية عظيمة بمفردات القضية الفلسطينية من خلال المنظمات الدولية ، ومنها جامعة الدول العربية ، ومنظمة الدول العربية المصدرة للبترول ، كما كانت له علاقة وطيدة بعلم الآثار فى عديد من البلدان العربية ، خاصة أنه قاد الفريق الذى تحمل مسئولية تخطيط وتصميم أول متحف فى البحرين ، كما تحمل بعد ذلك مسئولية متاحف أخرى فى المنطقة مثل متحف قطر الوطنى ، ومتحف عمان ، ومتحف

الآثار ، ودراسة الأجناس والسلالات البشرية فى الرياض ، ومتحف القوات المسلحة السلطانية فى سلطنة عمان ، والمتاحف الإقليمية فـى المملكة العربية السعودية. وفى سنة ١٩٨٠ حصل على جائزة أغاخان . وقد عرفنا مما ذكره عن نفسه فى الفصل الأول من هذا الكتاب أنه عمل مستشاراً لوزير الثقافة والإرشاد القومى فى مصر عندما عادت العلاقات السياسية بين مصر وبريطانيا بعد حرب ١٩٥٦ بثلاث سنوات .

وقد وضع رايس الكثير من المؤلفات عن المنطقة العربية وقضاياها ، من أهمها هذا الكتاب الذى استخدم فى كتابته رصيد الخبرات التى اكتسبها من عمله بالمنطقة ، ونتائج دراساته المكثفة عن اليهود ، والصهيونية ، والظروف الدولية التى أحاطت بإنشاء واستمرار دولة إسرائيل حتى اليوم ، وآفاق المستقبل حول إمكانيات التوصل إلى حل للقضية وإقامة الدولة الفلسطينية . ولن أتعرض لهذه الأمور بالحديث خلال هذا التصدير لأنها موجودة بالتفصيل فيما يلى من صفحات هذا الكتاب ، ولكننى سأتحدث فى إيجاز عن انطباعاتى الشخصية عن هذه الشخصية التى تنتمى للغرب من حيث الجنسية البريطانية وإلى العالم العربى من حيث المشاعر ، والأحاسيس العاطفية ، بل أيضا المواقف الإنسانية ، والانطلاقات الفكرية ، والمفاهيم العقلية .

وقد لفت نظرى حرص المؤلف على تدوين حقائق كثيرة قديمة ، وحديثة ؛ ولكن معظمها غير متداول ، مما يعطى صفة الحداثة لمضمون الكتاب .. ولكن معالجته للموضوع فى جانبه الدينى المتعلق بالوعد الذى قطعه الله مع سيدنا إبراهيم فى العهد القديم ينقصها الفهم الروحى لهذه الجزئية من الموضوع ، حيث إنه لم يفهم تماماً لماذا أطلق على اليهود اسم "شعب الله المختار" ؟ ، ومتى رفض الله هذا الشعب ؟ فلم يعد شعب الله ولا مختاراً .

كان اليهود هم شعب الله المختار فى العهد القديم ؛ لأنهم كانوا هم الشعب الوحيد الذى يعبد الله وسط الشعوب التى كانت تعبد الأصنام ، ولم يعد الأمر كذلك اليوم بعد أن ظهرت المسيحية ، والإسلام وأصبحت غالبية سكان المسكونة تعبد الله ، وانتشر الإيمان بالله فى كافة أرجاء الأرض. أما عن الوعد بامتلاك أرض فلسطين فله جانبان ، **الأول منهما** والذى يؤمن به المسيحيون فى الشرق ، فهو : الجانب الروحى

الذى يعنى ميراث الملكوت والحياة الأبدية. أما **الجانب الثانى** : فيعتمد على التفسير المادى لحقائق وأحداث الكتاب المقدس ، ذلك الذى تأخذ به بعض المذاهب البروتستانتية ، وهو التفسير الذى أوقع أتباع هذه المذاهب فى براثن المؤثرات والادعاءات الصهيونية ، وجعلهم يساندون الصهيونية فى إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين اعتماداً على تفسير الوعد المقدس بأنه يعنى تمليك اليهود للأراضى الفلسطينية . وحتى هذا المفهوم المادى قد تقوض منذ زمن طويل حينما خالف اليهود الوصايا المسلمة إليهم ، وهو ما حذرهم منه الله فى مواضع كثيرة من التوراة ، كما حذرهم منه أيضًا النبى داود نفسه فى المزمور المائة والثانى والثلاثين ، حيث أرفق الله بهذا الوعد شرطًا مانعًا بقوله : "إن حفظ بنوك عهدى وشهاداتى التى أعلّمهم إياها ، فبنوهم أيضًا إلى الأبد يجلسون على كرسيك" (الآية رقم ٢٢). وقد نقض اليهود أنفسهم هذا العهد مراراً وتكراراً حينما خالفوا الوصايا . ونجد فى أسفار العهد القديم الكثير من المواقف والأحداث التى أثاروا فيها غضب الله ونقمته عليهم . وفى العهد الجديد يقول بولس الرسول عن اليهود فى رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكى ما يلى : "الذين قتلوا الرب يسوع ، وأنبياءهم ، واضطهدونا نحن وهم غير مرضين لله وأضداد لجميع الناس ، يمنعوننا عن أن نكلم الأمم لكى يخلصوا حتى يتمموا خطاياهم كل حين ، ولكن قد أدركهم الغضب إلى النهاية." (١تس ٢ : ١٥ - ١٦) .

أما عن اجتماع الشعب اليهودى فى فلسطين وما يتبعه من اعتقادهم بإعادة بناء الهيكل ، فهو أمر قديم وانقضى قبل مجيء المسيح نفسه ، ذلك أن دولة إسرائيل القديمة قد انتهت على يد سرجون الثانى ملك آشور سنة ٧٢١ ق.م ، حيث استولى عليها وشتت أسباطها العشرة وأسكن السامرة غيرهم . أما مملكة الجنوب أو يهوذا فقد عاشت قرابة قرن ونصف القرن بعد سقوط مملكة إسرائيل ، حتى اجتاحها فرعون مصر نخاو الثانى وهو فى طريقه لغزو آشور وقتل ملكها يوشيا سنة ٦٠٩ ق . م . عند مجدو فى سهل جزريل ، وأصبحت يهوذا تابعة لمصر حتى فتحها نبوخذنصر ملك بابل سنة ٥٩٧ ق . م . وأقام عليها ملوكًا ضعافًا ؛ ولكنه عندما أحس أنها أصبحت مركزاً للتآمر ضده عاد إليها ودمرها سنة ٥٨٧ ق . م ، ونهب أورشليم وحمل من نجوا

من القتل سبايا إلى بابل ، فأقاموا هناك حتى استولى قورش ملك الفرس على بابل سنة ٥٣٨ ق.م ، ودمرها . وبذلك تحقق ما تنبأ بــه النبى إشـعيـاء الذى عاش قبل المسيح بحوالى ٩٢٠ سنة عن دمــار بابل ، وهو ما ورد فى الإصحاح الثالث عشر من سفر إشعياء ، ثم أعاد اليهود إلى أورشليم وسمح لهم بإعادة بناء الهيكل ، وهكذا انتهى موضوع عودة اليهود كما تمت النبوات عن إعادة بناء الهيكل ، وهذا الهيكل الذى أعيد بناؤه بعد العودة مــن السبى هــو ما كان موجوداً فى أيام السيد المسيح وتنبأ عن دماره، وتم ذلك أيضًا حينما جاء الـقائد الرومــانى تيتوس لإخماد ثورة اليهود وخرب أورشليم ، ودمر الهيكل نهائيًا سنة ٧٠ للميلاد .

وأوصى القراء هنا بالاطلاع على كتاب صغير الحجم ، عنوانه: "رأى المسيحية فى إسرائيل"، وهو يتضمن المحاضرة التى ألقاها قداسة البابا شنودة الثالث فى نقابة الصحفيين مساء يوم ٢٦ يونيو عام ١٩٦٦م ، وقد قرأنا فى الجرائد منذ فترة قصيرة أن السلطات الإيرانية أرسلت إلى قداسته تطلب الإذن بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية ، كما نود نحن أيضًا أن تُطبع منه طبعة جديدة باللغة العربية تكون متاحة فى أيدى من يطلبها من القراء .

ونحن نقدر الجهد الذى بذله المؤلف مايكل رايس فى كتابه هذا ليشرح لنا بصراحة مدى خطورة التهديد الذى تواجهه كافة البلدان العربية من استمرار تجاهل حقوق عرب فلسطين ، ومساندة القوى الغربية لإسرائيل فى كافة ما تقوم به من أعمال لقمع المقاومة الفلسطينية ومحاولتها لاستبعاد الفلسطينيين فيما يشبه الشتات الذى تعرض له اليهود أنفسهم وهم الآن يطبقونه على عرب فلسطين ، هذا إلى جانب إصرارهم على إبادة الشعب العربى الفلسطينى حتى يتخلصوا من مطالبته بحقوقه المسلوبة وحرصه على إقامة دولته العربية إلى جانب دولة إسرائيل .

بقيت نقطة شديدة الأهمية وهى أن الانتفاضة التى تحدث عنها المؤلف فى مقدمة الكتاب قد حدثت خلال الفترة ما بين عامى ١٩٨٧ - ١٩٩٠ ، وقد أوقفها العراق وأضاع فاعليتها بغزوه الكويت سنة ١٩٩٠ مما ترتب عليه نشوب حرب الخليج الثانية التى بنى عليها المؤلف العديد من التوقعات الخاصة بمسار الأحداث العالمية فى

المستقبل القريب ، وبالطبع فقد تغيرت هذه التوقعات بعد نشوب حرب الخليج الثالثة والتى نتمنى أن تتمخض عن تفعيل العمل لتنفيذ « خريطة الطريق » وصولاً إلى إقامة الدولة الفلسطينية مع حلول عام ٢٠٠٥ ، كما وعد أصحاب التأثير السياسى على إسرائيل التى تستمر دائمًا فى التنصل من التزاماتها .

والله ولى التوفيق ،،،

القاهرة فى ٢١ مارس ٢٠٠٣

إهداء

نهدى هذا الكتاب

إلى كافة الأقوام الذين يعانون

من سيطرة أقوام آخرين

« لو كنت أحد القادة العرب فلن أقيم (سلامًا) مع إسرائيل ، وهذا أمر طبيعى لأننا اغتصبنا بلدهم » .

دافيد بن جوريون ، عن كتاب من تأليف ناحوم جولدمان وعنوانه :

The Jewish Paradox – التناقض اليهودى

نشرته دار : Weiden Feld & Nicolson سنة ١٩٧٨ ، ص ٩٩ .

« إذا كانت هذه هى فلسطين وليست أرض إسرائيل ، فإنكم فاتحون ولستم زراعًا للأرض ، إنكم غزاة ، وإذا كانت هذه الأرض هى فلسطين فإنها تخص أُناسًا عاشوا هنا قبل مجيئكم » .

مناحم بيجين ، صحيفة يديعوت أحرونوت ، ١٧ أكتوبر ١٩٦٩ .

المقدمـــــــة

كـان هذا الكتـاب فى المطبعـة عندمـا أُعْلِن عن العـودة إلى المحـادثات بين الإسرائيليين وخصومهم العرب بمن فيهم الفلسطينيون ، وما تلا ذلك من الاجتماعات المنفصلة والسرية بين ممثلى إسرائيل والفلسطينيين بشكل مباشر، تلك التى عقدت تحت إشراف الحكومة النرويجية ، وقد حققت تقدمًا مذهلاً لم يكن متوقعًا ، وكانت هناك اعتبارات نادرًا ما شهدت منطقة الشرق الأوسط مثيلاً لها منذ أمد بعيد ، تمخضت عن اتفاق من نوع ما حول الحالة السياسية الراهنة ، وقد سار الموقف فى إسرائيل وبين الفلسطينيين وأعوانهم نحو هذا الاتجاه على مدى فترة قصيرة مضت ولأسبـاب يكشف عنها كتـاب (الوطن المغتـصب False Inheritance) ، مما أدى إلى صياغة هذه المقدمة .

ويعتبر كتاب (الوطن المغتصب) شديد الانتقاد لسياسات وأفعال الإدارات المتعاقبة التى حكمت إسرائيل منذ تشكيل الدولة فى سنة ١٩٤٨ ، وكذلك فإنه شديد الاهتمام بالجانب التاريخى فى تناوله للموضوع لأننى اقتنعت منذ وقت طويل بأن المواجهة بين الفلسطينيين ، والدول العربية ، وإسرائيل لا يمكن فهمها إلا إذا روعيت الجوانب التاريخية بدقة ، وكذلك فإن الهدف من كتاب (الوطن المغتصب) هو شرح ما يبدو لى أنه هو النتائج الرئيسية لما جرى من عمليات الخداع ، والتضليل ، والقسوة التى عومل بها الشعب الفلسطينى على أيدى الصهيونية ، والدولة الإسرائيلية على مدى ما يزيد على نصف القرن الماضى .

ويستعرض الكتاب حقيقة أن السكان اليهود فى إسرائيل والذين أنشئت الدولة لأجلهم – سواء كانوا من أصول أوربية أو غربية – ليس لـهم ادعـاءات تاريخـية ، أو قانونية ، أو أخلاقية حيال أرض فلسطين ، وهذا يعنى أن العدالة لن تتحقق ولن

يدوم السلام إذا لم تتخلص إسرائيل من الصهيونية ويصبح سكانها اليهود جزءًا من دولة علمانية اتحادية ، وهذه هي الأطروحة الأساسية لهذا الكتاب ولم تغير منها الأحداث الأخيرة ، سواء اعتبرنا مناقشاتها سارية المفعول أو عندما نعيد تقييمها بناء على هذه التطورات ، وفي مقابل الخلفية التاريخية فإن ذلك هو القرار الذى يتخذه القارئ بنفسه .

وبعد أن أعددت نفسى للكتابة فى إطار تاريخى جغرافى بشكل مبدئى لم يعد المطلوب منى هو كشف هذه الدراما السياسية يومًا بعد يوم ، أو تقديم النصح لأن الممثلين الرئيسيين فى هذه الدراما لم يبحثوا عن ذلك أو يرغبوا فيه ، ولا يخلو الشرق الأوسط من هؤلاء المستعدين لتقديم النصح على الأقل منذ أيام حزب العمل .

ومن المعروف أن هذا الجزء من العالم يتميز باتخاذ مظهر الأنبياء الذين يتنبأون مسبقًا بالمصير ، وفى الغالب أيضًا يتوقعون معاقبة المخطئين ، وليس هدفى هو إحصاء أعدادهم . ومن الناحية الأخرى ، فإن الأمانة تقتضى إلقاء نظرة شاملة على حقيقة الحوار (إذا كان ذلك هو المطلوب) بين هؤلاء الذين ارتبطوا بالمشكلة التى حيرت المجتمع الدولى فترة طويلة . وهناك اعتبارات أخرى مثل حقيقة الإسرائيليين ، وأعدائهم المتشددين ، فإنهم يتحدثون إلى بعضهم البعض فى ترتيب آخر مخالف لمسار الأحداث التى يتجاهلونها تمامًا (هدم حائط برلين ، وانهيار الشيوعية العالمية والحرب الأهلية المخضبة بالدماء فى القارة الأوربية) تلك الأحداث غير المتناسقة التى تبدو كعلامات أصلية تدمغ هذا الجيل من السياسيين .

ويرجع السبب فى حدوث هذا التطور فى هذا الوقت بالذات إلى الضغوط التى فرضها التحليل التاريخى للمستقبل ، إننى أتمسك بوجهات نظرى الخاصة التى سأشرحها فيما يلى من النصوص. أما النتيجة الرئيسية التى أصبحت حتمية أثناء وبعد حرب الخليج فهى أن إسرائيل قد أصبحت على الهامش بالنسبة للاهتمامات الاستراتيجية للولايات المتحدة والغرب ، وقد جعلت معرفة هذه الحقيقة المحرجة من الضرورى بالنسبة لحكومة إسرائيل - على ما أعتقد - أن تبحث عن مسارات متعارضة للعمل لم تكن تخطر على البال ، وفى ظنى أن إسرائيل تقع تحت تهديد

شديد من الضغوط اليائسة المختلفة التى تغلى فى مجتمعها مثل التغيرات الديموجرافية (السكانية) العميقة ، والأمن الداخلى ، وتحطم أهدافها السياسية والأخلاقية. ولذلك فمن المتوقع أن تلجأ إسرائيل إلى المحاولة واتخاذ المبادرة لتحييد خصمها حتى يلوح لها أنها تقدم تنازلات لهذا الخصم من خلال هذه العملية ، وهذا الاحتمال تنكره إسرائيل دائماً .

كذلك فإن الموضوع بأكمله يتعلق بتصرفات إسرائيل الماضية التى يجب شرحها لتحقيق أقصى الوضوح المقبول من خلال وسائل الإعلام العالمية ، وسيؤدى ذلك إلى إرباك معارضيها ويقدم لها الفرصة للتحكم فى الأحداث ، وحماية ما ترى أنه يمثل اهتمامات الدولة اليهودية على المدى الطويل ، وسواء نجحت إسرائيل فى تحقيق هذه الأهداف أم لا ، فإنها ستظل موجودة ، والشىء المؤكد هو أن الدول العربية عندما تفيق من رد فعلها العاجل بالنسبة لسلسلة الأحداث الحالية ، فإنها ستنظر إلى كافة تصرفات إسرائيل فى المستقبل بتحفظ شديد .

ولن نندهش إزاء ما سيقابله ممثلو الأدوار الرئيسية فى النزاع الإسرائيلى الفلسطينى من نظام عالمى يختلف جذرياً عن ذلك الذى نشأوا فى أحضانه (ذلك لأن رجال السياسة يتعرضون للارتباك فى مواجهة الأحداث غير المتوقعة مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من الأشخاص) مما سيدفعهم للبحث عن فترة استراحة من الماضى أو حتى التحرر منه ، بعد نصف قرن تقريباً من المواجهة بين العديد من سكان إسرائيل وغالبية الفلسطينيين ، مما سيجعلهم يرغبون كثيراً فى وضع نهاية للمشكلة التى أقلقت راحتهم ، وستكون الرغبة شديدة فى وضع نهاية للمشكلة بالنظر إلى كافة الأسباب فيما عدا ما يبديه المتشددون على كلا الجانبين .

أما بالنسبة للفلسطينيين فإن عناصر التفاهم مع إسرائيل حتى لو كان محدوداً تغرى بالمحاولة ، أما عن قادة المجتمع الفلسطينى الذين وضعوا أنفسهم فى مواقعهم القيادية فإنهم حازوا القبول من شعبهم ، مما يتيح إمكانية تحقيق الاعتراف الدولى ، ربما فى شكل محدود واضطرارى ، مما يتيح التوصل إلى شىء يقترب من مستوى القبول السياسى الذى سعوا نحوه منذ فترة طويلة ، بالرغم من أن التطلع إليه محدود

الفائدة. أما بالنسبة للفلسطينيين الذين يعيشون في الأراضي المحتلة فإن التفاهم مع إسرائيل مهما كان محدوداً يعني وضع نهاية للقتل والاعتقالات التي تجري في الليل ، واختفاء وضع أفراد العائلات في معسكرات الاعتقال ، وتدمير البيوت بشكل تعسفي على أساس "المسئولية الجماعية" . وأعتقد أن الإسرائيليين أيضًا – فيما عدا غلاة الصهاينة – الذين يعتبرون أن السلام مع الفلسطينيين إنذاراً بالفناء – سيفرحون بهذه النتيجة : أن المسئولية الرهيبة التي تحملتها إسرائيل خلال هذه السنوات سيخف وزنها أخيراً .

وعلى ذلك فإن هناك شيئًا واحداً مؤكد حول ظهور أي مستوى من التفاهم بين الجانبين : وهو أن الاستثناءات ستكون أكبر مما يمكن تحقيقه ، وفي هذه الحالة يكمن أول خطر شديد على مستقبل السلام الدائم .

إن الاتفاق في بنوده الحقيقية يصعب أن يكون هو البداية عند النظر إليه من وجهة نظر الفلسطينيين والصراع الذي ارتبطوا به ؛ لأنه يقدم لهم درجة محدودة وحقيرة من السيادة على قطاع غزة – أقل الأراضي التي تحتلها إسرائيل أهمية وأكثرها تمرداً – ومدينة أريحا – التي لها أهمية أثرية وتاريخية (يدور الحديث عنها بوصفها أقدم المواقع المدنية في العالم) ولكنها ليست ذات قيمة سياسية مباشرة ، (وأنا أعتبر أريحا موقعًا مناسبًا لإقامة العاصمة للدولة الإتحادية التي أعتقد أنها ستكون البناء الوحيد الذي يتضمن مقومات النمو والحياة بالنسبة للكيان الفلسطيني في المستقبل – ص ١٩٤ من الأصل الإنجليزي للكتاب.) أما إذا كان الفلسطينيون يتمتعون بقدر من السذاجة بحيث يجعلون مقر قيادتهم هناك في المرحلة الحالية ، فإنهم سيضعون أنفسهم في موضع المخاطرة ، لأن هذا الموقع لن يتطلب سوى أبسط العمليات العسكرية من الإسرائيليين عندما يفكرون في اجتياح أريحا عند ظهور أية نزوة عابرة . أما مميزات الاتفاق الأخير بالنسبة للفلسطينيين ، فهي أنه مضلل إلى أبعد الحدود ، إن مقاصد الاتفاق واضحة : إنه يجعل الفلسطينيين من وجهة نظر الإسرائيليين وأنصارهم غير جديرين بإقامة دولتهم ، وأن عليهم أن يعيشوا في المستقبل القريب كأتباع لإسرائيل ، أما السلطة التي ستفرض على الفلسطينيين في غزة وأريحا فستكون أقل من تلك التي يتمتع بها مجلس إحدى المقاطعات الإنجليزية .

وإذا استمرت المفاوضات بين الإسرائيليين والفلسطينيين على نفس الأسس التى بدأوا بها ، فلا شك أن إسرائيل ستقدم نفسها في كل مرحلة كما لو كانت قد سلمت أقصى قدر من الأرض والسيطرة السياسية إلى الفلسطينيين ، وإذا حدثت أية استجابات فيما بعد لكى تصبح بنود الاتفاق مقبولة بالنسبة للفلسطينيين ، فإنها ستدفع الإسرائيليين للاعتراض على البنود المتساهلة التى أجبروا على قبولها. أما الفلسطينيون المتشوقون لإبرام التسوية فإنهم سيواجهون عرضًا يتضمن قدرًا ضئيلاً من الأرض يمثل جزءًا من كل الأراضى التى كانت فى حوزتهم فى يوم من الأيام ، مع القيود الموضوعة على حقوقهم لإلغاء أية مسئولية سياسية حقيقية تجاه مستقبلهم ، ولا شك أن مثل هذه البنود المهينة لن تحقق شيئًا وأخشى أنها قد تساعد فقط على إشاعة استياء ومرارة أكثر عمقًا وذلك خلال السنوات القادمة .

إن الفلسطينيين يواجهون ضغوطًا تماثل تلك التى تواجهها إسرائيل للتوصل إلى تسوية بصرف النظر عن أنها على سبيل التجربة أو أنها ناقصة ، فهى من جهة نتيجة لعدم كياسة القيادة الفلسطينية والانقسامات بين الفئات السياسية المختلفة التى تمثل المعارضة الفلسطينية تجاه احتلال إسرائيل لأراضيها. أما الدول العربية خاصة تلك الموجودة فى شبة الجزيرة العربية والخليج فقد تعبت تمامًا من المطالب المستمرة التى تعتمد على كرمها ، ومثل هذه المطالب تتساوى أو تتزايد حسب سوء الاستعمال الذى يتراكم فوق أكتاف "الدول الغنية بالبترول" بأيدى هؤلاء الذين استفادوا كثيرًا من كرمها الزائد. لقد كانت الدول المنتجة للبترول كريمة أكثر من اللازم ، وقد قيل إنها خادمة للغرب والصهيونية وإن الحفريات الهيدروكربونية التى ترقد تحت أراضيها تمثل "البترول العربى" الناتج عن تحلل هذه الحفريات .

وقد جاءت الإشارة الأخيرة للدول العربية ممثلة فى رد فعل الفلسطينيين على غزو الكويت ؛ لأن التعليق السياسى الذى صدر عن قيادة جبهة التحرير الفلسطينية لم ينقل عنها بوضوح بينما جاء رد فعل الدول العربية سريعًا ، وغاضبًا ، ومؤثرًا . إنهم لن يفتحوا خزائنهم أو قلوبهم مرة أخرى للقيادة الفلسطينية الحالية ، ويعرف الفلسطينيون أنهم لن يستطيعوا الاستمرار فى تمويل مستوى المعارضة ضد إسرائيل الذى تعودوا أن يتحملوه فى الماضى .

ولابد أن يبذل المجتمع الدولى كل ما يستطيعه من جهد لإعادة التقارب بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، أما قبول القيادة الفلسطينية السريع للقليل الذى عرضته إسرائيل فقد أقنع الكثيرين بأنه "إذا كان هذا هو ما يريده الفلسطينيون فليأخذوه " ، وسيشعر المجتمع الدولى بأنه حر فى توجيه انتباهه نحو قضايا أخرى لم يُحَلّ فى جدول أعماله .

ويكمن الخطر على المستقبل من هذا الموقف الذى يتخذه هؤلاء الذين كانوا إما متورطين فى المشكلة بالنيابة أو مجرد متفرجين ، وبذلك فإننا لا نجد شيئًا فى الاتفاقات يمكن أن يعطى الأمل للاّجئين الفلسطينيين (بالرغم من وجود تلميحات قاتمة حول التوصل إلى بروتوكولات سرية يمكن أن تعمل لصالح الفلسطينيين) أو يعطى الأمل للعدد الأكبر من الفلسطينيين الذين تشردوا حول العالم نتيجة لوجود إسرائيل ، أما "قانون العودة" الذى ما زال يطبق على اليهود فقط ، فإنه لا ينطبق على الفلسطينيين بمن فيهم هؤلاء الذين يستطيعون أن يبرهنوا على تسلسل أنسابهم عبر الأجيال .

أما بالنسبة لعدم الاكتراث الذى يبديه المجتمع الدولى - وهو ما نتوقع له أن يصبح أكثر وضوحًا بوصفه ابتهاجًا مبكرًا يتجه نحو الاضمحلال - فسيعطى إسرائيل القدرة على الاستمرار فى زرع المستوطنات فى الأراضى المحتلة لخلق "حقائق جديدة" بدون إزعاج للرقابة المستمرة من التليفزيون ، والصحافة ، أما إذا اعترض الفلسطينيون أو أصدقاؤهم فسيطلب منهم الالتزام بالصمت حتى لا يخاطروا بنقض الاتفاق الذى تم التوصل إليه بين الإسرائيليين ومنظمة التحرير الفلسطينية.

ومن المتوقع أن تعمل إسرائيل على تحويل الأراضى المحتلة ، وغزة ، وأريحا إلى مزرعة لها عن طريق ممارسة الضغط على حلفائها (وكذلك على غالبية منتجى البترول ذوى الحظ العاثر) ؛ لتوجيه الاستثمارات نحو المشروعات الصناعية التى يمكن استخدامها ليس لصالح الفلسطينيين ولكن لدعم اقتصاد إسرائيل المتداعى ، ولا شك أن إسرائيل تعرف أنها لا تستطيع الاعتماد على المعونات سواء من الولايات المتحدة أو من تجمعات اليهود المتفرقة .

ما أفضل مصدر تمويل احتياطي للتوسع لإسرائيل بخلاف منتجي البترول الدوليين ، واقتصاديات الدول التي تعتمد على استنزاف المصدر الحقيقي الوحيد للعالم العربي ؟ ربما كان من غير الواقع إثارة مثل هذا المفهوم الآن ، ولكنه قد يصبح مطروحًا في السنوات القليلة القادمة ، وكذلك فإنه من الصعب أحيانًا مقاومة الرغبة في الاستناد على التنبؤات الموروثة .

ولدينا دليل جاهز على أن إسرائيل تخطو نحو تقديم نفسها بوصفها الاستحكام الوحيد ضد ما تشير إليه بوصفه المد المتزايد للأصولية الإسلامية ، ويعتبر وجود إسرائيل وسلوكها خلال نصف القرن الماضي أحد الأسباب الرئيسية لنمو شعور التضامن في العالم الإسلامي ، خاصة في الدول التي تتحدث اللغة العربية وفي إيران، وهي التي يطلق عليها الآن اسم الأصولية . ولا شك أن هذا الاصطلاح يماثل نفس مفهوم "القومية العربية" الذي انتشر في الستينيات والسبعينيات والذي تستخدمه إسرائيل لتخويف حلفائها كي يستمروا في مساندتهم غير المحدودة لسياستها، ولم يتغير شيء قاطع من خلال التطورات الأخيرة ، وستواجه إسرائيل صعوبة متزايدة في مساندة اقتصادها السياسي لأسباب اكتشفْتُها ؛ ولكن بالرغم من التشاؤم الذي أقابل به الاتجاه المحدود في تناول شئون غزة وأريحا إلا أنه يعتبر بداية لتصنيف الأنواع. ويعتقد إسحاق شامير الذي حمل السلاح في وقت من الأوقات ، ثم أصبح رئيسًا لوزراء إسرائيل أن أي تنازل للفلسطينيين بخصوص الأرض يعتبر بداية النهاية ، وأظن أن ذلك الاعتقاد صحيح .

إن السماح بتحقيق أي جزء من مطالب الفلسطينيين بخصوص أرضهم لابد وأن يقود حتمًا إلى الاعتراف بكامل الحقوق الفلسطينية ، إن بقاء إسرائيل كدولة يرتكز على تركيبة من المقدمات المزيفة والتاريخ المصطنع مع سلسلة من ردود الأفعال بالنسبة للمشاكل التي لا تخص الشرق الأوسط بل أوربا والتي نتج عنها قبول مزاعم الإسرائيليين لإقامة هذه الدولة ، وذلك لأسباب سيكشفها هذا الكتاب بالتفصيل . ويبدو لي أن هذه المزاعم لا تؤيدها نصوص من القانون أو العدالة ، وإذا صار الفلسطينيون غير متزعزعين وأداروا سياسات القضية التي يعرضونها الآن بمهارة وإلمام بشئون

الحياة ، فإنهم قد يشاهدون أراضيهم وهى تعود إليهم طبقًا لشكل البناء السياسى الذى يقترحه هذا الكتاب ، بحيث يتحقق السلام الحقيقى بين السكان اليهود وغير اليهود من أهالى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وقد اختار الفلسطينيون خلال مناسبات عديدة فى الماضى مساراً خاطئًا أدى إلى ظهور التناقضات ، وعليهم فى هذه المرة أن يشقوا طريقهم ليس بقوة السلاح ولكن بالإدارة الدقيقة للسياسة الرفيعة .

الفصل الأول

الخطأ الشنيع

لقد ارتبطت لسنوات طويلة مضت بتحليل وعرض تاريخ ذلك الجزء من العالم الذى شاهد تفاقم المواجهة بين العرب ودولة إسرائيل ، خلال معظم سنوات النصف الثانى من القرن العشرين . ولا شك أن الأوقات التى كنت فيها مهتماً بهذه القضية تعود إلى سنوات طويلة قبل الوقت الحالى - بالرغم من عدم الاقتصار عليها وحدها ، بفضل طائفة من الأحداث الغريبة والميمونة الطالع أصبحت مندمجًا فى سياسات وشئون الشرق الأدنى حتى اليوم . ومهما كان الأمر فقد بدا لى واضحًا أن الأحداث لم تكن سابقة لزمانها بالنسبة للبعض وبصرف النظر عن قصورها ، فقد حاولت ترتيب السياسات الحالية الخاصة بموضوع فلسطين وإسرائيل داخل نوع من المنظور التاريخى ، وذلك للتعبير عن بعض الحقائق التى توضح المواجهة بين الفلسطينيين والإسرائيليين بعيداً عن التضخيم الذى تؤدى إليه الخرافة ، والأسطورة ، والتضليل ، مما أدى إلى طمسها كلية لفترة زمنية طويلة ، وهذا أمر مؤكد ، وبعد ذلك تأتى محاولة جسورة لتقديم معادلة للاستخدامات الغريبة (والخطيرة بالنسبة لى) التى أقحم فيها التاريخ، والأسطورة ، واللغة ؛ لتبرير وجود دولة إسرائيل واستمرارها فى فلسطين .

وقد تم إجراء العديد من الحوارات التى قصد بها إيجاد مسوغ لبقاء دولة إسرائيلية فى هذا الجزء من شرق البحر الأبيض المتوسط والذى عرف عامة باسم فلسطين اعتماداً على التفسير - أو الاختراع المثير للخجل أحيانًا - للسوابق التاريخية التى تغطى أسطورة قبلية عاشت لفترة زمنية طويلة . ومن الضرورى كما يبدو لى استعراض الأمثلة التاريخية . وفحص الأساطير ومعرفة مدى مساهمتها معنويًا

فى الوصول إلى النتائج التى زعمتها إسرائيل ، وأنا متأكد من أنها ليست كذلك ، وأتمنى أن يفهم الكثيرون الحقائق التى أثق بها تلك التى لم تكن أكثر أهمية مما هى عليه الآن .

إن آخر التطورات الدرامية التى سيراها بعض الأفراد الأكثر تفاؤلاً منى بوصفها أول دلائل المستقبل التى تؤدى إلى تحقيق السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين - ستجعل من الضرورى فهم الحقائق الضرورية الخفية التى غطت أكثر من الأربعين سنة الأخيرة من الوجود الإسرائيلى ، وإذا لم نفهم حقيقة طبيعة ، وتاريخ إسرائيل ، والنتائج التى تمخضت عنها والتى تبدو لى وكأنها لا مفر منها ، فإن الفلسطينيين لن يحققوا فى النهاية العدالة أو السلام والاستقرار في الشرق الأوسط .

وهذه هى العناصر الضرورية : المهاجرون اليهود الذين ينتمى معظمهم إلى الأصل الأوربى وجاءوا إلى الأرض التى كانت جزءاً من فلسطين ويطلق عليها الآن اسم إسرائيل ، يدعون الآن أنهم الأحفاد المباشرون وورثة هؤلاء الذين احتلوا الأرض التى نال فريق من العشائر - التى تتحدث إحدى اللغات السامية من إله إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب (وهم ثلاثة من هؤلاء الأجداد الذين يدعى اليهود أنهم ينحدرون عنهم وعن غيرهم من الساميين) - الوعد بامتلاكها فى وقت مبكر من الألف الثانية قبل الميلاد (*) .

وبالإضافة إلى ذلك فإنهم يدعون أن هؤلاء الذين قبلوا اليهودية ديانة لهم قد أصبحوا بذلك "أولاد إبراهيم" ، وأن لهم حقًا متساويًا فى العيش على أرض إسرائيل ، وفى ضوء هذا النسب أو الميراث المزعوم فإن كل يهودى يحق له بصرف النظر عن الأصل الذى جاء منه الادعاء بالحق فى (العودة) إلى إسرائيل ونوال حق المواطنة بهذه الدولة .

(*) اقرأ : (رأى المسيحية فى إسرائيل) محاضرة ألقاها قداسة البابا شنودة الثالث فى نقابة الصحفيين مساء ٢٦ يونيو عام ١٩٦٦ م ، حيث نجد تفنيداً كاملاً لكافة مزاعم إسرائيل مع شرح المعنى الحقيقى للوعد الذى ناله الآباء : إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب بما فى ذلك تفنيد ادعاء اليهود بأنهم شعب الله المختار ، وبيان عدم أحقيتهم فى امتلاك الأراضى الفلسطينية . (المترجم)

وحسب مصطلحات هذا العصر ، فإن إسرائيل تعتمد فى الادعاء الشرعى لبقائها على تصويت من الجمعية العامة للأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٨م باقتراح شكل من التقسيم لفلسطين تعترف فيه حينذاك بحق دولة لم يحدد اسمها فى إقامة كيان خاص باليهود ، وقد أصبح هذا الكيان هو دولة إسرائيل بالرغم من عدم وضوح الطريقة التى تقصدها الأمم المتحدة .

أما الفلسطينيون الذين يعتبرون أنفسهم جزءاً من المجتمع العربى الأكبر (تعتبر كلمة "العربى" اصطلاحًا يصعب تحديد معناه الدقيق كما هو الحال بالنسبة لكلمة اليهودى) ، فإنهم مسلمون من حيث الانتماء الدينى مع وجود عنصر مسيحى مهم ضمن مجموع السكان ، وهم من جهة يرون أنفسهم أحفاداً للجنود المسلمين الذين فتحوا بلدان شرق البحر الأبيض المتوسط عقب بعثة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) مندفعين من شبة الجزيرة العربية ، ومن جهة أخرى فإنهم هم السكان الأصليون لفلسطين والذين عاشوا فيها منذ غابر الأزمان . ويتضح لنا الآن وجود قدر من الخلط بين هاتين الصورتين اللتين يتمسك بهما الفلسطينيين عن أنفسهم ، أما بالنسبة لهؤلاء الذين يعرفون شيئًا عن العالم العربى وسكانه ، فإن الفلسطينيين يَظهرون أقلَّ ارتباطًا فى الكثير من النواحى بالنسبة لغيرهم ، فإذا أخذنا المصريين مثلاً أو سكان سوريا ولبنان الذين هم أكثر سكان شرق البحر الأبيض المتوسط شبهًا بالأوربيين ، فإننا سنجدهم أكثر تحفظًا ، وعناداً ، وهم أيضًا يحسنون تدبير أمورهم ، وماهرون ، وجادون فى أعمالهم وموهوبون ، بالرغم من أن الكثيرين منهم ما زالوا يتبعون نفس أسلوب حياة أجدادهم لأن بعضهم ينتمى إلى صغار الفلاحين ويمارس الزراعة ، بالإضافة إلى سكان المدن البسطاء الذين يعيشون فى تجمعات صغيرة فى إخلاص واضح ومظهر يميل إلى السعادة الداخلية ، وقد استطاع الكثيرون منهم الوصول إلى مراكز مرموقة ومحترمة فى الدول العربية وفى العالم خارج الشرق الأوسط عندما اضطروا للبحث عن أرزاقهم بعيداً عن فلسطين ، ومن بينهم أيضًا أكاديميون ، ومديرون ، ومستثمرون ، ناجحون ومحترمون ، ولم يكن من السهل دائمًا تصويرهم كضحايا لسوء الحظ بحيث تحرك معاناتهم وحرمانهم ضمير العالم .

وربما كان من الفكاهة القول بأن الفلسطينيين قد أطلق عليهم فى بعض الأحيان اسم "يهود العالم العربى" ، ومن المؤكد أنهم يتميزون بالإنجاز الرفيع ، والوضوح فى

أساليبهم من خلال الكثير من عاداتهم ، ومعظم ثقافتهم ، واهتمامهم ، بالعلم والمعرفة ؛ ولكنهم الآن وللأسف الشديد قد اعتادوا على النفى والاضطهاد ، وأثناء تأسيس دولة إسرائيل وتجريدهم من أملاكهم تناقصت أعدادهم ، وأصبحوا بلا أصدقاء ، وارتبكوا بسبب الكارثة التى عرضهم لها القدر .

كان الفلسطينيون من الناحية السياسية ساذجين وغير مدركين للأهمية الأساسية التى حققها خصومهم ببراعة اعتماداً على البحث عن الأصدقاء فى مكاتب الحكم ، وارتياد مواقع العالم الصناعى التى لم يعرفها معظم الفلسطينيين أو يمكنهم الاتصال بها ، وحتى بعد إقامة دولة إسرائيل ولفترة حرجة استغرقت جيلاً أو أكثر أضاع الفلسطينيون الوقت فى المنازعات المدمرة ، والانتقال من حزب إلى حزب داخل الصراعات العربية وفى موجات متتابعة من الغارات الصغيرة غير الفعالة ضد الأهداف الإسرائيلية ، وكانت تلك الغارات متشابهة دائمًا وسرعان ما يتم إجهاضها بمعرفة خصومهم الأكثر دراية والذين يمتلكون الأسلحة المتطورة ، والتكنولوجيا المتقدمة التى أمدهم بها حلفاؤهم الغربيون المضللون والذين أسىء توجيههم ، وقد تضاعفت حاجة الفلسطينيين للنجاح فى الجانب العسكرى بسبب فشلهم فى إقناع العالم خارج الشرق الأوسط بالعدالة مع الصمت الأكثر إثارة للمرارة أثناء إثارة قضيتهم ، وكثيراً ما أظهر العرب ومساندوهم أعراضاً واضحة لجنون العظمة أو الاضطهاد كلما واجهوا مهارات الإسرائيليين ، وقدراتهم على استغلال مراكز التأثير ووسائل الإعلام العالمية ، وكان التغلغل الإسرائيلى فى المجتمع السياسى الأوربى والأمريكى على وجه الخصوص ملحوظًا حتى أواسط الثمانينات ، ولم يكن نتيجة الإعداد المسبق لدفع هذه المجتمعات نحو القضية الإسرائيلية كما يعتقد العرب ، أو نتيجة لاستمالتها نتيجة للتأثير اليهودى المالى والتجارى ، فقد كان مثل ذلك الترتيب واضحاً أحيانًا ، كما أنه حدث بالفعل فى بعض الأحيان وأنا أشهد بذلك ، ولكن الانتصارات السياسية والدعائية التى حققها الإسرائيليون وأصدقاؤهم كانت دائمًا نتيجة للتنظيم الواعى ، والتصرف الماهر من مسانديهم ، وإمدادهم بالمجادلات الجاهزة التى تنطبق على كل قضية سواء لجذب الانتباه نحو بعض الأعمال العنيفة التى يقوم بها العرب أو لتبرير ما يراه البعض فعلاً قمعياً أو إجبارياً من جهة السلطات الإسرائيلية نفسها .

وقد كان من السهل دائمًا بالنسبة للعالم ملاحظة الانحرافات العقلية ، والأخلاقية التى يقوم بها أنصار إسرائيل .

لقد تشكلت فى كل مجتمع رئيسى فى العالم الغربى لجان عمل لصالح إسرائيل تؤدى وظيفة التحكم فى وسائل الإعلام - الصحافة ، والإذاعة ، والتليفزيون - وأيضًا الندوات الخاصة بالجمعيات السياسية لكى ترد حالاً على أى فعل أو مناقشة انتقادية ضد إسرائيل أو فى صالح خصومها .

وقد بدأت هذه الآلية الخاصة برد الفعل فى العمل تدريجيًا بشكل ذاتى دون مراعاة للحقيقة ، وسيطرت عليها الحاجة للاستجابة بمعرفة هؤلاء الذين شكلوا الجماعات المسئولة عن هذا الواجب ، وقد قامت هذه الجماعات المؤيدة لإسرائيل قبل غزو لبنان سنة ١٩٨٢ بإغراق أى صحيفة جذبت انتباه رجال الدعاية الإسرائيليين بالخطابات ، والمحادثات التليفونية الواردة من أنصار إسرائيل (وهم بالطبع من اليهود فقط) الذين يطالبون بمساندة وجهة النظر الإسرائيلية ، ويهددون بحدوث نتائج أليمة أهمها ضياع ما تدره الإعلانات إذا لم تأت هذه المساندة سريعة وجاهزة تحت الطلب .

وأصبح أعضاء الجمعيات السياسية القومية والإقليمية مستهدفين وحذرين من جهة التعبير عن آرائهم فى القضايا التى كانت تبدو بعيدة الاحتمال ، وذلك للمحافظة على مصالحهم الانتخابية وحتى لا تطلق عليهم الاتهامات بأنهم (معادون للسامية) ، وبذلك يصبحون عرضة للرمى فى نيران الموت السياسى ، أما عن الأعضاء الأقوياء فى مجلس الشيوخ الأمريكى ، فقد أتيحت لهم الفرصة للندم على اليوم الذى يتحتم عليهم فيه - سواء عن طريق البراءة أو الإدانة - أن يتحدثوا بلطف عن القضية الفلسطينية أو يتعاطفوا مع الوضع الإسرائيلى ، وبعد غزو لبنان وعندما بدأ القناع ينزلق عن وجه إسرائيل بدأت الأمور تتغير ؛ ولكن هذا التغيير جاء بطيئًا .

وكانت أنشطة لجان العمل السياسية الأمريكية الإسرائيلية (AIPACS) بالولايات المتحدة الأمريكية شرسة ، لأنها كانت تدفع مبالغ ضخمة من الأموال لمساندة الحملات الانتخابية لأصدقاء إسرائيل حتى إن السياسى الذى ينتقد المساندة الدائمة من

الولايات المتحدة لإسرائيل بالرغم من الإدانة الدولية ، كان يجد نفسه معرضاً لسيل من الشتائم والطعون ، وتتجه المبالغ المالية الهائلة والنفوذ السياسى لمنع إعادة انتخابه ومساندة خصمه . وكان الاستخدام الواسع لأسلوب مكارثى الخاص بالقائمة السوداء ضد أعداء إسرائيل فيه الكفاية لتثبيط همة السياسيين الأمريكيين ومنعهم من وضع أنفسهم فى موضع الناقد لإسرائيل ولو بأسلوب معتدل ، فما بالك بمن يدان بهذه التهمة أو يساند الفلسطينيين . وقد جرى استخدام هذا الأسلوب الموروث عن عصر مكارثى عندما وجد الكثير من المثقفين اليهود أنفسهم ضحايا للحملات الانتخابية للكونجرس فى ولاية ويسكونسن ، وقد تم إثبات ذلك فى مطبوعات مثل نشرة "The campaigns to Discredit Israel" التى نشرتها لجان العمل السياسية الأمريكية الإسرائيلية (AIPACS) سنة ١٩٨٣ ، وهى تتضمن أسماء الموظفين والسياسيين المنتخبين الذين لم تكن وجهات نظرهم أو أفعالهم مقبولة من مساندى دولة أجنبية فضّل مؤلفو هذه النشرة وضع مصالحها فوق مصالح أمتهم الأمريكية .

وحتى على المستوى المتواضع للتجربة الشخصية فإن أى شخص يصنف سياسياً باعتباره يحتل موقعًا معادياً لمصالح دولة إسرائيل فإنه يواجه سيلاً من المحادثات التليفونية البذيئة أو التهديد باستخدام العنف ضده ، ومثل هذه الأنشطة غير المقبولة بالرغم من أنها تجرى فى مجتمعات حرة كانت هى النتائج الحتمية للتوزيع شبه الأوركسترالى لحملات الكراهية ، والقذف التى وجهت ضد معارضى إسرائيل ، وأضيف إلى مشاعر العرب بجنون العظمة أو الاضطهاد منع أصدقائهم من أن يحسبوا معدودين بينهم .

أما إسرائيل خلال السنوات الحرجة التى تلت حرب سنة ١٩٦٧ وعندما وجدت للمرة الأولى أن بعض الناس قد ظلوا حتى ذلك الحين متعاطفين مع إسرائيل ، فقد بدأت فى مناقشة سياساتها عقب احتلالها لأجزاء من الضفة الغربية للأردن ومرتفعات الجولان ، وقطاع غزة ، أما العرب أنفسهم فلم يفعلوا إلا القليل لإحراز التقدم فى قضيتهم واكتفوا بمنازعاتهم وخصوماتهم الداخلية (التى لم تخلُ من الاستهانة بالأمور بنسب مختلفة) مما أدى إلى صرف الانتباه عن تغلغل إسرائيل فى مراكز القوة ، والتأثير فى بلدان الغرب الصناعية أكثر من ذى قبل .

لقد بدأ اهتمامى المهنى بالشرق الأوسط عند نهاية الستينيات بشكل مناسب ، حيث بدأ بمصر لأنها تمثل أقدم دولة قومية ، وكان لها تأثير عميق فى تطور العالم الذى نعيش فيه اليوم - بالرغم من أن معظم هذا التأثير كان مدفونًا تحت تراكم الآلاف من التأثيرات الأخرى ، وبالرغم من أن العلاقات السياسية بين بريطانيا ومصر كانت مقطوعة عند نشوب أزمة السويس سنة ١٩٥٦ إلا أنها أعيدت بعد ذلك بحوالى ثلاث سنوات ، وقرر المصريون طلب المشورة التى يمكن أن تساعدهم فى علاقاتهم مع وسائل الإعلام ، والبرلمان ، والصناعة ، وقد رشحنا للقيام بهذه المهمة وزير الثقافة والإرشاد القومى بجمهورية مصر العربية وبذلك حدث التقارب بيننا .

وكان دورنا الأساسى يتمثل فى تقديم النصح لرسم وإدارة حملة لتطوير السياحة إلى مصر ، وخلال فترة التقلبات السياسية التى تلت حرب السويس وحملة الدعاية المحمومة ضد مصر التى توزعت بين المصالح البريطانية خاصة فى الصحافة وبين الإسرائيليين ومسانديهم ، تأكدنا سريعًا أنها عمل سياسى مكشوف أكثر مما هو متوقع لأول وهلة ، ومما أثار دهشتنا أننا وجدنا أنفسنا طوعًا أو كرهًا قد غرقنا فى لجة أكثر قضايا العالم العربى إثارة للاهتمام ألا وهى فلسطين والمواجهة مع إسرائيل ، وقد ظللت حتى سنة ١٩٦٠ مبتعداً مع التحفظ الملحوظ عن الهدف والمغزى المقصود من غزو السويس الذى أدى حسب رأيى الشخصى إلى الانسحاب من المشاركة السياسية الفعالة ، وقبلت الكثير من خط الدعاية الذى يقدم إسرائيل كجزيرة غربية صغيرة شجاعة محاطة بعدو متوحش ، وقاهر ، وضخم العدد ، وفى إحدى الليالى كنت فى مالطة وهناك حدث لى تغيير حاد فى وجهة النظر وقت تناول الغداء عندما استمعت إلى أخبار اختطاف إيخمان بمعرفة المخابرات الإسرائيلية .

كان إيخمان مخلوقًا خبيثًا يمثل صورة نمطية للموظف الصغير الذى أسندت إليه فجأة سلطة قائد من التتار ، مع الرغبة فى الإفراط فى تدمير أقرانه من البشر الذين اعتبرهم أعداء لما كان يعتقده هو أو الذين عارضوا هؤلاء الذين اعتقد أنه يخدمهم . وقد استمعت كولد صغير إلى إذاعة الأحكام التى صدرت ضد المتهمين الرئيسيين أثناء محاكمات نورمبرج ، وبالرغم من أنهم جعلوا أنفسهم منبوذين من الجماعة الإنسانية إلا أنهم ظهروا لى غير مدانين أكثر من معظم الأعداء الذين انهزموا فى كافة نزاعات

الماضى ، ولكننى ظننت – وما زلت أظن – أن قرارات المحلفين فى نورمبرج قد أساءت إلى الحلفاء المنتصرين الذين عقدت هذه المحاكمات باسمهم . وعندما استمعت إلى قصة اختطاف إيخمان عرفت أن هذا القرار غير قانونى بشكل واضح ؛ لأن إيخمان كان يعيش فى ذلك الوقت فى دولة ذات سيادة لها قوانينها التى تمارس عمليًا مما جعلنى أشعر بالفزع ، إن هذا الاختطاف بصرف النظر عن مدى خسة إيخمان كان عبارة عن فعل إرهابى قبيح ، وكنت أتمنى أن تفهم إسرائيل مع وجود قوانينها رفيعة المستوى الخاصة بالفرد والأخلاقيات السياسية أنها بإعدام إيخمان شنقًا ستضع نفسها فى نفس مستوى الشر الذى نضح من ألمانيا وأراضيها المهزومة خلال الحرب العالمية الثانية ولو كانت إسرائيل قد حاكمت إيخمان ثم أطلقته إلى العالم كبش فداء موسومًا بعلامة تشبه علامة قايين (قابيل) ، فإن ذلك فى رأيى هو ما كان سيبرهن على صحة القيم والمثاليات اليهودية التاريخية .

لقد قام الإسرائيليون بشنق إيخمان وليس هو الشخص الوحيد الذى يقتل على يد النظام الإسرائيلى ولكنه الشخص الوحيد الذى يقتل مع العلم بما حدث ، وأعتقد أن إسرائيل بهذا الفعل تضع نفسها على بداية مسار لن تتراجع عنه أبدًا .

عندما بدأ عملنا مع مصر فى عام ١٩٦٠ وهو عام اختطاف إيخمان ، وجدنا أن السياح الأجانب قليلى العدد الذين خاطروا بزيارة مصر واجهتهم بيروقراطية خانقة ، وترتيبات نظام إدارى مستبد ، وتعرضوا لفيض من الدعاية لصالح فلسطين أخرجت إخراجًا تعوزه المهارة الفائقة وجرى التعبير عنها بجهل مطبق ، وبصرف النظر عن العرض *السخيف للمادة الدعائية فإن السياح الذين زاروا أرض الأهرامات لم يريدوا أن يتعرضوا عن رضا أو قسرًا للعرض المحموم لقضية سياسية لا يعرفون عنها إلا القليل* ، وكان اهتمامهم بها أقل ، ولم تكن هذه هى الطريقة المناسبة ولكننا نجحنا فى إقناع المصريين بأن يرفعوا أكوام المنشورات والنشرات التي تضر هذه القضية أكثر مما تفيدها.

ومرت الأعوام حتى إذا جاء عام ١٩٦٧ شنت إسرائيل مرة أخرى حربًا ضد مصر ، وسوريا ، والأردن [(١)] وكانت نتيجتها هزيمة فادحة للعرب ، وقد اقترح جمال عبد الناصر الذى كان مسئولاً عن النكبة بدرجة كبيرة أن يتنحى عن الحكم ؛ ولكن مع

ذلك وفى سلوك مؤثر خرجت الجماهير المصرية أو على الأقل ذلك القسم منها الذى كان يسكن القاهرة رافضًا السماح له بالتنحي بالرغم من أنه كان منكسرًا بشكل واضح .

وخلال الأسابيع التى تلت حرب يونيو سنة ١٩٦٧ كنت منزعجًا لهذا الأسلوب الشاذ – كما بدا لى – والذى قبلت به جميع قنوات الرأى الخط الإسرائيلي وعبرت عن ترحيبها بإهانة العرب بسرور واضح ، وكان رد الفعل عنيفًا لصالح إسرائيل وضد العرب كما بدا لى وللآخرين الذين فكروا مثلى أن الأمر برمته لم يكن منطقيًا وضد أصول الخصومات السياسية ، لقد كانت هناك خصومة سياسية فى العالم الذى وقف كله لتأييد جانب واحد من المناقشة ، وبعد نهاية حرب الأيام الستة بقليل كتبت ونشرت ما اعتقدت أنه كان أول عرض لقضية العرب فى شكل كتاب ، أو بالتحديد كتيب بعنوان : (الحاجة إلى فهم القضية العربية – " The Need For Understanding the Arab Case") وقد استُقبل باحترام فى بريطانيا وبحماس فى الصحافة العربية ، وأعتقد أنه كان سببًا فى حدوث تغيير طفيف فى أفكار كل فرد .

وفى ذلك الوقت قام عدد من الأشخاص البارزين فى المجتمع الإنجليزى العربى فى لندن – من رجال السياسة ، والدبلوماسيين المتقاعدين ، والأكاديميين ، وغيرهم بالتجمع معًا لاحتواء الفيض المتواصل من الدعاية المعادية للعرب التى وجهت إلى الحلبة السياسية وإلى وسائل الإعلام ، وقد دفعهم إلى ذلك الاضطراب الذى حركه الظلم الشديد الذى وقع من وسائل الإعلام ورد الفعل السياسى نحو الموقف العربى.

وكانت إليزابيث كولارد Elizabeth Collar مؤسسة جريدة " Middle East Economic Digest " [٢] هى المحرك الأول لهذا الاقتراح وكانت هذه السيدة تلتمس مساعدتنا دائمًا فى الشئون ذات الاهتمام المشترك والمصلحة المشتركة ، وأتذكر أن الاجتماعات الأولى قد عقدت فى مكاتبنا وقد انبثق عنها مجلس تعزيز التفاهم العربى البريطانى (CAABU) [٣] ، وهذه التسمية ثقيلة الوقع إلى حد ما ؛ ولكن المجلس نفسه يمثل مسعى مشكورًا استطاع على مدى السنوات الماضية أن يعمل الكثير لتحسين الوعى بالموقف العربى ليس فقط بالنسبة لإسرائيل وفلسطين ، ولكن أيضًا بالنسبة للقضايا الأخرى وأقلها تبادل المصالح والتاريخ اللذين يتقاسمهما معظم أبناء العالم العربى مع

أوربا وعلى وجه الخصوص مع بريطانيا ، وعند بداية السبعينيات وقفنا مع الجامعة العربية التى كان يعمل بقسم الاستعلامات بها عدد من الموظفين المصريين الذين عملنا معهم فى الماضى وقد نقلوا أنفسهم أيضًا ، وكان عملنا يتلخص فى مساعدة مكتب الجامعة فى لندن ، وحاولنا البحث عن اختراع خطة متماسكة للدول العربية فى عملية إنتاج سلسلة من نشرات المعلومات تقدم للصحافة والأشخاص الذين يعملون فى المجال السياسى والاقتصادى بالدول المختلفة فى محاولة للإقلال من التصريحات السرية المتزايدة التى تتعلق بهم والتى تنتج عن الخيال وتعبر عن سوء القصد ، وأنتجنا كذلك فيلمًا عن أصول الصراع الفلسطينى الإسرائيلى كان يرتكز أساسًا على المواد الأرشيفية ، وأظن أنه كان من بين أفضل الأفلام التى من نوعه حينذاك ، ونظرًا لأن مضمونه كان تاريخيًا فى معظمه ، ومناقشاته هادئة فلم يلقَ الاستحسان من نشطاء الفلسطينيين ذوى الأصوات المرتفعة ، وعلى كل حال فإنه لقى قبولاً جيدًا فى الجامعات وغيرها من بيئات المستمعين ذوى التأثير فى كافة أنحاء البلد.

وقد اقترحنا على الجامعة العربية أن ترعى موضوعًا ملحقًا أو إعلانيًا فى جريدة التايمز لتجذب الانتباه نحو تدهور الوضع فى فلسطين فى بداية سنة ١٩٦٩ ، وكانت مثل هذه الملاحق وسيلة قصدنا بها تحقيق مكاسب للجرائد الكبرى ذائعة الصيت التى يلقى المعلن من خلالها معاملة تحريرية مكثفة فتشغل مادته الإعلانية عددًا من الصفحات وتساندها إعلانات من أصحاب المصالح ذوى الاهتمام ، أو أن تقوم دولة أجنبية بعمل دعاية عن مصادر ثروتها الكامنة كمصدر للاستثمار ، وتطوير صادراتها أو النشاط السياحى بها أو تقديم رسالة سياسية موجهة ، وقد اقترحنا أن تقوم الجامعة برعاية مثل هذه المادة الصحفية وأن تستخدمها لإبراز الموقف الفلسطينى ، وكان هدفنا من النشر فى التايمز أن نناقش بالتحديد ما يحتاجه الفلسطينيون لإقناع القراء بعدالة قضيتهم .

وسرعان ما لقيت دعوتنا القبول لدى الجامعة ، وكان هذا الأمر يتعلق دائمًا بقضية فلسطين وحتى الفلسطينيين فى بريطانيا امتثلوا لهذا الأمر بالرغم من أن قيادتهم فى ذلك الوقت كانت تعتبر جريدة الديلى وركر Daily worker أقرب إلى ذوقهم من جريدة التايمز ، وقبلت الجريدة عرضنا بأن تقوم الجامعة العربية برعاية بعض

المواد الصحفية وكانت هذه نتيجة معروفة مقدمًا بالرغم من حماس التايمز الطبيعى لتحقيق الدخل الإضافى الذى ، تمثله ولكنها وافقت على العقد مع وضع شرط غير عادى ينص على أن تحمل كل صفحة كلمة "إعلان" . وكان من الملحوظ أن هذا الشرط لم يكن يطبق فى حالات إعلانية أخرى تحمل مضمونًا سياسيًا ، وعلاوة على ذلك ، فقد طلبت التايمز إضافة مستطيل واضح فى قمة الصفحة الأولى للملحق الذى يشمل هذا الإعلان ، وعلى حسب علمى فإن هذا التنازل عن الحق ليست له سابقة أما العبارة التى يتضمنها هذا المستطيل فهى : "هذه الصفحات إعلان سياسى تحت رعاية مكتب الجامعة العربية فى لندن ، وقد قبلت جريدة التايمز نشره تطبيقًا لسياستها التقليدية ولكنها لم تكفل أيا من الحقائق أو الآراء التى عبر عنها".

أما هذا الإعلان الذى لو كان قد ظهر فى جريدة أقل شهرة كان سيتجنب مصارحة الآخرين بأخطائهم ولا نقول انتهازيًا ، وكان سينشر بالإضافة إليه إعلان آخر على الصفحة الأولى يقول : "قبل مؤلفو هذه المادة الصحفية دعوة مكتب الجامعة العربية فى لندن للمساهمة فى هذا الموضوع ".

ولما كانت جريدة التايمز تريد أن تنأى بنفسها عن المقال الرئيسى الذى يظهر على صفحاتها فقد أصبحت متخوفة تمامًا من الإعلان بكامله ، ولم يمنع ذلك من إحساس القائمين على الجريدة بقدرتهم على قبول الشيك الوارد من الجامعة العربية ومرة أخرى وافقت الجامعة العربية على كل شروط جريدة التايمز حسب نصيحتنا بالرغم من أن ذلك الأمر غير عادى .

وقد طلبت إلينا جريدة التايمز اقتراح أسماء الكتاب الذين توافق عليهم الجامعة مع تقديم ملخص للموضوع التحريرى ، وقد نفذنا ذلك وتمت الموافقة عليه بدون مناقشات ملحوظة حيث إن الجامعة كانت حريصة على عرض قضيتها بطريقة مقبولة لدى قراء التايمز، وكان الكثير من المشتركين أعضاء فى مجلس تعزيز التفاهم العربى البريطانى (CAAPU) ، كما كان هناك عدد كبير أيضًا بين مؤسسى الجريدة ، بالإضافة إلى أن الجميع كانوا معروفين فى مجالات عملهم . ومع اقتراب موعد النشر دعيت للاتصال بالمحرر فى مكاتب التايمز ثم لبث فى ميدان المطبعة ، وذهبت لمقابلته

ومعى أحد رفقائى ، وكان المحرر جالسًا على كرسى هزاز ويهز نفسه طوال وقت المقابلة ، كما لو كان قد سلطت عليه الأضواء من نقطة مركزية لتضخيم منظر جلوس محرر أكثر الجرائد اليومية اعتبارًا فى العالم ، وسألنى بلطف واضح عما إذا كنت سأقوم من جهتى بطلب موافقة الجامعة على الموضوع الذى تمت صياغته ، فسألت لماذا يطلب من المعلن مثل هذا الطلب ؟ ولكنه لم يقدم سببًا واضحًا لضرورة موافقة الجامعة على هذا الموضوع فقلت : إننى بالطبع سأنقل طلب المحرر إلى الجامعة العربية ولكننى شعرت بضرورة أن أنصحهم بعدم الموافقة عليه .

وحينذاك طالبنى المحرر فى صوت لو كان صدر عن شخص آخر لأحسست بأنه يواجه خطرًا جسيمًا - بأن أبلغ المشتركين وجميعهم معروفون فى الحياة العامة أو فى مجالات تخصصهم الوظيفى بأنه إذا ظهرت أسماؤهم فى الملحق المقترح فلن يطلب إليهم مرة أخرى الاشتراك فى التايمز ، فطلبت من المحرر عدم تكرار ذلك أو ربما سحبه لأننى اعتبرته كلامًا مفزعًا ولكنه رفض ذلك فانسحبنا مع تبادل تعبيرات الاهتمام ، واستمر المحرر فى إحراز الاحترام مثل بائع الكتب الخاصة بالآثار القديمة والشهرة كرئيس لمجلس الفنون ، ورجعت إلى مكتبى وسارعت بكتابة تسجيل لهذا اللقاء ولا شك أن هناك نسخة من هذا التسجيل ترقد فى مكان ما فى محفوظات الجامعة عن هذا اليوم ، لقد كان المشتركون من الرجال المحترمين ولابد أن أحدًا منهم لن يتأثر بطلب المحرر العجيب ولابد أيضًا أن أحدًا منهم لن ينتقم من الطريقة التى اختارها المحرر للتعبير عن اقتراحه بخصوص القضية .

ومن الواضح أن مخاوف التايمز تضاعفت سريعًا عن طريق بعض معلنيها الكبار الذين كان حماسهم يتجه نحو إسرائيل ، وقد عرفوا بموضوع الملحق وهددوا بسحب مساندتهم الإعلانية من الجريدة إذا سمحت بعرض وجهة نظر حول فلسطين تخالف ما تقرره إسرائيل ومساندوها ، وحسب معلوماتى فإن هذا التهديد لن يوضع موضع التنفيذ إذا نال الملحق استحسان الجماهير (٤) .

وهناك قصة أخرى تتعلق بجريدة التايمز ربما كانت تستحق الذكر لأنها تتجه بطريقة ما نحو تعويض الانطباع السلبى الذى تحمله هذه القصة ؛ لأن هذه الجريدة تتخذ فى الغالب خطًا واضحًا وإيجابيًا فى تناول شئون الشرق الأوسط .

جرى في أغسطس سنة ١٩٦٩ القبض على رجل أسترالى مختل عقليًا بمدينة القدس واتُّهِم بمحاولة إشعال النار فى الحرم الشريف بقبة الصخرة ، وهو ثالث أكبر المقدسات الإسلامية ، وتشكك العرب فى تورطه كما تشككوا فى الاختلال العقلى الذى زعمه ، وطلبت الجامعة العربية مشورتى ومشورة رفاقى عن كيفية التصرف المطلوب القيام به لتوضيح حقيقة الفزع والخطر اللذين أثارهما هذا الفعل الذى دنس المقدسات فى العالم الإسلامى ، وحتى نتأكد من أن الجامعة قد وصلتها هذه الرسالة مباشرة وبدون تشويش (وهذه الحالة لا يمكن الاعتماد عليها دائمًا) ، فقد اقترحنا الحصول على مساحة إعلانية لسرد قصة انتهاك حرمة المسجد.

اقترحنا عرض ما نراه مناسبًا لما حدث ، وقبلت الجامعة أن يظهر هذا الإعلان فى جريدة التايمز، ولم تعترض الجريدة فى هذه المرة ونشر الإعلان الذى أعددناه على صفحة كاملة [٥] ، ولم نسمع عن إثارته للغضب بين معلنى التايمز الآخرين .

أما الذى لم نعرفه فهو أن صناعة الإعلانات كانت حينذاك تقدم جوائز سنوية للإعلانات البارزة ، وقد أصابنا الذهول والفرح فى وقت واحد عندما نال الإعلان الذى نشرناه عن حريق المسجد إحدى الجوائز ، ولابد أن وجوده ضمن الإعلانات الفائزة قد أثار دهشة المعلنين الآخرين الذين لم لم يعتادوا على ظهور الإعلانات المناهضة لإسرائيل فى أكبر جرائد بريطانيا اليومية ، وأن ينال التقدير من الجهة المسئولة عن صناعة الإعلانات.

وفى تلك الأثناء اعتدت على تلقى المكالمات التليفونية التى تحمل التهديدات ، وقد وصلتنى إحدى هذه المكالمات فى شقتى فى أرلنجتون هاوس أثناء تناولى طعام الغداء ، وقد أسمانى المتحدث لأسباب يعنمها وحده باسم (مونتى رايس– Monty Rice) وأسهب فى الحديث عما أحس بأنه السبب فى اهتمامى بالقضية العربية ، وكان من الواضح أنه قرأ دفاعى عن القضية العربية فلم يعجبه ، وتعودت على استقبال مثل هذه المكالمات فى مكتبى من وقت لآخر ، وقيل لنا إن هناك قنبلة قد وضعت فى البدروم وأصبح طاقم العاملين معى يواجه مخاطر الموت ، وقد تعلمنا التعامل مع مثل هذه الظروف بالازدراء بالرغم من أن ذلك لم يقلل من النفور الذى أثاره هذا النوع من السلوك ؛ ولكن ذلك كله

حدث في الماضي ، وكان اهتمامي بالشرق الأوسط على مدى سنوات طويلة ينحصر في إنشاء المتاحف بدول الخليج العربي إلى جانب تطوير البحث عن الآثار في الخليج ، والمملكة العربية السعودية حتى تصبح المنطقة أكثر قربًا من الدارسين وأكثر وضوحًا إلى الجماهير من غير المتخصصين .

واستغرق انخراطي في العالم العربي مدة تتجاوز عمر دولة إسرائيل نفسها ، فسافرت في أرجائه كثيرًا مستمعًا ومراقبًا ، وقد عشت في خضم أحداث ١٩٦٧ ، وحرب ١٩٧٣ التي تعني تغييرًا ملحوظًا في حظ إسرائيل ، وكارثة غزو لبنان . ولم يعد أحد يعتقد بأن إسرائيل دولة لا تقهر ، كما أن أحدًا لم يعد ينظر إلى رجالها السياسين على إنهم ذوي مهارات وقوى نادرة ، وبالتدريج بدأت الصورة التي نشرتها إسرائيل لدى الجيل الماضي والتلفيق الذي بذلته هذه الدولة ، وأنصارها ، والأموال التي صرفتها تظهر في شكل التصدع والإنحلال .

وقد نتج عن غزو لبنان الذي عجل به بقاء إسرائيل زمنًا طويلاً ، والإرهاب المدني المثير للمرارة الذي قاده مناحم بيجين إلى تغيير جوهري في حظوة إسرائيل لدى العالم السياسي الأكثر إتساعًا ، وللمرة الأولى لم تعد سياسات إسرائيل متوارية بل أصبحت واضحة حتى بالنسبة لأشد أنصارها وابتعدت أفعالها كثيرًا عن القيم الأخلاقية الرفيعة التي كان رعاتها يتشدقون بها دائمًا [٦] ، ونتيجة لذلك تعرض تاريخ الدولة الإسرائيلية بأكمله إلى إعادة التقييم والفحص أكثر مما حدث من قبل ، وسلطت الأضواء على سجلها المؤسف المشحون بالنفاق ، والاستغلال ، والخداع .

وفي الفترات الماضية ، لم يستطع أي ظرف أن يضع سياسات إسرائيل تحت الفحص الدقيق بشكل مباشر أكثر مما حدث لها بفعل الانتفاضة [٧] أي العصيان المدني الذي قام به الفلسطينيون العاديون في الأراضي المحتلة ، إن السجل اليومي للقمع والقتل الذي أثار غضب العالم أجمع – بالنظر إلى الأسلوب الذي تم به وتفوقت به إسرائيل على جنوب إفريقيا أو أي دولة كانت تحت الاحتلال الشيوعي – قد أدى على الأقل إلى إثارة الاشمئزاز والفزع بين الكثير من مساندي إسرائيل بمن فيهم الكثير من اليهود أنفسهم في داخل ، وخارج إسرائيل .

لقد حدثت الانتفاضة في وقت تغيرت فيه طبيعة المواجهة بين الفلسطينيين ودولة إسرائيل بشكل جذرى أما الأسباب التى ساهمت فى هذا التغيير فإنها عديدة ومختلفة .

أولاً - حدث انسحاب المصريين من المواجهة العسكرية المباشرة مع إسرائيل ذلك الانسحاب الذى حدث منذ سنوات مضت ومع ذلك فإنه يعتبر جزءاً من عملية التغيير الضرورية ، لقد أوقف انسحاب مصر استمرار الوضع الذى استمر منذ قيام الدولة الإسرائيلية سنة ١٩٤٨ دون ظهور أية علامة على انحسار مصداقية السياسة الإسرائيلية على المستوى الدولى لأنها فقدت فى خبطة ساحقة العدو الوحيد الذى كانت تشير إليه بوصفه أكبر المخاطر التى تهدد بناءها ، والأكثر من ذلك أهمية هو تغيير الاتجاه السياسى الذى قامت به روسيا وسلسلة الاهتزازات الملحوظة فى شرق أوربا ، وكان الاتحاد السوفيتى يرى دائمًا أن التوترات فى الشرق الأوسط تستحق المساندة نظراً لأن خصمه الرئيسى على لوحة الشطرنج العالمية وهو الولايات المتحدة كان دائمًا فى مأزق لا فكاك منه مع دولة إسرائيل ، وهو أن روسيا تشعر دائمًا بأنها تساند الجانب الفلسطينى حسب ميولها ، ومصالحها الذاتية ، وفجأة وافقت روسيا على وضع جديد وهو أن الأنظمة الثورية أو حركات التحرر فى كافة أنحاء العالم لن تعتمد فيما بعد على مساندة روسيا إما لأنها أعلنت نفسها بلاداً ثورية أو لأنها ارتبطت بقضية التحرير ، لقد عرف الروس دفعة واحدة أن العالم الآن أصغر من أن يسمح بانجذاب قوتين عُظميين إلى صراع ليس فى هذه الحالة من صنعهما بسبب أيديولوجية أو تهديد شعب صغير يطلب دائمًا المساندة والمعونة باهظة الثمن بشكل متزايد ، وبينما تبدو الأنظمة العربية الراديكالية للوهلة الأولى إنها هى الخاسرة بسبب تغيير روسيا لوضعها ، إلا أن وضع إسرائيل هو الذى كان يتدهور لأنها لم تعد قادرة على تقديم نفسها بوصفها الاختيار الوحيد الجدير بالثقة فى الشرق الأوسط مقابل التيار العمومى الذى يتجه بالعالم العربى نحو احتضان الشيوعية ، وبالرغم من عدم الاحتمال الواضح لهذه الفكرة فإن الإسرائيليين قد استطاعوا بمهارة غير عادية إقناع الأمريكيين وليس بعض الأوربيين (الذين يعرفون أفضل) بجدوى هذا التأكيد السخيف .

وعلى كل حال ، بقى هناك عنصر خطير فى أعقاب الانهيار الواضح للشيوعية العالمية كقوة تربط بين روسيا وهذه الدول التى كانت تابعة لها ، وبينما ظلت الولايات المتحدة تقف بشدة خلف إسرائيل (رغم إنها كانت تستطيع تحت إدارة بوش أن تختار شكلاً آخر للمساندة غير المحدودة التى يتوقع العالم منها أن تقدمها لإسرائيل) ، فقد ظهرت الدول العربية غير معتمدة على أب روحى من القوى العظمى يدعم ما تطلبه من العدالة فى فلسطين .

أما التطور الوحيد ذو الدلالة الذى حدث فى هذه المواجهة بين الغريمين فهو تطور محلى عندما تولى الفلسطينيون قضيتهم بأنفسهم بعد عقود طويلة من إدارة شئونهم السياسية دون أن تكون لديهم المهارة الفائقة ، أما الانتفاضة وهى حركة عصيان منظمة تعود فى أصولها إلى حسن توجيه السياسيين ، فقد أثبتت عجز إسرائيل لأنه لا يمكن أن دولة تعتمد على الدعم الخارجى تستطيع أن تسمح لنفسها بالكشف عن قيامها بتدمير شعب يائس يتكون خط دفاعه الأمامى من الأطفال الذين يقذفون الحجارة .

وأدت نتيجة الانتخابات التى أجريت فى إسرائيل سنة ١٩٨٨ مصاحبة لهذه الأحداث المعقدة والمحيرة - كما هو الحال دائماً - إلى موقف صعب لا مخرج منه ، وأعقب ذلك أن الفلسطينيين الذين تعلموا مبادئ الحنكة السياسية انتهزوا الفرصة للمناداة بقيام دولة فلسطين ، وأعلنوا أن الدولة مستعدة للتسليم بحق كافة دول المنطقة فى الوجود والتمتع بالاستقرار ، والسلام ، والتخلى عن استخدام الأساليب الإرهابية .

وأصبحت منظمة التحرير الفلسطينية بهذا الإعلان وفى هذه المرحلة الممثل الشرعى للشعب الفلسطينى وسارت على نفس الخط فى المكان الذى كانت تصبو إليه منذ أوائل السبعينيات ، وقابلت إسرائيل ذلك بالازدراء والسباب كما هو متوقع منها ، ولكنها بدلت بشكل جذرى مواقع العديد من القطع فوق رقعة لعبة الموت التى يرتبط بها اللاعبان الأساسيان وقد عملت إسرائيل على تأكيد ذلك بصرف النظر عما يقوله الفلسطينيون حول ما يعتقدونه من ضرورة تدمير إسرائيل ، أما الفلسطينيون من جهتهم فقد تحدثوا عن احتلال أراضيهم وأعطوا للمرة الأولى تعريفاً شرعياً لاحتلال

إسرائيل لهذه الأراضى ، ولا شك أن المعلق السياسى الشجاع هو الذى كان يتوقع هذا التغيير فى مسار الأحداث قبل حدوثها بعام واحد أو حتى يربط بينها نتيجة لحدوثها ، وعلى كل حال ، فقد انقلب الموقف فى الشرق الأوسط رأساً عل عقب ، ولن تعود أبعاد الأزمة التى واجهها الشرق الأوسط منذ إنشاء إسرائيل إلى ما كانت عليه (٨) .

وعلينا أن نتذكر إنه رغم تغير البيئة السياسية جذرياً فإن الحقائق تظل على ما هى عليه ، فقد ظل قسم كبير من الفلسطينيين طريداً خارج وطنه الذى يحتله شعب آخر ، وأن هذا الاحتلال - فى رأى المؤلف - ليس له سند تاريخى أو شرعى ، وما زال هناك فى أمريكا لوبى صهيونى منحاز لإسرائيل ، يحشد التأييد خلف الحكومة الإسرائيلية التى لا تحتل فقط الأراضى التى استولت عليها بالحرب ولكنها أيضاً تسمح فى تجاهل متغطرس للقانون الدولى بوجود المستوطنات التى تضم مواطنيها الإسرائيليين على هذه الأراضى ، وما زالت هناك أيضاً معسكرات اللاجئين المروعة والتى تكتظ بكافة ضحايا إسرائيل المنكودين الذين ظلوا أحياء ، ومع كل ذلك فقد ظل الإحساس العميق بالحرمان والإهانة مخيماً على نفوس العرب من كافة الطبقات والانتماءات بسبب استمرار احتلال الأراضى العربية بمعرفة المستوطنين الأوربيين ، وبصرف النظر عن التغيرات القصيرة الأمد التى أدى إليها إعلان منظمة التحرير الفلسطينية ورد إسرائيل النهائى عليها فإن وضع المستوطنين بالنسبة للفلسطينيين لم يتغير بعد .

ويتبع ذلك محاولة مراجعة العوامل التاريخية والسياسية التى يبدو لى أنها ظلت ثابتة وتختفى تحت ذلك التوتر والوضع الكئيب. ، إنها محاولة - بصرف النظر عن مدى نجاحها - لبيان الأوضاع الضرورية التى لابد وأن تسبق توقعات المستقبل لإقامة حل دائم ، وتضع بعض الشروط التى يتحقق بها هذا الحل الذى لن يؤدى إلى الهدوء أو التفسير المقبول لمعظم الأطراف الداخلة فى القضية ، وعلاوة على ذلك ، فإن الكتاب الذين نصبوا من أنفسهم قضاة للحكم فى قضايا الساعة قد يكتشفون أن الأحداث والمواقف التى يبحثون عنها لتحليلها قد أصبحت فى المؤخرة كما هو الحال ، ويستبعدون كافة العناصر التى أقيمت لتأييدها بصرف النظر عن الحجج المزعومة ، إن قيام ثورة أو حرب محلية محدودة تعتبر أفعالاً غير متوقعة قد يقوم بها أحد الطغاة

تستلزم سنوات من البحث الدءوب والتحليل العميق ، ولكن التطورات الأخيرة تعتبر بمثابة دليل قاطع على صحة هذه القاعدة .

عندما قامت العراق بغزو الكويت وهى بلد لم أتعامل معها مهنيًا ولكن لها دور مهم فى تاريخ الخليج القديم وقد كتبت عنها ، أصبحت مقتنعًا تمامًا بضرورة الحفاظ على سلامة ورفاهية أصدقائى فى بقية أجزاء شبة الجزيرة العربية. كان العالم العربى مهتزًا وقد تمزقت أفكاره وقناعاته السياسية أشلاء مرة واحدة بسبب مصالحه الحيوية التى أصبحت معرضة للخطر ، وكان رد فعل المجتمع الدولى يدين العدوان العراقى الذى أضر بجارته المسالمة. وقد تصرفت الولايات المتحدة ، وحلفاؤها ، وبعض الدول العربية الناضجة سياسيًا بسرعة ، فأرسلت إلى المملكة العربية السعودية قوات تشكل دفاعًا منيعًا ، ولاشك فى أنها أعاقت بذلك خطط العراق للتوسع مستقبلاً فى منطقة الخليج بصرف النظر عن سوء تجميع هذه القوات لأنه نادرًا ما يحدث مثل هذا التهديد لسلام هذا الجزء المهم من العالم ، مما استدعى تجميعها بمثل هذه السرعة لمواجهة خطط العراق لضم الكويت.

وعلى كل حال ، فإن هناك جزء يختص بالقضية الفلسطينية فى هذا الغزو الذى أثار التساؤل عن سبب عدم صدور مثل هذه الاستجابة الفورية من العالم عندما دخلت إسرائيل جنوب لبنان يجعلنا نناقش ما ذكرته إسرائيل من أن مصالحها الحيوية جعلت هذه الغارة ضرورية ، وهو نفس ما رددته العراق عن غزوها للكويت ، وارتفعت أصوات كثيرة تتساءل عن استعداد العالم للسماح لإسرائيل بالاستمرار فى احتلال الأراضى التى احتلتها بعد حرب ١٩٦٧ رغمًا عن تكرار الإدانة الدولية لمثل هذا العمل بمعرفة الأمم المتحدة وكل تجمع سياسى آخر فى أى مكان فى العالم فيما عدا الكونجرس الأمريكى [٩] ، وسرعان ما بدأ قادة العالم الغربى فى الحديث عن ضرورة محاولة حل جميع المنازعات فى المنطقة وليس فقط غزو الكويت ، وعلى رأس هذه المنازعات مسألة العلاقة بين الإسرائيليين والفلسطينيين .

وعندما ظهرت الأحداث المحيرة وغير المتوقعة خلال الأسابيع الأولى من الأزمة الكويتية اتضح لى كما هو الأمر بالنسبة لغيرى من المراقبين أن غزو الكويت قد أعطى

الشعور بالارتياح بالنسبة للجانب السياسى القابل للكسر الذى يعيش فيه الشرق الأوسط بوجه عام ، وكانت هذه القابلية للكسر هى السمة المميزة التى نتجت عن بعض السياسات الفردية غير المشجعة التى التزمت بها القوى الأوربية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى كسجل غير مسئول مثلما حدث عند إنشاء الدولة الإسرائيلية بعد الحرب العالمية الثانية (١٠) .

والآن يبدو من الضرورى القول بأن وجود إسرائيل التى تمثل زرعًا غريبًا فى الشرق الأوسط (وهى حجة نوقشت بتوسع فى هذه الصفحات) ، هو أساس الكثير من عدم الاستقرار الذى أصاب المنطقة كالطاعون على مدى السنوات الأربعين الماضية ، وجعل المصالح الحيوية لكثير من بلدان العالم الصناعى فى موضع المخاطرة ، وليست هذه هى القضية الوحيدة التى تتطلب حلاً عاجلاً لأن الأحداث فى شمال الخليج أظهرت أن قضايا معينة مثل المصالح الحقيقية للبلاد المستهلكة للبترول ، ومسألة الحدود الدولية من لبنان إلى شط العرب ، ودور الدول القومية بالمنطقة وعلاقتها مع نظيراتها الأقدم ، وقضية الحكومة التى تحكم بإجماع الآراء ، والتعبير عن المعارضة فى المجتمعات التى ليس لها تاريخ فى المعارضة السياسية الحرجة ، هذه القضايا كلها لابد من مواجهتها وحلها ، وربما يكون غزو الكويت قد ساعد على طرح مثل هذه القضايا وغيرها من القضايا المشابهة فى مجال تخفيف الضغط بشكل لم يحدث من قبل فى السنوات الماضية.

ومهما كان الناتج النهائى للأزمة فى الخليج فإن القطع المكسورة لن تعود مرة أخرى إلى نفس مكانها بنفس الترتيب الذى كانت عليه قبل الغزو ، وربما يكون صدام عن غير قصد قد أدى لنا خدمة تذكرنا بضرورة أن نعى جيدا حقائق السياسة فى الشرق الأوسط .

ونتيجة لهذه الدراسة توصلنا إلى أننا عند تدوين تاريخ غزو الكويت وتوابعه سنرى أنه كان يمثل فترة حرجة فى كشف التغيير الجذرى فى شئون الشرق الأوسط ، لقد طلب صدام الربط بين الانسحاب من الكويت وانسحاب الإسرائيليين من الأراضى المحتلة ، ونجد ببساطة أن هذا الطلب هو قمة الانتهازية ولكن استعداد الإسرائيليين الآن للحديث مع منظمة التحرير الفلسطينية بصرف النظر عن مدى رغبتهم فى إتمام

ذلك ، يعتبر من وجهة نظرى نتيجة مباشرة لاكتشاف أن الأزمة فى الخليج جعلت مصالح الدول الصناعية بما فيها الولايات المتحدة ترى أن إسرائيل أصبحت لها أهمية هامشية ، وسنعاود الحديث عن هذه النقطة فيما يلى من هذا الكتاب .

وإذا حاولنا أن نضع ما كتبته عن فلسطين ضمن سياق الأحداث الأخيرة فى الخليج فلابد من إضافة عامل محرج إلى هذه المعادلة ، وسيكتشف القارئ المثابر أننى أعتقد بضرورة دفع تعويضات للفلسطينيين فى مقابل احتلال إسرائيل لأراضيهم ، وإننى أعتبر أن الجدال فى هذا الأمر لن يكون نقاشًا شعبيًا فلم تقم الدلائل بعد على إمكانية قبوله حسب الموقف الذى اتخذه الفلسطينيون أنفسهم فى الاستجابة للأزمة التى نشبت فى الخليج ، لقد أعلن الرئيس الرسمى لمنظمة التحرير الفلسطينية بعد أن قام بالمراوغة فى خلال الأيام الأولى بعد الغزو العراقى مساندته الكاملة للرئيس صدام حسين فى ضمه للكويت ، وقد أفزع هذا الموقف الكثير من مساندى الفلسطينيين لثلاثة أسباب :

السبب الأول:

الاستحالة الواضحة لقدرة المنظمة القائمة على استعادة الأراضى المحتلة عن طريق طاغية لا يعرف الرحمة والموافقة على احتلال أراضى شعب أخر على يد طاغية لا يعرف الرحمة، ولا يمكن لأى تبرير منطقى أن يقبل إخفاء هذا التنازل عن المثل العليا خاصة من خلال المناقشات التى تظهر معقولة ولكنها باطلة ، وذلك فيما يتعلق بالادعاء التاريخى الذى تسوقه العراق لضم الكويت والذى قبله الفلسطينيون سريعًا بدون تمحيص .

والسبب الثانى:

هو الرفض القاطع من جميع الكويتيين وباقى دول الخليج التى ساهمت فى القضية الفلسطينية على مدى السنين ، إن فلسطين هى فى الحقيقة قضية العرب

الأولى ولكنها ليست الهدف الوحيد لاستخدام إيرادات الدول المنتجة للبترول ، لقد كانت البذاءات التى صبتها بعض القيادات الفلسطينية على الكويتيين وغيرهم من المتبرعين فى دول الخليج شائنة ، وسيحتاج الأمر إلى وقت طويل حتى ينسى عرب شبة الجزيرة - بالرغم من أنهم لا يحملون ضغينة - تقصير الفلسطينيين الذين ساندوهم دائمًا فى أوقات الأزمات التى حلت بهم .

السبب الثالث:

المنظر المحزن للفلسطينيين وهم يتحالفون مع صدام حسين اعتقاداً منهم بأنه سيؤثر إلى حد ما فى تحرير فلسطين وبهذه العملية سيتقاسم دخل دول الخليج المنتجة للبترول مع أهلها ، وإذا اعتقدت القيادة الفلسطينية حقًا فى أى من هذه الافتراضات ستكون وكأنها لم تتعلم شيئًا بعد مرور عقود من الاقتراع عليها بوصفها لعبة كل دكتاتور أو خطيب سياسى يتلاعب بعواطف العامة ، ويستطيع أن يقفز إلى السلطة فى هذه المنطقة .

وهذا هو الدرس الفعلى الذى نتج عن أزمة الكويت من حيث مساسها بفلسطين وشعبها ، وعندما ارتدت قيادة الشعب الفلسطينى ملابس منظمة التحرير الفلسطينية كان يجب أن تسأل عما إذا كانت القيادة نفسها مهيأة لقيادة النضال المسلح ، وقد أثبتت التجارب السابقة أنها لم تكن كذلك وليس لديها بعد النظر والمهارة السياسية لتمثيل شعبها فى هذه القضية المعقدة عن طريق المطالبة غير المستجابة بعقد المفاوضات التى ما زالت هى أقدر الوسائل على تحقيق التغيير السياسى ، إن الصعود الذى لابد منه إلى قيادة الميليشيات الفلسطينية أو الجماعات الإرهابية (سمها كما تشاء) أظهر مرة أخرى القدرات غير المحدودة التى تتمتع بها مجتمعات الشرق الأوسط على الثرثرة ، الجوفاء والبلاغة الفارغة من ناحية ، والعنف المجنون القادر على تدمير قضيتهم بدلاً من تدمير عدوهم هذا من الناحية الأخرى ، وهم يتشابهون فى ذلك مع حركات التحرير الأخرى التى خرجت من بطن اليأس المدنى أو إساءة التقدير السياسى للماضى .

ولكن لن يسمح أى من عوامل عدم المسئولية لدى الفلسطينيين أنفسهم بحجب العدالة المطلقة لقضيتهم وكذلك فإن شيئًا لن يبدل حقيقة أنهم قد تعرضوا للخيانة ، والتجريد من ممتلكاتهم ، ومواجهة الاضطهاد القاسى الذى لم يكن ضروريًا .

ومن الأهمية بمكان القول بأن الوفد الفلسطينى فى المفاوضات التى لم تبشر بالخير بين الفلسطينيين والإسرائيليين قد ربط نفسه بعد هذا الصراع بهذا التمييز وهذه السلطة . لقد كسب كل مواجهة عامة مع الإسرائيليين ، كما احتل تقارير وسائل الإعلام عن هذه الأحداث ، كما أشعل غضب المتحدثين الإسرائيليين العاجزين والذين اكتشفوا أن سيطرتهم السابقة على وسائل الإعلام تذوب بسرعة كما تذوب الثلوج فى الصيف ، ولم تعد تأكيدات إسرائيل مقبولة مع اعتبارها مجرد تعبير عن وجهات النظر.

أما إسرائيل وهى فى هذه الحالة المحزنة فستحاول أن تبحث عن الراحة من الثورات التى أدت إليها هذه الأزمة فى العالم العربى ، ولكن من الواضح الآن أن إسرائيل - نتيجة للأزمة العراقية الكويتية لم تعد تنتمى إلى الغرب بالطريقة التى كانت من قبل ، فقد انتقل مركز الأحداث من شرق البحر الأبيض المتوسط متجهًا إلى الشرق والجنوب ، وأصبحت إسرائيل الآن على الهامش بالنسبة للولايات المتحدة والدول الغربية ، وستظل أهميتها بالنسبة للغرب تقل تدريجيًا حتى تصبح مقاطعة أوربية صغيرة فى هذا الجزء من الشرق الأدنى أو الأوسط ، وسيواجه وجودها كدولة يهودية قاصرة على فئة خاصة خطرًا شديداً كما هو متوقع ، وذلك من حيث وضعها الاستفزازى بالنسبة للسكان العرب الذين سيعتمد العالم الصناعى على صداقتهم إلى حد كبير لاستمرار تدفق الفيض الذى لا ينقطع من مصدر الطاقة الرئيسى .

لن يقبل بعض الناس الكثير مما سأناقشه هنا ، إن بعض عناصر الحل الذى سأقدمه هنا ستلقى التجاهل التام باعتباره حلاً شاذاً غير معقول ، إننى أقترح أن تتخلى إسرائيل الدولة اليهودية عن الصهيونية إذا أتيحت فرصة للسلام الدائم ، وأعرف أن هذا الاقتراح سيلقى بعض الاستهجان لأنه مستحيل سياسيًا ولكن منذ سنوات قليلة مضت لم يكن يتوقع أحد انهيار الشيوعية وتمزق الإمبراطورية

السوفيتية ، لقد أصبحت كافة الاختيارات ممكنة بعد هذا الحدث ، وفي استطاعتي التوقف إزاء ما كتبته لأنني أعتقد أنه كان من الضروري أن يقال ، ولو كان قد خطر في بال أي قارئ لخطر أيضًا في بال هؤلاء الذين سيكون لهم دور في عملية السلام ، ولكنه بدأ الآن في الظهور نتيجة للأحداث ليس فقط في فلسطين ولكن أيضًا في الخليج ولابد أنه سيقود إلى حل ، أما هؤلاء الذين سيعلقون عليه في وسائل الإعلام أو الجمعيات السياسية فلابد أن يضعوا في اعتبارهم الحقائق التاريخية ، والمسلمات السياسية التي ستحدد مواقف العرب وليس فقط الفلسطينيين على مدى الأجيال القادمة .

إنني استطيع الحديث عن العرب من منطلق الصداقة – كما بدأت في الحديث عن المواقف الممكنة لليهود الذين ينتمون إلى أصول شرقية الذين يعيشون الآن في إسرائيل ، وقد هاجروا أصلاً من الأراضي العربية ، وأنا لست على معرفة وثيقة بهم ، وأقول أنه إذا توصل هذا الكتاب إلى نتيجة متفائلة ، فستنحصر في أن عرب فلسطين واليهود الشرقيين يختلفون فقط في انتمائهم الديني أما في بقية العناصر الضرورية بما فيها أهم العناصر الثقافية وهي اللغة ، فإنهم يمثلون فرعين مؤثرين ينتميان إلى نفس الأسرة ، ويمثلان الأمل الوحيد بالنسبة للأرض المضطربة التي يعيشان عليها الآن ويدخلان إلى الألفية الثالثة في تفاؤل بالمستقبل ، لقد تحاشيت الانسياق وراء استعادة مسار العلاقات العربية الإسرائيلية بالتفصيل ، والحروب المبكرة التي تلت إنشاء دولة إسرائيل ، والتواطؤ المؤسف بين إسرائيل ، وفرنسا ، وبريطانيا لغزو مصر أثناء أزمة السويس سنة ١٩٥٦ ، وحرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ ، وحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، والغزو المخجل لأراضي لبنان ، وكافة الأحداث الكئيبة التي تعتبر نتيجة مباشرة لزرع كيان يضم المهاجرين الأوربيين في شرق البحر الأبيض المتوسط ، لقد ذكرت هذه الأحداث وفصلت دوافعها في كتب لا حصر لها وضع الكثير منها بمعرفة معلقين أكثر مني خبرة وقدرة على الحكم في مثل هذه المسائل [١١] .

لقد حاولت أن أفهم كيف تظهر إسرائيل كالطيف في الوليمة (عبارة غير سعيدة) في كل أزمة أو مسار درامي للأحداث في الشرق الأوسط. وهذا هو ما يحدث الآن ، وأنا أكتب هذا في أعقاب أحداث الخليج ، وحتى في حدث شديد الهامشية والشذوذ

مثل موت روبرت ماكسويل الذى أقيمت له جنازة رسمية فى أورشليم رغم إنه عاش حياة حافلة بالشر دون أن يتوب .

وإننى أتعشم أن يقوم كتابى هذا بدور مؤثر بوصفه صوتًا للكثيرين الذين يشعرون نفس الشعور فى وقت يسود فيه احتمال إعادة تقييم السياسات الضارة لفترة ما بعد الحرب ، وإتاحة الفرصة للتعبير عن الشعور الجارف ، الممتزج بالشك، والفزع، والخطر إزاء قسوة وعناد إسرائيل اللذين يشعر بهما الآن الكثير من الناس فى كافة أنحاء العالم ، ولم أحاول أن أضع تفسيراً هادئًا ولكننى اقدم رداً موضوعياً للأكاذيب والتناقضات التى شابت الجدال حول فلسطين ، وعلاوة على ذلك ، فقد حاولت أن أشرح لماذا كان من الضرورى فى مثل هذه الظروف الخاصة عدم إجبار الفلسطينيين أو الضغط عليهم لقبول الإذعان للأمر الواقع إزاء أجزاء حيوية من أرضهم ؟؛ لأنهم لو رضخوا لذلك فإننى متأكد أن الناتج سيكون صراعًا أشد مرارة وقسوة فى وقت لاحق ، ويجب عدم إجبارهم على قبول أية تسوية تقل عما تفرضه العدالة وتحتاج إليه مناقشات التاريخ .

ومن المفيد أن توضع الدوافع الشخصية فى الاعتبار عند الاقتراب من مثل هذه القضية المعقدة والمفعمة بالمشاعر العنيفة ، لقد أصبحت مثاراً للسخط والانزعاج على مدى الأعوام بسبب نموذج الظلم الفادح الذى وقع على أناس لم يفعلوا شيئًا يستحق الظلم ؛ أو ما يشبه الظلم ، ولكن كنتيجة لاستغلال ما أراه كتلة من المعتقدات القديمة الخارجة عن الموضوع والتى اقترف اتباعها الكثير من المظالم والكروب أكثر من أى جماعة أخرى يتجه فكرى نحوها بما فى ذلك المغول ، مما يجعلنى أشعر بالاستياء ، كما أن التناقض يكتنف هؤلاء الذين يهتمون به ، وأن الاستخفاف بشعب ذى إنجازات نبيلة أصبحت مساهمته فى التاريخ ليست ذات قيمة لأنه يقف موقفًا يخالف الموقف الإسرائيلى فى هذه القضية ، كل ذلك يبدو لى خطأ ، ونظراً لأننى لست ساذجًا حتى أعتقد أن ما أكتبه سيؤدى إلى حدوث اختلاف جذرى فإننى على الأقل أقول لنفسى أننى قمت بالمحاولة .

نستطيع أن نوجز المناقشات التى دار حولها هذا الكتاب فيما يلى : لا يوجد مبرر من التاريخ أو القانون أو الأخلاق يبرر زرع شعب يهودى يعود إلى أصول أوربية فى

أرض فلسطين ، ولا يمكن للسلام أن يتحقق إلا بقبول تخلى إسرائيل عن الصهيونية ، وإقامة دولة ذات بناء فدرالي (دولة إتحادية) تجمع بين إسرائيل ، وفلسطين ، والمملكة الأردنية مع انتهاز أقرب فرصة لتحقيقها .

وبالإضافة إلى ذلك فإنه إذا اقتنع الشعب الفلسطيني الذى تمثله منظمة التحرير الفلسطينية أو أى تنظيم آخر تقبله الأغلبية بقبول شيء أقل مما نعرف أنه يحقق الشروط الضرورية للتسوية العادلة ، فإن الدول العربية ستطالب في المستقبل باسترداد الحق من خلال شخص مثل صدام حسين يظهر في المستقبل ، ويكون أمهر منه في الحرب وأكفأ في شئون السياسة بصرف النظر عن أن العرب حاليًا يشعرون بالتعب من جراء الصراع مع إسرائيل .

ويغمرني إحساس بأن عملية تخلى إسرائيل عن الصهيونية قد بدأت بالفعل ، إن اليهود ذوى الأصول الشرقية الذين يعيشون حاليًا في إسرائيل (السفرديم) والذين يتجهون الآن بقوة نحو تشكيل الأغلبية من السكان يرتبطون مع الصهيونية السياسية بارتباطات واهية هذا إذا كانت هناك ارتباطات أصلاً ، وتحددت تجربتهم مع الفكر الصهيوني في حدود ما تعلموه أو تحملوه منذ هجرتهم من الأراضي العربية التي عاشوا فيها على مدى قرون طويلة .

لقد تعرض اليهود الشرقيون في إسرائيل لضغوط رهيبة على مدى السنوات الأربعين الماضية حيث فقد معظمهم الاستقرار، وقد أجبرهم المستوطنون الأوربيون على الاحتفاظ بالتوتر بين التجمعات الإسرائيلية والفلسطينية ، وليس العداء الذى يظهر بين التجمعات الشرقية والفلسطينيين أيديولوجيًا كما هو الحال بين تجمعات الاشكيناز والفلسطينيين ، وعندما يحدث العنف بين الشرقيين والفلسطينيين فإنه يدور في الغالب حول الأرض أو الأعمال الوظيفية أو الضغوط التي تتفجر عندما تحيط بكل منهم الجماعات غير الصالحة ، وإذا صح أن اليهود الشرقيين يشكلون بالفعل غالبية السكان اليهود في سنة ٢٠٠٠ وهذا أمر مؤكد الآن ، فسيكون من المستحيل (ولن يكون من السهل طبعًا) فهم معنى تخلى إسرائيل عن انتمائها للصهيونية الذى يتسم بالخطورة والفساد ، [١٢] ، وتكمن بدايات الحل في وجود الشرقيين الذين يمثلون أغلبية السكان

اليهود فى فلسطين ، والتقارب العملى مع صانعى السياسة ، والعمل السياسى بين الفلسطينيين وذلك بإقامة بناء سياسي تكون له القدرة على التأثير فى توفير بوادر السلام بين التجمعات العديدة .

قد يتحدث البعض عن استحالة وجود حلول للمنازعات الدولية ولكن تسويات ، والأمر كذلك بالفعل ولكن هذا الكتاب يعرض وجهة نظر مختلفة لأنه يؤكد أنه إذا لم يوجد التقييم المتشدد لحقائق الموقف والنظر إليه كما هو فعلاً وليس كما هو معروض مع استبعاد كافة المعوقات فلن يتحقق الاستقرار الدائم .

وأنا لست ساذجًا ولا متكبرًا لكى أعتقد بأن فى مقدورى الفصل فى قضية حيرت المعلقين السياسيين والأكاديميين من كافة الجنسيات وحتى أصحاب النوايا الطيبة مدة طويلة وهى قضية فلسطين وإسرائيل ، إن التعقيد الحاد للمناورات السياسية على مدى قرن أو أكثر ، وتشعب المسائل المطروحة للبحث وحساسية المصالح المرتبطة بها ، تتضافر كلها فتجعل الشخص الحساس يتريث ، وبالرغم من هذه الحقيقة الساطعة فقد كتبت ما كتبته اعتقاداً منى بأنه توجد أحياناً بعض المزايا فى شرح ما يعتقده البعض ولسبب لا أعرفه يجنحون إلى عدم التصريح به .

إننى أعى أن الأولاد الصغار الذين ينبهون إلى ما تكتمل به ملابس الإمبراطور لا يقدم لهم المديح فى مقابل هذا العمل الذى يؤدونه .

الهوامش

(1) See Kennett Love, Suez *The Twice-Fought War*, Longman, 1969 , for a contemporary view of the approach to the Suez crisis

(2) Middle East Economic Digest 21 John Street, London WC1

(3) The Council for the Advancement of Arab British Understanding, 21 Collingham Road/ London SW5 ONU

(4) *The Times* , 25 June 1969

(5) The Times, 29 September 1969

(6) Sean Macbride , *Israel in Lebanon · The Report of the International Committee to Enquire into Reported Violations of International Law By Israel during the Invasion of the Lebanon*, London, 1983

(7) See D McDowell, *Palestine and Israel - the Uprising and Beyond*, I B Tauris, 1989

(8) Declaration by the Palestine National Council, 15 November 1988

(9) United Nations Resolutions. in the first 40 years of Israel's existence the General Assembly and the Security Council passed some 300 Resolutions directed at Israel *Middle East International*, 16 December 1988

(10) See Ghazi A Algosaibi, *The Gulf Crisis: An Attempt to Understand* , Kegan Paul International/ 1993 , for a remarkable overview of the Kuwait invasion and its aftermath by the author, then Saudi Arabian Ambassador in Bahrain

(11) The bibliography of the Palestine-Israeli issue is almost boundless· a useful summary from the Palestinian standpoint is represented by *Palestine Today* , published by the PLO Department of Information

(12) See, further Chapter 9 below.

الفصل الثانى

الصهيونية والمجتمع الدولى

جاء تحقيق الحلم الصهيونى بإنشاء دولة لليهود ؛ لكى يعيشوا فيها كدولة بين دول المجتمع الدولى نتيجة لرحلة طويلة استمرت لسنوات عديدة بلغت أوجها خلال سلسلة من الإجراءات التى تمت بمعرفة الأمم المتحدة أو من خلالها .

لقد أنشئت منظمة الأمم المتحدة التى قامت بدور المولدة لإسرائيل عند ولادتها مثلما نشأت سابقتها المنحوسة عصبة الأمم بهدف ضمان السلام ، والرفاهية ، والاستقرار لشعوب العالم . وفى سنة ١٩٤٧ - ١٩٤٨ وخلال تلك الأعوام التى تلت نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة ، والتى أتيحت لها الفرصة لتغيير مسار التاريخ لمصلحة الجنس البشرى ، إلا إنها أعارت هيبتها وسلطانها ؛ لتشويه العدالة ضد شعب صغير ليست لديه قدرات دفاعية ، وسعت لتحقيق مطالب إقامة دولة يهودية عن طريق اقتراح تقسيم فلسطين ، وبذلك ألزمت نفسها بتسليم الأرض التى تخص شعبًا له ماض عريق إلى شعب آخر غريب تمامًا يتكون من المستوطنين الأوربيين وليست له أى صلة من أى نوع بهذه الأرض .

ويمكن القول بكل تأكيد أن الأمم المتحدة لم تكن لديها السلطة القانونية أو الحق السياسى لتوزيع أى جزء من أراضى الفلسطينيين على الغزاة الوافدين ، ولا يوجد مبرر لمثل هذا الأجراء سواء من الناحية القانونية أو التاريخية ، والأمر المثير للخزى فى هذا الصدد هو أن الأمم المتحدة قد أنشئت لحماية حقوق الشعوب الصغيرة والحفاظ على وجودها المستقل وليس إسقاطها ، لقد كان التصويت الذى نتجت عنه التوصية بتقسيم فلسطين والتى قادت بدورها إلى إعلان قيام دولة إسرائيل مباشرة لا يستند إلى قوة أو سلطة شرعية .

أما الأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٨ عندما كانت مسئولة عن إنشاء إسرائيل فقد كانت كياناً مختلفاً تماماً عن ذلك الكيان الذى جاءت بعده ، وكانت الأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٨ مكونة من ٥٦ عضواً معظمها من أفريقيا، مع دول كثيرة من آسيا وأجزاء كبيرة من الإمبراطوريات الاستعمارية التى كانت موجودة دون أن يكون لها مكان فى الجمعية العامة .

علينا أن نفحص هنا قرار الأمم المتحدة الصادر فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ بسبب تكرار استخدام إسرائيل له كذريعة - لتبرير بقائها ، ومع مرور السنوات فضل القادة السياسيون لإسرائيل الاعتماد على هذا القرار أكثر من اعتمادهم على ذريعة اختيارهم على يد الإله الذى لا يؤمن به إلا القليل منهم - وقد أوردنا النص الكامل لهذا القرار فى نهاية هذا الكتاب فى الملحق رقم ٢ .

ولابد لنا أن نفهم طبيعة ما حدث بالفعل فى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نوفمبر سنة ١٩٤٧ كما فهمه القادة الإسرائيليون المتعاقبون ، ومساندوهم من جهة ، والفلسطينيون وقادتهم من الجهة الأخرى ، لقد قامت بريطانيا باستخدام أول كروت اللعنة فى أبريل سنة ١٩٤٧ برسالة تطالب فيها بوضع موضوع فلسطين ضمن جدول أعمال الجمعية العامة وطالبت الدول العربية - مصر ، والعراق ، وسوريا ، واليمن والمملكة العربية السعودية - فى اجتماع خاص استعداداً لعقد دورة الجمعية العامة بإضافة فقرة إلى جدول الأعمال تدعو فيها إلى إنهاء الانتداب الذى كان قد أسند إلى بريطانيا بعد انتهاء الحرب العظمى وإعلان استقلال فلسطين . وقد جرى الاقتراع على هذا الطلب بمعرفة اللجنة العامة للجمعية وعرض للمناقشة أمام الجمعية العامة فى مايو ١٩٤٧ ، وجرى التصويت عليه للمرة الثانية ولكن فى هذه المرة فى أضيق الحدود (بنسبة ٢٤ إلى ١٥ وامتناع ١٠) ، وقد قبلت الدول العربية هذا الاقتراح فى وقت مبكر من ممارسة هذه اللعبة، ولكن تاريخ السنوات الأربعين الأخيرة كان مختلفاً عما كان متوقعاً .

وقبلت بريطانيا التخلى عن الانتداب ، وعقدت سلسلة من اللجان اجتماعات لدراسة مختلف عناصر القضية وتقديم توصياتها للعرض على الجمعية العامة ،

واستعداداً للمناقشة عرضت الجمعية خطتين ، **الأولى** : تتضمن التقسيم مع الدخول فى اتحاد اقتصادى [1] ، وقسمت هذه الخطة فلسطين إلى دولة عربية ، ودولة يهودية (يجدر بنا أن نذكر أن ، الدولتين العربية ، واليهودية متماثلتان بالرغم من أن إحداهما كانت تتمتع بقدرات تختلف عن الأخرى) أما القدس فقد تقرر أن تخضع لنظام دولى خاص مع وضعها هى والمنطقة المحيطة بها تحت سيطرة الأمم المتحدة ، ويجرى تقسيم الأراضى بين الدولتين كما يلى :

- الدولة العربية تتكون من ٤٤٧٦ ميلاً مربعًا أو نسبة ٤٢,٨٨ ٪ من مجموع أرض فلسطين .
- الدولة اليهودية تتكون من ٥٨٩٣ ميلاً مربعًا أو نسبة ٥٦,٤٧ ٪ من مجموع أرض فلسطين .
- قدرت مساحة القدس بنسبة ٠,٦٥ ٪ من مجموع الأرض الفلسطينية .

أما أعجب ظرف يختص بخطة التقسيم ، فهو أن أصحاب الأراضى الحقيقيين من اليهود حينذاك حتى فى الأرض التى خصصت للدولة اليهودية ، كانت نسبتهم تقل عن ١٠ ٪ من المجموع الكلى ، أما العرب حسب هذه الخطة فقد طُلب إليهم الإذعان وتسليم معظم الأراضى التى فى حوزتهم للمهاجرين الأجانب من الأوروبيين . أما **الخطة الثانية** التى عرفت باسم خطة الدولة الفيدرالية ، فلم يساندها إلا الأقلية من أعضاء لجنة الصياغة التى عينت لدراسة القضية [2] ، وحسب هذه الخطة ستنشأ دولة فلسطين المستقلة وتنقسم إلى دولة يهودية ، ودولة عربية وعاصمتها القدس ، ويجرى تقسيم مسئوليات الحكومتين بينهما بينما تختص الحكومة الفيدرالية بشئون الدفاع ، والخارجية ، والهجرة ، والعملة ، والمجارى المائية ، والنقل ، والمواصلات .

أما الصهاينة الذين لا يكلون من الإلحاح والضغط على كل شخص حتى لو كانت له صلة هامشية باللجنة، فقد استقبلوا خطة التقسيم بحماس شديد وهم يعرفون أنها قد أعطت لهم كل ما طلبوه عند بداية الحلم بإقامة الدولة ، وقد رفض العرب الخطتين : خطة التقسيم بسبب نصوصها غير العادلة ، وكذلك الحل الفيدرالى لأنه يحمل أيضًا الموافقة على مبدأ تقسيم أراضيهم نزولاً على إرادة أجانب لمصلحة أجانب .

ولم يكن أمام الفلسطينيين من خيار آخر ، لأن الاختيار المعروض عليهم يتضمن تمزيق أوصال أراضيهم ، بصرف النظر عن الطريقة التى ينظرون بها إلى هذا الأمر ، وبالرغم من أنهم قاوموا كافة محاولات حل مشاكل يهود أوربا عن طريق تسليم أراضيهم للمهاجرين اليهود إلا أنهم افتقروا إلى التأثير السياسى داخل الأمم المتحدة ضد الضغط الصهيونى الذى حقق تلك النتائج المدهشة على وجه السرعة .

وسرعان ما وافقت القوى العظمى وهى الولايات المتحدة ، وروسيا ، وفرنسا على خطة التقسيم ، أما موقف الصين فلم يكن مؤكداً بينما بقيت بريطانيا فى خلفية الصورة متظاهرة بالحزن فى محاولة للجمع بين النقيضين . وبالرغم من أن بريطانيا عجلت بالتخلص من الانتداب وإعادته إلى الأمم المتحدة ، فإن سياسة حكومة العمال التى كانت بالحكم فى ذلك الوقت كانت أقل حزماً مما هو متوقع ، فلم يشعر أرنست بيفين وزير الخارجية بالسعادة حيال خطة التقسيم ، واتضح أنه كان هو بنفسه يعارض التحرك نحو إنشاء دولة يهودية مستقلة فى فلسطين . وعلى كل حال ، فإن الصهاينة قد عرفوا مبكراً أن حزب العمال أكثر ليونة وأسهل انقياداً من حزب المحافظين الأقل مغالاة فى الرأى والأكثر التزاماً الأسلوب العملى ، وعلى أية حال ، فإن الصهاينة توجسوا من ظهور المعارضة المتأصلة لليهودية بالرغم من مساندة تشرشل المطلقة لقضيتهم ، ونجحوا إلى حد بعيد فى عزل بيفين وحزب العمال الحاكم وبذلك بقيت بريطانيا ليس للمرة الأولى أو الأخيرة على الحياد فى الأمور المتعلقة بالأخلاقيات الرفيعة والأهمية السياسية .

وعرف العرب أنهم استُخدموا كجزء من العملية ، كما استُخدمت الأمم المتحدة أيضاً لإضفاء مظهر الشرعية على عملية الاغتصاب التى كانت على وشك الانتهاء .

واستمرت هذه العملية الحتمية ، ووافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ على خطة التقسيم . وصوتت روسيا ، والولايات المتحدة ، وفرنسا وجميع الأعضاء الدائمين بمجلس الأمن على القرار[٣] وعارضته خمس دول عربية أعضاء فى الأمم المتحدة ، وهذا هو عدد الدول العربية الأعضاء فى ذلك الوقت وكذلك الدول الإسلامية الأخرى ، ومعها كوبا ، واليونان بينما امتنعت الصين وبريطانيا عن التصويت وتمسكتا بهذا الامتناع حتى النهاية .

وشهد الاقتراع الأخير موافقة كافة الشعوب البيضاء ، والكومنولث البريطانى ومعظم أوربا ، وكافة البلدان التى كانت تحتلها الدولتان الكبيرتان على القرار الذى عارضته الدول العربية والقليل من الدول التى توقعت الحقيقة التى سيؤدى إليها هذا القرار وامتنعت عشر دول عن التصويت .

وجرى الحديث عن قصة هذا التصويت مرات عديدة مع الوصف الحي للقهر والإرهاب الذى تعرضت له بعض الدول الصغيرة التى حاولت التصويت ضد القرار ، لقد استخدم الصهاينة والذين ساندوهم خاصة وفد الولايات المتحدة كل وسيلة شريفة أو غير شريفة لإقناع الدول المترددة بالوقوف مع المعسكر الصهيونى ، وقد واجهت بنود قرار الأمم المتحدة الاستهجان عند قراءتها فى ضوء الأحداث التى تلت صدور القرار ، كانت جميع الحقوق المدنية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والدينية ، وحقوق الملكية مكفولة للعرب ، وأصر القرار على عدم نزع ملكية الأراضي المملوكة للعرب فى الدولة اليهودية فيما عدا الضرورى منها للمنفعة العامة ، وفى مثل هذه الحالة فإن البند الذى فتح منفذاً للاستغلال فى المستقبل نص على ضرورة دفع التعويض الكامل قبل نزع الملكية ، وبالطبع فإن إسرائيل قد تجاهلت هذه البنود بعد قيام دولتها وأحبطت خطة الأمم المتحدة المنصوص عليها .

لم ترغب إدارة الخارجية البريطانية ولا هيئة الاستعلامات الأمريكية أن تنشأ لليهود دولة يهودية تقتصر عليهم وحدهم ، وكان الموظفون يتمتعون بالرأى الصائب بخلاف رجال السياسة الذين يفتحون عيناً على الانتخابات القادمة بينما تطلع العين الأخرى على خطط اللوبى الصهيونى الساحقة التى أتاحت لإسرائيل السيطرة على معظم الأراضى الفلسطينية ولكنهم مثل بابا روما والعرب ، لم يكن لديهم سوى القليل من القوات العسكرية على الأقل فى ذلك الوقت .

وعندما جرى التصويت أكد على قبول خطة التقسيم المقترحة ممثلة فى وجهة النظر الموحدة التى تمسكت بها غالبية الدول الأعضاء فى اللجنة الفرعية التى أصبحت مسئولة عن إخطار الجمعية العامة ، وكان أعضاء اللجنة الفرعية تحت سيطرة الولايات المتحدة أو روسيا ، وفى ذلك الوقت كانت القوتان المتنافستان تختلفان إزاء كل قضية

عالمية ولكنهما اتفقتا على الترحيب باقتراح تقسيم فلسطين وتسليم الجزء الأكبر من أراضيها إلى جماعة من الأوربيين الذين اعتبرتهم المصادر التاريخية سبباً في إحساس الضمير الأوربي بذنب عميق، وهو ذنب اشترك فيه إناس آخرون اشتقوا ميراثهم الثقافي من القارة الأوربية .

وعندما حدث التصويت على القرار الذى أوصى بتقسيم فلسطين توزعت الأصوات كما يلى : ٣٣ صوتًا لصالح تقسيم فلسطين ، و١٣ صوتًا عارضت التقسيم بينما امتنعت ١٠ دول عن التصويت . ولو جرى التصويت فى الوقت الحالى فلا شك أن الوضع سيختلف ، فلا يمكن أن يتصور العقل أن تحدث الموافقة على مثل هذا الاقتراح أو أى اقتراح آخر يماثله .

ولابد لنا من التأكيد على أن هذا القرار كان مجرد توصية بتقسيم فلسطين وهو توصية بسيطة وليس أمرًا لا تتمتع الأمم المتحدة بالقوة اللازمة لإصداره ، ولم يكن مستنداً إلى قوة القانون ، ولا يسوغ للأمم المتحدة سلطة إجراء التقسيم أو عمل أى شىء آخر يتجاوز التوصية بالإجراء الذى يتخذ فى المستقبل إزاء هذا الاقتراح ، ولابد من القول للمرة الثانية إن الأمم المتحدة لم يكن لديها حق أخلاقى أو قانونى لتقسيم أراضى شعب بمثل هذه الطريقة التعسفية ، وعند هذه النقطة تظهر الأمم المتحدة ضعيفة لأنها لم تدرك هذه الحقيقة .

وبالرغم من ذلك تم إعلان قيام الدولة اليهودية فى ١٤ مايو سنة ١٩٤٨، وأغفلت الحقيقة الواضحة حتى فى سجل أعمال إسرائيل ، وينص إعلان استقلال إسرائيل على ما يلى : "بموجب حقنا الطبيعى ، والجوهرى ، وقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة نعلن هنا تأسيس دولة يهودية فى فلسطين"(٤) .

ويعتبر إعلان استقلال إسرائيل وثيقة واضحة الوقاحة ، لأنها بعد أن أكدت الأصول الأسطورية للشعب اليهودى الذى يعيش فى فلسطين وفى خارجها ، أسندت بكل جرأة قيام الدولة اليهودية إلى قرار الأمم المتحدة كمسوغ لإنشاء إسرائيل مع التجاهل المتعمد للتوصية المماثلة بإنشاء دولة فلسطينية (انظر : الملحق رقم ٣ الذى يتضمن نص إعلان استقلال دولة إسرائيل) .

وبالطبع فإن دور الأمم المتحدة يجب أن يظهر ضد الأحداث والتيارات السياسية في ذلك الوقت حتى تتوقف المآسى التى عاشت فيها أوربا فى أعقاب الكشف عن الأعمال النازية الوحشية ، كان المناخ العام مستعداً لقبول أى وسيلة لتلطيف إحساس أوربا بالذنب ، فحدث التحالف مع النشاط السياسى المكثف الذى قام به الصهاينة قبل ، وأثناء ، وبعد الحرب مما أدى إلى أحداث سنة ١٩٤٨، ولكن الثمن الذى طلبوه لا يتناسب مع ما دفعته أوربا ، وعلى ذلك ولدت إسرائيل عن طريق المكر، والإكراه ، وإحساس قارة كاملة بالذنب .

وتتلخص طبيعة إسرائيل الشاذة فى أنها دولة لم تتكون من الأرض ولا العلاقات الإثنية (*) لسكانها ؛ ولكن بالانتساب غير الشرعى القائم على علاقات دينية واجتماعية ، وهى حقيقة أكدها رفض دولة إسرائيل المستمر لإقامة حدود لها ، كما أنها أثارت إلى جانب التمويه بأنها دولة للشعب اليهودى ، والإصرار على أنها دولة بلا حدود شيوع مفهوم الغموض فى شرعيتها المثيرة للإحراج .

وبدون الحذر الشديد من جانب مؤسسى الأمم المتحدة بالنسبة لبؤس اليهود الأوربيين نتيجة للاضطهاد المستمر على مدى قرن من الزمان أولاً فى روسيا ثم على يد الألمان ، فإن التمسك الصهيونى بهذا الشكل الخاص والغريب من أشكال الدول غير مقبول ، والشيء الوحيد والمؤكد هو أنه بدون الاضطهادات النازية لم تكن إسرائيل قادرة على إقامة وطن خلال السنوات التى تلت نهاية الحرب العالمية الثانية والتى تميزت بالكشف عن الأعمال النازية الوحشية على نطاق واسع أعطى الانطباع بأنها ليست مسبوقة .

إن لغة إسرائيل ورجال الدعاية الصهاينة تشبه لغة عهود الفاشية العسكرية التى تعلموا عنها الكثير، كما طوروا أساليب دعايتها السهلة أكثر مما هو معروف قد اشتقت من مفردات الكلام الأجوف ، والمغالاة فى التصريحات ، فقد وصف اضطهاد اليهود على يد النازى (بمعرفة مناحم بيجين وآخرين) بأنه " أكبر جريمة فى التاريخ

(*) العلاقات الإثنية : هى العلاقات القائمة على الجنس أو العنصر البشرى (المترجم) .

الإنسانى " (٥) ، ومن الواضح أن الأمر ليس كذلك رغم أن قائمة هذه الجرائم طويلة ، والتنافس فى الوحشية مهول . إن الاقتراب الكمى من المعاناة الإنسانية مكروه على أية حال ، ولكن إذا كان موت ستة ملايين يهودى مفزعًا إلى هذه الدرجة ، فكم يكون مفزعًا إحصاء عدد العشرين مليون أفريقى المأسورين ، والمستبعدين ، والمتوفين الذين أرسلتهم أوربا عبيداً إلى العالم الجديد خلال القرون السابع عشر ، والثامن عشر ، والتاسع عشر ؟ وهل كان قتل مليونى إزميرى Smyrniots خلال الثلاثينات من القرن العشرين – وهو ما يماثل ثلث عدد اليهود الذين ماتوا – يساوى " الهولوكوست " فى شره ؟ وبخصوص المذابح التى ارتكبها الغزاة المغول والتى حسب بعض العلماء أن عدد ضحاياها يصل إلى ١٨ مليون شخص أى ثلاثة أضعاف عدد اليهود الذين ماتوا، ألم تكن مذابح مفزعة ؟ وهل تجعل المناقشات الخاصة قتل ستة ملايين يهودى أسوأ من ذبح ٢٠ مليون روسى بمعرفة الحكام الشيوعيين لهذا البلد المنكود تحت حكم ستالين ؟ من الحزن الإسهاب هنا بدون داع ، ولكن انعدام أخلاقيات الإدعاء الإسرائيلى الذى يطلب معاملة خاصة بسبب المعاناة التى عاناها اليهود على يد النازى يجب كشفها فى مقابل هذا السلوك الاستغلالى الذى تمثله ، ولكن عندما تتم مواجهة أنصار إسرائيل مرات عديدة بالمجادلات التى لا يستطيعون إنكارها ، فإنهم يتحولون إلى هذا الالتماس المخزى .

إن بعض أفعال حكومة إسرائيل ومختلف الفئات الصهيونية تثير الأسف مثل استغلال الاضطهاد النازى لتبرير الاستيلاء على أراضى الفلسطينيين ، ومن المؤكد أن هذه إحدى الحسابات الحقيرة فى سياسات الصهيونية المعاصرة .

ومنذ البداية ، أعلنت الدولة الجديدة التزامها بالديمقراطية ، ومع مرور السنوات تزايد إصرارها على موقفها القائل بأنها الدولة الديمقراطية الوحيدة فى منطقة تميزت بحكامها الذين يتوارثون الحكم المطلق ، وعلى الأخص الحكومات العسكرية . وزعمت الدولة الجديدة وبكل ثقة أنها ستقدم موطئ قدم للثقافة ، والمصالح السياسية والاقتصادية الغربية فى منطقة أصبحت ذات أهمية قصوى لمجتمعات الغرب الصناعية التى كانت تحتاج لإعادة توجيه أهدافها بعد الدمار الذى أحدثته الحرب(٦).

وإذا ذكرنا الحرب بعيداً عن السنوات التى أدت إلى إعلان قيام دولة إسرائيل ، فإنها لم تكن تخلو من الصعوبات خاصة بالنسبة لبريطانيا التى كانت هى القوة المحتلة الفعالة فى فلسطين منذ سنة ١٩١٩، وقد حفلت تلك السنوات بالاعتراضات العنيفة التى شنها المتطرفون اليهود ضد هذه القوة الاستعمارية المتدهورة والمنهكة من جهة ، والسكان الأصليون من أهل البلد الذين تميزوا بالعناد (رغم أنهم - فى عيون معظم المراقبين - معدمون) من الجهة الأخرى . ولا شك فى أن إنشاء الدولة الجديدة كان يبدو واحداً من الانتصارات المبكرة للأمم المتحدة ، هذه المنظمة التى ساعدت على ميلاد إسرائيل بهدوء عن طريق اقتراح تقسيم الأرض التى كانت تعرف حينذاك باسم فلسطين بين السكان المهاجرين إلى الدولة الجديدة والعرب الأصليين . ولا يمكن إنكار ما أظهره العرب من عدم الاقتناع بمميزات وجود الدولة الجديدة فوق الأرض التى يعتبرونها أرضهم ، ومن الواضح أن عدم كفاءة العرب فى شن الحرب ضد إسرائيل لم يكن خطأ من الأمم المتحدة مع عدم استعداد العرب لشن تلك الحرب ، وترتب على ذلك أن احتلت الدولة الجديدة مزيداً من الأراضى يتعدى ما أعطته لها الأمم المتحدة ، وسرعان ما لقيت الحقيقة الجديدة التى قدمها الاحتلال الإسرائيلى لهذه الأراضى القبول من الدول الكبرى فى العالم ، وقد تحقق هذا القبول بسهولة فى ضوء التفوق العسكرى والفكرى لدولة إسرائيل الجديدة بالنسبة لجيرانها ، ولابد أن تضاف إلى ذلك الفائدة المؤكدة التى تقدمت بها التكنولوجيا الغربية والاستثمارات الغربية لتكون فى خدمة قدرة وإصرار اليهود ، مما يزيد من إمكانيات الأرض الجدباء التى عمل المهاجرون الأوربيون على استغلالها لأنفسهم[٧] .

أما الأمم المتحدة فقد وجدت نفسها هى الأخرى فى موقف لا تحسد عليه بسبب أن الدولة التى تستضيفها وهى الولايات المتحدة الأمريكية كانت هى الراعى المتحمس للدولة الجديدة ، ومن الواضح تماماً أنها تفوقت على كافة أمم الأرض فى هذا الحماس عندما دبرت إنشاء إسرائيل ، أما بريطانيا فقد تخلت سريعًا عن الانتداب على الأراضى التى كانت منتدبة عليها أخيراً مع القلق الشديد ، وانضم العديد من الدول البارزة العضوية فى الأمم المتحدة والتى من بينها الاتحاد السوفيتى إلى جوقة المرحبين بإسرائيل .

أما الدول العربية التى كانت موجودة عند قيام دولة إسرائيل فلم تكن متساوية فى التأثير أو المهارة مع خصومها عندما وقفت ضد العالم الفعلى للسياسة ، ولم يلق العالم العربى برمته أية خدمات من القوى الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر أو بعده ، ووجد العالم العربى نفسه مضطراً للمساهمة فى نظام للسياسة العالمية لم يكن على دراية كاملة بالتعامل معه وذلك بعد القصة الرومانسية المعروفة عن ت.ا.لورانس فى غرب الجزيرة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى ، والمؤامرات الفرنسية المعقدة فى المغرب وسوريا بعدها ، وبعد أن وجد العالم العربى نفسه فى نهاية الحرب العالمية الثانية وقد استخدمت معظم أراضيه كميدان للمعارك لمصلحة الخصوم الأوربيين .

لقد كانت معظم الدول العربية سنة ١٩٤٢ توابع للقوى العظمى الأوربية ، وأنشئت جامعة الدول العربية بشكل غريب بناء على مبادرة من أنطونى إيدن [٨] مما أعطى للدول العربية شكل الشخصية الموحدة بين فريق من الناس الذين يعانون من الاضطراب واليأس ، وقد انقسموا تعسفياً حسب العادة الأوربية التى تعتمد على إقامة حدود الدول الوطنية عن طريق رسم خطوط على الخرائط ، وليس حسب ما تمليه الاعتبارات التاريخية أو الإثنية أو اللغوية . وكانت مصر والعراق حينذاك دولتين ملكيتين على وشك الانهيار لأنهما تفتقدان المساندة من شعبيهما ، حتى المملكة العربية السعودية وهى إحدى الدول الموقعة على ميثاق الأمم المتحدة كانت لا تزال تتحسس طريقها بصعوبة ، وقد ربطت بقوة بحبال الدرع الواقى للولايات المتحدة التى استغلت مخزونها البترولى المكتشف حديثاً .

أمـا أنشطة سكان فلسطين الأصليين الذين عـارضـوا بقـاء الدولة الجـديدة ودستورها اليهودى المعلن والذى يتميز بالخصوصية فلم يمثَّلوا ضمن الدول التى أصبحت أعضاء فى الأمم المتحدة ، وسرعان ما اتضح أن أنشطة هؤلاء الذين لم يمثَّلوا (وأصبحوا بذلك مستبعدين سياسياً) قد جعلت منهم مشاغبين بالنسبة لجيرانهم العرب ، كما كانوا كذلك بالنسبة للدولة الإسرائيلية الجديدة ، ولكن استعداد الإسرائيليين للتعامل بعنف مع مشكلة المعارضة ضدهم انتشر بشدة فى شكل قانون لاستخدام العنف عند الخطر ، وكان هذا هو خط السير الصحيح لدولة تكتسب النضج السريع فى حماية مصالحها وأمنها .

هكذا كانت الظروف التي أحاطت بتكوين الدولة الإسرائيلية : تشعبت الآمال التى صاحبت ميلادها كما تعددت الأساطير التى نمت سريعاً حولها ، وعاد يهود أوربا بل يهود العالم فعلاً إلى وطنهم الأساسى ، ومع وجودهم هناك يستطيعون أن يثبتوا للعالم عبقريتهم المبدعة فى إقامة دولة حديثة داخل الصحراء وأن يثبتوا من خلال هذه العملية كرم وتأثير السكان الحاليين للأرض التى ستذهل العالم .

ولكن الحقيقة تختلف عن ذلك كثيراً ؛ لأن نتائج إنشائها كان ظهورها بطيئًا ليس فقط للفلسطينيين الذين شردوا الذين كان هذا الحدث يمثل بالنسبة لهم نكبة تامة ولكنه كان بطيئًا أيضًا بالنسبة للمجتمع الدولى ، ومع ذلك فإن هذا البطء فى معدل نمو الإدراك الحقيقة هذه الدولة أفاد إسرائيل إلى حد بعيد ، لقد عرضنا للظروف الحقيقية التى أحاطت بقرار الأمم المتحدة الخاص بتقسيم فلسطين ولكن أهمية ذلك القرار بالنسبة لوجهة النظر الإسرائيلية فيما يتعلق بتبرير احتلال الأرض الفلسطينية تبريراً قانونيًا كان شديد الحرج مثله فى ذلك مثل قصة انحدارهم عن السكان الأوائل لفلسطين ، وبذلك نقول إن الموقف القانونى لقرار الأمم المتحدة يحتاج إلى المعالجة السريعة وفى إيجاز .

تحملت الأمم المتحدة ودول الغرب الصناعية خاصة بريطانيا وأمريكا المسئولية الأساسية عن وجود إسرائيل بين مجتمع الشعوب ، ويتحمل قادة هذه الدول بالرغم من أنهم يعيشون فى ظروف شديدة الاختلاف الالتزام بفهم العمليات التى منحوا بها الموافقة عن وعى أو غير وعى والتى استغلوا فيها القانون لكى يعطوا إسرائيل الشكل القانونى لوجودها ، وهناك جدل يقول بأن إدعاء سكان إسرائيل اليهود بأنهم ينحدرون عن القبائل المذكورة فى الكتاب المقدس مما يسمح لهم بامتلاك أرض فلسطين طبقًا لهذا الانتساب إنما هو إدعاء خارج عن الموضوع ؛ لأن وجودهم ووجود إسرائيل نفسه قد نالا هذه الشرعية عن طريق قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧ ، ويعتبر هذا الجدل العقيم مريبًا من كافة الوجوه .

أولاً : وكما أوضحنا فإن الأمم المتحدة لم يكن لديها حق قانونى أو أخلاقى يسمح بتقسيم فلسطين ، وتجاهل رغبات غالبية السكان الأصليين .

ثانيًا : أن إسرائيل أخذت لنفسها قسمًا من الأرض أكبر مما قررته الأمم المتحدة فى قرار التقسيم ، وبذلك إغتصبت الحقوق القانونية للملكية من سكان هذه المناطق ، وأكثر من ذلك فإن هذا الفعل غير القانونى اختلط مع السماح بإنشاء مستوطنات دائمة فى الأراضى التى احتلتها منذ سنة ١٩٦٧ مما يعنى خرقًا مباشرًا للقانون الدولى .

ثالثًا : أن القول بأن قرار الأمم المتحدة قد حل محل الدعاوى التى ينسبونها للكتاب المقدس تبطله حقيقة أن الدول الأعضاء بالجمعية العامة للأمم المتحدة التى صوتت لصالح تقسيم فلسطين وأكدت بذلك قيام الدولة اليهودية ؛ إنما فعلت ذلك بسبب الحملات الصهيونية المتواصلة التى وظفت موضوع الأصول الكتابية وجعلت منها أساسًا للمطالبة بحقوق الملكية ، ولا زال هذا الادعاء يتكرر حتى اليوم على لسان كل سياسى إسرائيلى يتحدث عن "الوطن القومى" أو يدعى كما يفعل الكثيرون منهم بمثل هذا التكرار الذى يصم الآذان بأن أسلافهم الحقيقيين والمباشرين قد طردوا يومًا ما من الأرض ، وأنهم عادوا للمطالبة بحقهم الموروث .

وأخيرًا ، فليست هناك نتيجة لإنشاء الدولة الإسرائيلية يمكن اعتبارها محصلة منطقية للفكرة القائلة بأن إسرائيل تمثل الوطن القومى لليهود بحيث تستند عليها الشخصية اليهودية التاريخية ، وتكون جديرة بإعادة البناء . وهذا هو "قانون العودة " المحفوظ فى الشريعة الإسرائيلية والذى يعبر عن الحق المطلق لليهودى الذى يعيش خارج إسرائيل فى العودة واتخاذ إقامة له فى البلد ، ومن الواضح أن مفهوم انتساب سكان إسرائيل اليهود إلى أيام قبائل العهد القديم أساسى لإدعائهم بامتلاك الأرض التى يحتلونها الآن ، وقد استند قيام دولة إسرائيل على هذا المبدأ .

ويعتبر مبدأ " قانون العودة " عنصريًا مكشوفًا وهو بذلك يعتمد على التفرقة بين شعب وغيره من الشعوب على أساس ما يعلنه من حجج معقولة ظاهريًا لكنها باطلة مثل الأسس الإثنية ، وهذه الوثيقة غريبة حيث تبدو بنودها مفزعة عند تسجيلها ضمن قوانين دولة عصرية ، لقد قصد بها خدمة مصالح المهاجرين الأوربيين وليس اليهود المنحدرين من أصل شرقى ، وعلى كل حال ، فإننا سنرى فيما بعد من خلال الفصل التاسع أنها قد استخدمت للسماح بعودة الفلاح اليمنى وأيضًا رجل المال المجرى ، وإليك بنودها :

١- لكل يهودى الحق فى الهجرة إلى البلد .

٢ - (أ) تعتمد الهجرة على تأشيرات الدخول الخاصة بالهجرة .

(ب) تصدر تأشيرات الدخول الخاصة بالهجرة لكل يهودى يعبر عن رغبته فى الاستقرار بإسرائيل إلا إذا اقتنع وزير الهجرة بأن طالب التأشيرة :

I .يعمل ضد الأمة اليهودية .

II . قد يهدد الصحة العامة أو أمن الدولة .

٣ - (أ) اليهودى الذى يأتى إلى إسرائيل ويعبر بعد وصوله عن رغبته فى الاستقرار بها ، عليه أن يحصل على شهادة هجرة أثناء وجوده فى إسرائيل .

(ب) تنطبق الاستثناءات المبينة فى ٢ (ب) أيضًا بالنسبة لإصدار شهادة الهجرة فيما عدا الشخص الذى يعتبر خطراً على الصحة العامة نتيجة لإصابته بمرض أصيب به بعد وصوله لإسرائيل .

٤ - يسرى هذا القانون على كل يهودى هاجر إلى البلد قبل صدوره ، ويسرى أيضًا على كل يهودى ولد فى البلد قبل أو بعد صدور القانون مثل كل شخص آخر هاجر على أساس القانون .

٥ - يفوض وزير الهجرة بتطبيق هذا القانون وعليه إصدار أية إجراءات تتعلق بتنفيذ هذا القانون ، وإصدار تأشيرات دخول المهاجرين ، وشهادات الهجرة .

وهذا القانون دون غيره من القوانين هو الذى يثبت الفكر العنصرى الذى يقف خلف معظم السلوك السياسى فى إسرائيل ؛ لأنه يخلع على اليهود حقًا خاصًا للمعيشة فى دولة خاصة بسبب أنهم يهود فقط بصرف النظر عن المكان الذى جاءوا منه ، ويعتبر قانونًا تعسفيًا لأنه يخلد فكرة حق اليهود فى اكتساب الجنسية الإسرائيلية بمضى المدة . وبذلك يعتبر هذا القانون عدوانيًا وإهانة علنية للفلسطينيين الحقيقيين الذين ولدوا فى إسرائيل بصرف النظر عن الديانة التى ينتمون إليها ،

ويتضح أسلوبه العنصرى بالإصرار المستمر من الحكومات الإسرائيلية المتتالية على أن "قانون العودة" ينطبق فقط على اليهود بصرف النظر عن أصولهم ، ولا ينطبق على الفلسطينيين الذين ولدوا على أرض أسلافهم .

إن هذه الدراسة تختص بالصفة اليهودية الأساسية من حيث ارتباطها بالتاريخ ومدى سريانها فى هذا الجزء من فلسطين الذى يسمى الآن إسرائيل واستمرار وجود دولة إسرائيل بوصفها كيانًا سياسيًا يهوديًا خاصًا ، وقد توصلت فى نتيجتها النهائية إلى أن الإصرار على أن السمة اليهودية لإسرائيل لا قيمة لها على عكس الحقائق ، وأن خطورتها لا تقتصر فقط على الشرق الأوسط بل على غالبية المجتمع الدولى .

لقد انقضت مدة تزيد على الأربعين عامًا منذ إنشاء إسرائيل وهى تهيم فى قفر صنعته بنفسها ، وقد كان قيام إسرائيل رد فعل على انزعاج اليهود الأوربيين الذين غذوا أنفسهم بالأفكار القومية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، واتضحت لهم ضرورة البحث عن حل لمعاناتهم على يد إخوانهم الأوربيين بإنشاء نوع من الحكم المتفوق فى فلسطين بدا لهم أنهم قد أقاموه بالفعل مع كافة دلائل النجاح - بواسطة القوى الاستعمارية الأوربية عبر أرجاء العالم ، وهو يعتبر نموذجًا سياسيًا بسيطًا للاستعمار - وتتضح بساطته فى الإصطلاح الذى وضعه الصهيونيون الأوائل الذين اعتقدوا بأن الفلسطينيين سيرحبون بهم فى أراضيهم على أنهم رسل الحضارة ، وقد أضافوا إلى ذلك الحقوق المكتسبة للمعيشة فى فلسطين والتى انتقلت إليهم عن طريق ترديدهم لأساطير القبائل التى عاشت قبل وأثناء عصور السبى فى فلسطين ، وأن هذا التشرب بأساطير شعوب أخرى عاشت فى عصور أخرى كان له تأثيره فى تشكيل أقرانهم من اليهود الأوربيين على يد نفس القوى الاستعمارية التى أعجبتهم سياساتها القومية والتوسعية كثيرًا واستوعبوها بسرعة ، ونظرًا لأنهم تشاركوا فى العديد من الأساطير التى انتحلتها القوى الاستعمارية لنفسها فقد وجدوا المستعمين المشجعين لهم فى مشاريعهم ، وهؤلاء المستمعون قد دفعتهم مصالحهم الخاصة لقبول هذه المشاريع .

كان مفهوم القومية ونمو الصهيونية هما الأساس الذى أقيمت فوقه معاناة الشعب الفلسطينى الذى يمثل أقل الضحايا استحقاقًا للعقاب فى الأوقات القادمة أما سوء

الحظ المنفرد الذى أحاط بإسرائيل نفسها فيتركز فى أن الدولة قد تأسست عندما بدأ ارتفاع المد الاستعمارى فى التراجع ، تاركًا إسرائيل منعزلة مما يسهل مهمة إنتقادها أو مهاجمتها بوصفها نموذجًا متحجرًا للحلم الاستعمارى ، وتضع إسرائيل حقوق المستوطنين فوق حقوق السكان الأصليين بوصفها كيانًا صهيونيًا فى الشرق الأوسط ، وبناء سياسيًا شاذًا يشبه العهد العنصرى فى جنوب أفريقيا ذلك الذى أقامت معه إسرائيل علاقة لصيقة ، وهذا يفسر لنا المنطق المشئوم القائل : بأن الأقطاب المتشابهة تتجاذب ، ويبدو لنا أن جنوب أفريقيا التى كانت لفترة طويلة تمثل برجًا منيعًا ضد مقاومة التغيير السياسى ستكون أول من يقبل السياسات التى تعطى الاعتبار لسكانها الأصليين : وتصرف النظر عن الزمن الذى مضى ولا تفكر فيه .

وبالطبع فقد كانت إسرائيل بالنسبة للعديد من اليهود الذين تركوا أوربا أثناء عنفوان المذابح الروسية والاضطهادات النازية ملاذًا كان يبحث عنه اللاجئ فى شوق ، وفى الأيام الأولى من تحقيق المخطط الصهيونى لم يتوفر الوقت ولا الميل للتفكير فى الفلسطينيين أو حقوقهم الافتراضية واتحدت النبوءة والسياسة معًا لضمان بقاء الدولة الجديدة التى تجمع حولها غرور وأشواق مجتمع لم يلقَ تاريخه المعاملة الطيبة بصرف النظر عن السبب أما أن يصبح هذا المجتمع نفسه بدوره هو الطاغية فهذه قمة المأساة ، ولكنه بالنسبة للمؤرخ لم يكن مثارًا للسخرية غير المألوفة ، لقد تقدمت الدنيا كثيرًا خلال الأربعين سنة التى مرت على قيام إسرائيل وضياعها فى البرية ، ولكن الاهتزازا ت التى انتشرت فى أعقاب إعادة تنسيق السياسة الروسية والتقارب الذى حدث بين القوتين العظميين المتنافستين جعل من الصعب جدًا بالنسبة لإسرائيل أن تواصل تأثيرها الخاص مع الولايات المتحدة وهو التأثير الذى سيفسدهما معًا فى النهاية .

وعلى كل حال ، فهناك شعاع من الأمل فيما كان معروفًا من قبل بوصفه أحد المعالم الأرضية القائمة ، وعلى عكس المظهر والعقيدة التى لقيت القبول ، فإن صعود اليهود ذوى الأصل الشرقى إلى الأغلبية فى إسرائيل (أنظر الفصل التاسع) قد يؤدى على المدى المتوسط أو الطويل إلى إتاحة الفرصة للتفاؤل ، وهذا التفاؤل يعكس الأمل فى أن يجد اليهود الشرقيون الذين لم يتأثروا كثيرًا بالصهيونية وليست لديهم قضية كبرى تستدعى أن يحبوا جيرانهم من اليهود الأشكيناز - الفرصة سهلة

للتوصل إلى تفاهم مع الفلسطينيين العرب ، الذين تعودوا على التعامل معهم أكثر مما تعودوا على الاختلاف معهم ، وهناك فئة أخرى في قلب المجتمع الإسرائيلي من السهل الاعتماد عليها ويمثل هذه الفئة الأصوات العديدة ، والمنظمة ، والآخذة ، في التزايد بين مجتمع الاشكيناز نفسه خاصة بين عناصر الشباب الذين ولدوا في إسرائيل ، وهؤلاء هم الذين سيتحملون صدمة قرارات الشيوخ الذين يحكمون الدولة ، ومن ضمنهم هؤلاء الذين يعتمدون على حضور أو غياب كاميرات التليفزيون الدولي ، مع الإحباط والغضب اللذين يشعر بهما الفلسطينيون .

ويستطيع اليهود والفلسطينيون نوو النوايا الطيبة التعرف إلى بعضهم بوصفهم ضحايا لنفس الأوهام التي تميزت بها السنوات التي عاشتها إسرائيل ، لقد عانى كلاهما من فساد تلك النماذج التي يمكن إرجاعها إلى شعب اليهود على مدى تاريخه .

أما المأساة الكئيبة الأخرى المتعلقة بوجود إسرائيل فهي أن الفلسطينيين ليسوا وحدهم هم الذين يعانون من استمرار بقائها ، بل أيضًا التراث اليهودي في العالم الأوسع الذي لوثه عناد إسرائيل تلك الدولة التي تستخدم القنابل الفوسفورية ضد أطفال المدارس ، والمسنين ، والتي تفجر الكلاب (التي ترسلها إلى داخل مخيمات ومواقع الفلسطينيين) ، وضد السكان من أبناء البلد الأصليين الذين سلبتهم أراضيهم ، ولم يعد اليهود هم شعب غمالائيل ، وميمونيدس ، وأينشتاين ، وفرويد ، وهذه هي الحرب التي شنت ضد صغار الوحش الذي سقط في فخ فيتنام ، ربما كان سوء الحظ اليهودي هو الذي أوحى لهم بأن تكون وجهة نظرهم الخاصة بتاريخهم ضرورة جماعية ، وربما كان هذا هو السبب الذي جعلهم يتجهون نحو تفضيل الحلول الجماعية للقضايا الاجتماعية والسياسية . لماذا مالوا إلى مساندة الحركات الثورية الأوربية والحركات التي تنكر الوجود والقيم الأخلاقية ؟ بالرغم من أن هذا الظرف لا يمكن أن نتعجب له عندما نستدعي إلى الذاكرة تلك المعاملة التي عاملهم بها أقرانهم الأوربيون . وبذلك نستطيع أن نفهم الكثير من سلوكيات اليهود كظاهرة تاريخية بالنظر إلى هذه النظرة الجماعية إلى العالم وإلى موقعهم فيه ، ومن سوء الحظ القول بأن الصهيونية قد ضللت الروح اليهودية وقادتها إلى الانحراف والمسارات غير المميزة

بالبحث عن وضع قومية عفا عليها الزمن داخل هذه الهوية الجماعية ، وفى هذا تكمن المتناقضات الموروثة عن وضع إسرائيل فى مجتمع الدول الحالى .

ومنذ نهاية العالم القديم تعصبت اليهودية ضد المسيحية والإسلام اللذين كانا وليدين لها وفى نفس الوقت منافسين لها ، وعلى سبيل المثال ، فقد حدث أثناء أيام انتعاش الحضارة اليهودية ونعنى بذلك أيام انحلال الحضارة الهيلينية فى البحر الأبيض المتوسط ، قدمت اليهودية تشكيلة من المعتقدات والمبادئ السلوكية التى تتميز بالدهاء ، والتفوق ، وتمثل الرغبة فى قيام عالم يخلو من تعدد الآلهة وتنافس الديانات مع الافتقار المتكافئ لليقين الذى أدى إلى مثل هذه الفوضى الخاصة بتعدد الآلهة . ويعتبر ظهور اثنتين من الديانات التوحيدية والأخيرة منهما وهى الديانة الإسلامية تمثل تطبيقًا للتقليد الموسوى ، هاتان الديانتان حيرتا وأفزعتا عقيدة اليهود الدينية وهى العقيدة التى أفسدتها ارتدادات السياسيين فتحولت فى عصرنا الحالى إلى طاقة لإحداث الضرر والاستغلال لشعب عاجز عن الدفاع عن نفسه مثل اليهود أنفسهم عندما كان مفروضًا عليهم تحمل اضطهادات المسيحيين وازدراءات المسلمين .

الهوامش

(1) UN Special Committee on Palestine, 31 August 1947 .

(2) Ibid.

(3) UN General Assembly Resolution on the Future Government of Palestine, 29 November 1947 .

(4) Paul Johnson, *A History of the Jews* , Weidenfeld & Nicolson, 1987

(5) See Jacobo Timerman's moving polemic on the Israeli attack on Lebanon and the revulsion felt by many Israelis at Begin's repeated exploitation of the Nazi persecutions

(6) Meyer Steinglass, Emil Ludwig before the Judge', *American Jewish Times* , April 1936

(7) A recurring theme in some Orthodox circles/ based on Old Testament prophetic texts.

(8) Peter Mansfield, *The Arabs* , Alien Lane, 1976 .

الفصل الثالث

إخراج شياطين أوروبا :
الصهيونية والعنصرية

كان قبول المجتمع الدولى لقيام دولة إسرائيل فى حقيقته هو رد الفعل إزاء مشكلة أوربية غريبة ، إن قرون الاضطهاد الذى عوقب به يهود أوربا ، وتصاعد وحشية العهد النازى وأتباعه ومساندیه فى تلك الدول الأوربية التى وقعت فى براثن الاحتلال النازى ، وطبيعة المسئولية الأوربية فى تلك القضية جعل من مسألة استمرار بقاء إسرائيل وبالشكل الذى أنشئت به أمراً شديد الأهمية بالنسبة للعالم ككل .

ويعتبر الاضطهاد الأوربى لليهود فى القرن العشرين سمة لتكرار حالة نفسية تميزت بالتناسب والعمق الشديد ، ولقد كان وجود التجمعات اليهودية فى معظم الدول الأوربية عاملاً مهماً فى التشكيل الاجتماعى والاقتصادى لهذه الدول لمدة تتجاوز ألف عام ، ومازال هذا الاضطهاد موجوداً فى بعض الأحوال كما هو الحال المؤسف بالنسبة للتجارب الشائعة التى واجهتها الكثير من الأقليات خاصة تلك التى تكشف عن خصائص واضحة ، وتتميز باختلاف ظاهر وأقصد بها التجمعات اليهودية التى عاشت بين الدول المسيحية من خلال تاريخ مختلف وتجربة متشعبة ، وكانت فى بعض الأحيان تلقى المجاملة والرضا وفى أحيان أخرى ، تلقى الاضطهاد وتواجه الضغوط ، ونبعت عن هذه الفترة وعن هذه التجارب العديد من معالم الثقافة اليهودية المتأصلة والمتواصلة متضمنة الإحساس بالانفصال عن عموم المسيحيين وعدم التعايش بين الهوية اليهودية وغيرها من الجنسيات بصرف النظر عن الحدود السياسية الفاصلة بين الدول القومية ، ومن المؤكد كذلك أن شعور اليهود العميق بعدم الأمان له أصوله بسبب الطريقة الوحشية التى عاملتهم بها أوربا .

وأصبحت القدرة على الاحتمال التى تمثل الثقافة الواضحة والمتماسكة والتى تظهر مصاحبة للممارسة الدينية والتنظيمية إلى جانب الحاجة العالمية لأعضاء هذه الأقلية - الذين يجاهدون بشدة لإحراز المكانة والتقدير - علامتين بارزتين تميزان التجمعات اليهودية فى أوربا .

لقد وجد العديد من حكام الدول الأوربية خاصة خلال العصور الوسطى أن اليهود خدم ذوو قيمة عالية على الأقل بسبب قدرتهم على الانتقال التى ساعدتهم على تحريك الممتلكات عبر الحدود السياسية ، واستطاعوا بهذه الطريقة اكتساب الخبرة - وبعض القوة - التى حصلوا عليها من القيادات الرهبانية للفرسان فى أواخر العصور الوسطى مما جعلهم ينالون الإعجاب من هؤلاء الذين لا يعرفون تاريخهم ، وبذلك اخترعوا نظام البنوك الأوربية ، وقد أدت قدرتهم على تسيير شئونهم عبر الدول إلى ظهور فكرة وجود شبكة دولية يهودية تمتد كما ظن البعض، وأن هناك مؤامرة يهودية دولية غير مكشوفة ، وكان اليهود يعيشون فى مستوى معيشة متواضع ، ويشتهرون بأنشطة معينة مثل إقراض الأموال ، وجمع الديون ، وبذلك خافهم وكرههم الفلاحون ، وأهل المدن الذين عاشوا ، واشتغلوا ، وازدهروا بينهم .

ويضاف إلى شك هؤلاء الذين عاشوا بينهم فى مكانتهم الاجتماعية إحساس - جرى التعبير عنه بحرص وإن كان حقيقياً- بالتفوق من جهة اليهود أنفسهم ، ويسيطر مثل هذا الاتجاه على أصحاب الإنجاز الرفيع من بين أبناء الأقليات ، وأقتنعوا بتفوقهم على المجتمع الأقوى الذى يحيط بهم وقد أجبروا على العيش فيه باحترام وذلك نتيجة للتهذيب ومراعاة التقاليد .

وهذا الإحساس بالشخصية العنصرية المتعالية بالنسبة لمن يشاهدونهم تأكيداً لسيادتهم وحرصهم على نوال الاحترام والامتثال من الآخرين ينقلب إلى غطرسة وكبرياء على حد قول الآخرين الذين يثير فيهم الشعور بالتهديد، وقد أدى الارتباط بين هذه الأفكار المتناقضة والمشاعر التى لا مفر منها ومع توالى الظروف والمناسبات، إلى ظهور العنف والمواجهات العصبية الشديدة الوطأة بين التجمعات اليهودية والمسيحيين الذين عاشت بينهم هذه التجمعات فى أوربا.

وفى نهاية العصور الوسطى وما تلاها وبعد تشتت اليهود خارج إسبانيا والبرتغال ، وهما الدولتان اللتان عاش فيهما اليهود بشكل يثير السخرية كبقايا للحكم الإسلامى لشبه جزيرة أيبريا فى قطعة معروفة داخل ما يطلق عليه إسم حى اليهود ، أجبروا على المعيشة فى أراض مسيحية أخرى خاصة فى غرب ، ووسط أوربا ، وأخيراً فى شرق أوربا ، وقد حدث ذلك عندما كانت الثقافة الأوربية ومعتقداتها الدينية تحوزان تأثيراً قوياً متزايداً فى كل أرجاء الدنيا التى كانت تتسع أكثر فأكثر من خلال التجارة والنصر وتصبح أغنى فى المصادر والفرص ، واعتاد المسيحيون أن يصفوا اليهود بأنهم " قتلة المسيح" ومع انتشار السكان اليهود استمرت الكراهية التى أثارتها ضدهم تهمة قتل المسيح ، وفى العصور الوسطى كانت الكراهية التى نتجت من هذه التهمة فيها الكفاية لإثارة الكثير من الانتقادات المشتعلة بالعنف المجنون ضد اليهود فى الكثير من المدن الأوربية ، أما فى المدن فقد عاشوا فيما أصبح يسمى "الجيتو" (بعد منطقة البندقية التى خصصت لإقامتهم فى وقت ما) أحياناً فى أوضاع متدنية وأحياناً أخرى فى أوضاع رغده وفاخرة ، أما الأوضاع الأخيرة فقد جعلت اضطهاداتهم التى تحدث على فترات منتظمة تلقى ترحيباً أكثر وتدر ربحاً أوفر.

وقد أتعبت كثرةُ ملاحقة اليهود المجردةُ من الرحمة المنظمات الخيرية المسيحية [١] خاصة رهبان الفرنسيسكان والدومينيكان ، وكانت هذه الملاحقة تجرى فى عنف صارم إلى درجة لا يمكن الهروب منها ، حتى أصبحت الاضطهادات مرضاً أصيلاً ، وأدى السلوك غير الطبيعى لبعض التنظيمات الرهبانية إلى ظهور أنواع من الأوهام التى تتحرر أو تخف حدتها عند إحداث الألم بالأفراد الذين يسهل وصفهم بالأعداء ، وقد أضيف إلى اليهود الذين تحملوا مسئولية قتل المسيح عناصر أسطورية متعددة أشهرها الاتهام بقتل الأطفال (خاصة الذكور) للحصول على الدم البرىء حيث كانوا يزعمون استخدامه لإتمام الكثير من طقوسهم التى لا تعرف أسماؤها ، ومن المؤسف أن هذه الممارسات الهستيرية كانت تهدف إلى الهجوم الوحشى على هذه الأقلية .

ولم تكن هذه الانتفاضات الظالمة التى تعبر عن الوحشية موجهة ضد اليهود فقط ذلك أنه فى الأيام المبكرة للسيطرة السياسية المسيحية فى الشرق لقى الهراطقة

الغنوصيون اضطهاداً لا يعرف الرحمة وفيما بعد أيضًا لقى المسيحيون من أمثال طوائف التطهريين Cathars ، والألبيين Albigensians ، وفرسان المعبد ، والجماعات المنشقة مثل جماعة معارضة تعميد الأطفال Anabaptists كانت كلها تجرى ملاحقتها وسبها على يد السلطات الأرثوذكسية بنفس هذا الأسلوب ؛ [٢] ولكن اليهود كانوا يمثلون عاملاً ثابتًا ونوعًا من العلامات الدالة على الاضطراب العقلى فى أوربا ، إن وضع علامة على هدف استعداداً لتوجيه الاضطهاد نحوه يعتبر استغلالاً سادياً متطرفًا ، وعلى مدى الكثير من تاريخ أبناء الدول الأوربية سواء فى داخل قارتهم أو عند الابتعاد عن مواطنهم تعتبر حاجتهم إلى احتلال أراضى الآخرين وإذلالهم إحدى العلامات البارزة فى النفسية الأوربية ، كما تعتبر معاملة الأقليات إحدى علامات هذا الإختلال العقلى مثل ممارسة الاسترقاق كما كانت تمارسه الأمم الأوربية .

ومن المؤلم أن ندون بسهولة سجل الاضطهادات المسيحية ضد اليهود وغيرهم من الأقليات ، إن المسيحية ملتزمة ومتمسكة بآرائها الخاصة بتفوق تعاليمها مثل الإسلام ، ولابد من فهمها حسب مصطلحات زمنها ، قبل الإصلاح الدينى ، لم يكن التسامح بين النظم العقائدية المختلفة اختياراً مفتوحًا أمام القادة المسيحيين بالنسبة للمجتمعات التى حكموها ، فقد كان يجب أن يمارسوا درجة معينة من التسامح فى حكمها مثلما حاولت بعض الإمارات فى جنوب فرنسا أن تفعل ، لقد اعتبروا التسامح عملاً خاطئًا ، فأدانوا قبول الهراطقة أو الوثنيين فى المجتمع المسيحى بدون تحفظ ، ويعتبر الإسلام فى هذا الصدد أكثر المجتمعيْن تسامحًا حيث سمح لليهودية والمسيحية معًا بالبقاء بصرف النظر عن القيود المتشددة التى اتخذها .

ولم يصبح فى الإمكان تطبيق بعض النماذج الإيجابية فى فحص مثل هذه الموضوعات إلا فى السنوات الأخيرة فقط ، ففى العقود التى تلت نهاية الحرب العالمية الثانية حدث فى نفس الوقت ظهور دولة إسرائيل على خشبة المسرح العالمى ، وكانت ذكريات اضطهاد اليهود تحت حكم الأيديولوجيات النازية لا تزال ماثلة فى الأذهان ، فإننا نلاحظ أن بعض الدارسين بدأوا فى التساؤل عن الرأى المسلم به مع إلقاء نظرة جديدة على بعض الأوضاع المحيطة التى أقيمت لكى تحمى ضمن اعتبارات أخرى وجهة نظر أوربا عن نفسها [٣] .

وأصبح هناك اقتناع بأن التاريخ الثقافى لأوربا كان مشوشًا منذ نهاية القرن الثامن عشر بسبب تركيز الدارسين الأوربيين على بحث الجذور المصرية والفينيقية للثقافة الأوربية ، وقد أنتشر ذلك لأن دارسى التنوير الذى تلا ذلك قد رفضوا قبول فكرة أن الإغريق يدينون بحضارتهم أو على الأقل الجزء الأكبر منها للمستعمرات التى أنشأها المهاجرون المصريون والفينيقيون فى بلاد اليونان ، والحقيقة أن هذا المفهوم كان مسايرًا لفكرة الإغريق عن أصول مجتمعهم ولكن ذلك كان يعنى بالنسبة للعقليات العنصرية التى سادت خلال القرن التاسع عشر أن الثقافة الأوربية التى فقدت بساطتها القديمة والتى ولدت فى الضوء الساطع الذى أنار بلاد اليونان قد جاءت من مصادر إفريقية (مصرية) وسامية (فينيقية) وهذا بالطبع أمر مرفوض ، لقد نشأت أوربا على أساس المفاهيم القومية ثم الاستعمارية فيما بعد ، والتى أدت إلى العنصرية العدوانية ، وعلى ذلك فالمفروض أن تستبعد فكرة الأصول المصرية والفينيقية نتيجة لتأثير الأكاديميين القوى والسائد خاصة فى الدراسات الكلاسيكية فى فرنسا ، وألمانيا ، وبريطانيا بدرجة أقل ، ولم يسمح بالازدهار إلا للدراسات الإغريقية القديمة لكى تظهر وقد انبثقت متكاملة مثل انبثاق أثينا من رأس الإله زيوس .

وقد أستخدم اصطلاح (سامية) هنا حسب مفهومه اللغوى الصحيح فقد كانت اللغة الفينيقية فرعًا من مجموعة اللغات الكنعانية الكبرى التى شكلت أحد الأنهار الرئيسية للغة السامية الغربية ، وكذلك فإن لدينا اصطلاح آخر تم توظيفه لإدارة الحوار وهو "معاداة السامية" الذى يطبق (وهو فى رأى مؤلف الكتاب غير صحيح) بمعنى المعارض لليهودية أو المؤثرات "السامية" الافتراضية التى تصدر عن اليهودية أو تتصل بها .

ويلاحظ مؤلف هذه الدراسة أن " معاداة السامية يمكن النظر إليها على أنها شىء إضافى يستعمل كإتهام عندما لا يوجد أعداء خارجيون "، [٤] ومن المؤكد أن تاريخ اليهود فى أوربا يبين أن اضطهادهم المرحلى ضرورة تنبثق عن العمق الأسود فى النفس الأوربية ، وتجد هذه الحاجة نفسها الآن فى مواجهة مع ظاهرة لم تتعامل معها من قبل وهى توالى التصريحات من اليهود أنفسهم ، لقد نتج عن تأسيس دولة إسرائيل نتيجة واضحة وهى التأكيد الطبيعى على أن الأقلية التى تتعرض للضغوط مثل الأقلية

اليهودية تستطيع التعبير عن نفسها فى سلسلة من ردود الأفعال التى تمتد من التفاخر البسيط من خلال تأكيدات التفوق على الجماعات الأخرى حتى الوصول إلى الإدعاء العنصرى الكامل لدى كاهان أو بيجين .

لقد أصبحت الجماعات اليهودية داخل وخارج إسرائيل مسرعة فى إدانة أى شىء ترى أنه يمثل هجوماً على وضعها اليهودى ذلك الذى أصبح مرتبطاً بالقومية فى مجال السياسة بعد أن صار منحة من دولة إسرائيل .

ولم يعد من المفيد بالنسبة لتلك الجماعات الموجودة فى المجتمعات الغربية التى كان اليهود يمثلون بالنسبة لها هدفاً طبيعياً منكمشاً ويسهل مهاجمته أن تهاجم عدواً يمكن أن يرد الهجوم ، وأصبح الأفضل لها أن تحول الانتباه نحو السود ، أو الآسيويين أو أية أقلية أخرى تفتقد الدافع للمقاومة التى تساعدها عليها دولة قوية ربما كانت مكروهة ولكنها تحظى بالاحترام .

لقد نتج عن انهيار النظام السوفيتى فوضى أدت إلى ظهور الجمهوريات المستقلة وتوحيد دولتى ألمانيا ، وقد كشف ذلك عن مدى قرب الحاجة إلى البحث عن الأقليات وتعريضها للاضطهاد من السطح فى نفوس الأوربيين ، وعند كتابة هذا الكتاب كان أمامنا مسلمو البوسنة كنموذج قريب ، وكذلك نموذج الروس فى أستراليا ، والألبان فى اليونان .

ويواكب متاعب المهاجرين الأوربيين الجدد فى دولة ألمانيا الشرقية السابقة رفض أبناء عمومتهم فى الجانب الغربى من البلد للمهاجرين من ذوى الأصول الألمانية الخالصة ، وقد أشعلت المظاهرات التى حدثت فى بولندا كراهية البلاد الكامنة ضد اليهود ، وكذلك أيضاً فى روسيا فإن المتاعب الاقتصادية فى البلد تنسب إلى اليهود كما نسبت من قبل إلى أيام القياصرة .

ويبدو أن الحاجة فى أوربا إلى البحث عن عروض الشرق شديدة الإلحاح ، إن " الساميين " يمثلون بؤرة مناسبة للتعبير عن الإصلاح الذى يمكن أن يطلق عليه "الكراهية العنصرية "، (٥) أما اليهود وقد أصبحوا هدفاً مستبعداً منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، أما الروس وأتباعهم فإنهم يشتملون لعبة بديلة رغم أنهم كانوا فيما

مضى هدفًا يسهل توريطه بمعرفة الدول وليس الأفراد حسب طبيعة الأشياء ، ولكن الآن اختفت هذه الدرجة من الخطر الشرقى .

وبقدر ما ينقضى الشكل النمطى القديم فإن معاداة السامية الجديدة تميل نحو العرب الذين يتم تصويرهم الآن مجردين من القدرات الجسدية والأخلاقية تلك التى كانت فى يوم من الأيام سببًا لسعادة رجال الدعاية المضادة لليهود ، والعربى (لاشك أن كلمتىّ "عربى ومسلم" مصطلحان قابلان للتبديل) يصور بوصفه ضخم الجسم ، وله أنف معقوف كالسنارة، وشعر أسود ، وطماع ، وعنيف ، واستغلالى ، وهو غنى بدرجة وحشية ، وثروته لا يستحقها ولم يكتسبها بعرقه ، وهو سبب العديد من إخفاقات العالم الصناعى بسبب إحكام قبضته على المصدر الحيوى البترول.

وكان من السهل مضاعفة هذه الصور النمطية (مع " أعمال البنوك " بدلاً من " البترول ") فى نشرات الدعاية المعادية لليهود عند نهاية القرن التاسع عشر(عندما كانت مثل هذه الطعون شائعة) أو فى عقد الثلاثينيات من القرن العشرين عندما التقطت الدعاية النازية الهجاء المضاد للرأسمالية الذى سلط على اليهود كأحد الأسباب التى لا يمكن إغفالها و التى أدت إلى تهديد الاقتصاد الأوربى والأمريكى ، ولاشك أن المطاردة المستمرة لليهود قد تغلغلت فى أعماق الضمير الأوربى وشكلت نموًا وحشيًا استطاع كلما همد أن يهب سريعًا ومنتهزًا كل فرصة ليعود إلى نشاطه المخيف ، وقد أعطى ذلك للفخاخ اليهودية موضعًا خاصًا فى مجال تشويه الحقائق لدى العقليات الأوربية والمسيحية ، ولكن الاضطهاد الأوربى لليهود كان على الأقل نتيجة للجذور اليهودية للثقافة الدينية الغربية ، ويمكن رؤية رد الفعل العنيف ضد اليهود واليهودية الذى مارسته أوربا بين الحين والآخر بوصفه محاولة للرفض أو الهروب من العنصر المتعلق بثقافتهم الماضية.

إن جميع الناس يعتبرون نتاجًا وفى نفس الوقت أسرى للأساطير التى تعيش بينهم ، وتتصل طبيعة الأسطورة بطبيعة اللغة التى تعتمد عليها فى التعبير اللفظى عنها بالرغم من أن أصول الأسطورة تكمن فى اللاشعور الجماعى للناس ، إن الأسطورة واللغة متشابكتان لغويًا ، وقد يقال إن اليهودية سامية بمعنى أنها تعود فى

أصولها إلى المنطقة التى أتى منها الناطقون بالسامية كما أن الإسلام الذى يعود فى أصوله إلى نفس المنطقة قد يقال إنه سامى ، وكما كانت اليهودية شكلاً من أشكال المعتقدات التى لا يسهل أن تغرس نفسها فى تربة أوربية لها أساطيرها الأصلية الخاصة بها ، فإن هذه المجموعة من الأساطير كانت مكتومة ولكنها اندفعت إلى السطح مرة أخرى على فترات متفاوتة ضمن أشكال أخرى فى صورة رفض للتراث اليهودى ، وما نتج عن ذلك من دمار للأوعية اليهودية التى يمكن الوصول إليها والتى يمكن امتلاكها .

ولابد من الاعتراف بأن اضطهاد اليهود على يد الأوربيين فى عصور الإيمان وما تلاها عندما كانت هذه الاضطهادات ترتكز على أساس رفض اليهود للمسيح وقبولهم حمل مسئولية سفك دمه فمن المؤكد أن موضوع هذا الاضطهاد لم يكن فقط قصة مخزية فى تاريخ القارة كلها بل أيضًا تستعصى على الفهم . إن الأغلبية الساحقة من اليهود الذين تعرضوا للاضطهاد ليست لهم علاقة مباشرة (أو بالنسبة لليهود الذين ينحدرون من الأصول الشرقية وهم الذين يمثلون النوعية الضعيفة) بسكان فلسطين الذين عاشوا على أيام موت المسيح فى أورشليم فى العقود المبكرة من العصر الحالى ، وعلى ذلك فإن العديد من اليهود الذين اضطهدوا لا يمكن أن يطلق عليهم اسم الساميين كما جرى تفسيره فيما بعد ، مما يجعل مأساتهم أكثر إثارة للسخرية ولكنها ليست مخيفة.

إن أسوأ اضطهادات الأوربيين لليهود فظاعة لم يكن يهدف إلى القبض على اليهود مثلما كان يهدف إلى المكاسب المالية ؛ لأن مصادرة ممتلكات اليهود لقيت ترحيب الخزائن الكنسية وكذلك الخزائن الملكية لأنها جاءت نتيجة للحماس الدينى ، وبدأ وضع اليهود فى أوربا يتغير بشكل ملحوظ بعد الإصلاح الدينى ، لأنه مع زيادة المرونة فى فهم مضمون الكتاب المقدس بعد ترجمته إلى اللغات القومية لأول مرة أصبحت العلاقة المسيحية وتراثها اليهودى أكثر وضوحًا حتى بالنسبة لعامة الناس ، وبدأت الجماعات الأصولية فى التبشير بالحقيقة المطلقة التى تتضمنها أسفار العهد القديم بنشاط كما طورت مفاهيمها حسب القوانين الكنسية الجديدة ، وبينما انتشرت معرفة القراءة والكتابة ببطء فى كافة أنحاء أوربا انتشر معها هذا الوعى بالتراث

الموجود فى العهد القديم ، كما تطور أيضًا سلوكها بسبب أعمال الفنانين الذين رسموا اللوحات الدينية وبدرجة أقل النحاتين الذين وجدوا فى الملاحم التى رواها الكتاب المقدس موضوعات غنية لإشباع ملكاتهم الفنية لمعادلة الحكايات الصالحة التى وردت فى الإنجيل ، ومع حلول القرن السابع عشر تأصلت الجماعات اليهودية فى معظم مدن غرب أوربا وكذلك فى العديد من مدن شرق أوربا ، وأصبحت فى وضع يتيح لها الحصول على الامتيازات لنفسها وللمجتمعات التى عاشت فيها ومنها فتح طرق التجارة عالميًا وكذلك بدايات عصر التصنيع ، وكان اليهود ضمن أوائل الرأسماليين الحقيقيين ، وفى ذلك الوقت أيضًا بدأ المغامر اليهودى المثقف يتخذ وضعه كشخص عادى فى الحياة الثقافية التى تتجه سريعًا نحو الازدهار فى العديد من المدن الأوربية .

ولم تفعل مساهمة اليهود فى الثورة الثقافية الأوربية الكثير بالنسبة لوضع اليهود فى المجتمع الأوربى خاصة الفقراء منهم أو الذين لم يحصلوا على امتيازات بينهم ، وظهرت الضغوط التى استهدفتهم فى المدن الأوربية بهدف إدماجهم واستيعابهم فى المجرى الرئيسى للحياة المالية ، والتجارية ، والاجتماعية ، وقد حدث بالفعل إدماج العديد من اليهود ولكن بقيت غالبيتهم كجماعة منفصلة ، تستفز المشاعر المتناقضة فى عقول وقلوب الناس الذين عاشوا بينهم ، لقد اختلطت مشاعر الحسد ، والاحتقار ، والعطف ، والخوف كلها فى سبيكة مختلطة وعصبية .

وقد شارك الخليط المشترك من التنوير مع انتشار الفكرة القومية وحركة التصنيع خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى صنع خيوط نسيج الوجود اليهودى فى أوربا ، لقد كان اليهود دائمًا فى صدارة حركات الفكر الحر ، وقد تجاوبوا بحماس شديد مع الجو الجديد الذى يشجع على نشره ظهور الروح العلمية فى القرن الثامن عشر ، وقد وضعتهم قدرتهم الفطرية ، وتفوقهم فى الشئون التجارية ، ومهارتهم فى تخطى الحدود فى موقع أتاح لهم ميزة اقتناص الفرص التى لاحت لهم مع نمو الصناعات وحاجة أوربا المستمرة لتطوير اقتصاديات الصناعة بحثًا عن مصادر جديدة لرأس المال .

وعلى مستوى التفاعل الاجتماعى المعتاد ، والعلاقة بين التجمعات اليهودية والأفراد اليهود ، مع المجتمعات التى عاشوا فيها اختلفت تجربتهم على أوسع نطاق ،

ففي بريطانيا وبعد نفيهم الرسمي سنة ١٢٩٠ ونوبة الاضطهاد التي لم يكن هناك مفر من التعرض لها في العصور الوسطى ، لقي اليهود الترحيب الحذر ابتداء من القرن السابع عشر فصاعداً ، وأصبحت التجمعات اليهودية في إنجلترا غنية وحظيت بالاحترام ، وأدمج العديد من اليهود تماماً وتغلغلوا فى المستويات الأرستقراطية العليا ، وعند منتصف القرن التاسع عشر أصبح اليهود قادرين على الدخول في عضوية البرلمان كما تم إعفاؤهم من ضرورة الالتزام بصورة مسيحية لأداء القسم ، وبعد ذلك بعدة عقود سمح لأحد الذين تعمدوا رغماً عن معارضة أبيه الذى يعتبر مفكراً حراً بأن يصبح أول رئيس لحزب المحافظين وأصبح فيما بعد أعظم رؤساء الوزارات تأثيراً وتجديداً على مدى القرن .

وفي ذلك الوقت أصبح فى الإمكان ملاحظة ما أطلق عليه اصطلاح (غير صحيح من وجهه نظر هذه الدراسة لسبب واحد على الأقل) المحب للسامية فى الدوائر الدينية والفكرية ، وإذا عدنا إلى القرن التاسع عشر فسنتأكد من أنه كان هناك حماس لدراسة التاريخ اليهودى والبحث فى الجذور اليهودية للمسيحية بشكل غير مسبوق ، وقد كشفت الانطلاقات المعتادة لهذا الحماس فى شكل إنجليزى مثالى من الشذوذ المعتدل الذى التزم به الإسرائيليون الإنجليز ، وعلى سبيل المثال ، ظهر من يتطوع للبرهان على أن البريطانيين القدماء كانوا من بقايا سبط أو سبطين من أسباط إسرائيل الضائعة والتى تعرضت شخصيتها ومصائرها لمكائد ومتاهات العديد من التكهنات العلمية، وقد استبعدت هذه التوضيحات واعتبرت أنها لا تتجاوز إتخاذها كأمثلة على الاحتمالات التى تقبلها العقليات البشرية كحقائق بدون اكتشاف أن الحماس للعقيدة اليهودية التى أبدعتها قد لعب دوراً فى إعداد الرأى العام والرأى السياسى لقبول الإدعاء بامتلاك فلسطين عندما يعمل الصهاينة الأوائل على المناداة به.

ومن المؤكد أن الحماس الذى شهده القرن التاسع عشر لاستخدام علم الآثار الذى ظهر حديثًا خاصة فى بريطانيا قد وجد بعض كبار المتجاوبين معه بين هؤلاء المثقفين الذين اتجهوا لدراسة ما أطلق عليه اسم "علم الآثار الخاص بالكتاب المقدس" وأيضًا بعض رجال الدين الذين اهتموا به ، وسيرد فى الفصل السادس من هذا الكتاب الحديث عن اجتهادات علم الآثار الذى انصب اهتمامه أصلاً على إثبات النواحى

التاريخية فى الكتاب المقدس وخاصة تلك الأجزاء التى تتضمن التقاليد اليهودية التى وردت فى العهد القديم ، وأدى الاهتمام بالبحث عن الأدلة التى تثبت الجانب التاريخى فى الحكايات التى تتعلق بالعهد القديم إلى قبول الدور الذى قام به اليهود (بصرف النظر عن الاسم الذى أطلق عليهم فى ذلك الوقت) من خلال هذه الحكايات .

وبذلك تأكد ارتباط الهوية المسيحية بالتاريخ اليهودى ، ولم يسأل الكثيرون عما إذا كان هؤلاء الناس أصحاب الذهن المشوش والسلوك الغريب والذين يعيشون فى جماعات مغلقة فى المدن الأوربية يعتبرون يهوداً حسب المفهوم الذى نعرفه عن اليهود الذين ورد ذكرهم فى حكايات الكتاب المقدس .

وعلى كل حال ، فإنه عندما ظهر مؤسسو الصهيونية فى الدوائر السياسية وغيرها من الدوائر ذات التأثير ، كان من الضرورى بالنسبة لهم إقناع الناس بصلاح قضيتهم فوجدوا جيلاً كاملاً مستعداً نفسياً وثقافياً لقبول دعاويهم بأنهم ورثة الموعد الذى قطعه الله فى الكتاب المقدس وإذا لم يكن ذلك قد حدث فسيكون من الصعب عليهم اختراع ادعاء بعيد الاحتمال (*).

أما فى فرنسا فقد أدت الثورة الفرنسية إلى فتح أبواب الرتب فى الحكومة والجيش معًا لليهود ، وقد كانت هناك منذ فترة طويلة جماعات قوية تقيم فى المدن الفرنسية خاصة فى الجنوب ولم يكن تاريخهم السابق أفضل من تاريخ زملائهم فى الدين فى المدن الأوربية الأخرى ، ومن خلال موجات الاضطهاد التى كانت توجه من حين لآخر ضد الهراطقة المسيحيين من رجال البابوية والسلطة الملكية فى فرنسا كان اليهود هم الضحايا فى أغلب الأحوال حيث كان الفرسان المسيحيون يذبحونهم

(*) تتحمل حركة الانشقاق على الكنيسة الكاثوليكية والتى تسمّى « حركة الإصلاح الدينى » مسئولية تسلل الفكر الصهيونى إلى المذاهب البروتستانتية المتطرفة التى تغالى فى تفسيرها لمفاهيم العهد القديم حتى تتطابق ، مع الفكر الصهيونى ، وهى مسئولة تماما عن مساندة الغرب البروتستانتى لدعاوى الصهيونية .

ونلاحظ أن المؤلف هنا يهاجم الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية بسبب ما توصل إليه من مسئولية نسبها للمسيحيين الأوائل وجعلها تدور حول اضطهاد الهراطقة ، وكذلك اليهود على يد المسيحيين الذين قبلوهم ليعيشو بينهم . (المترجم) .

أو يحرقونهم داخل أفران الهولوكوست التى تحرق الأبرياء ، وقد طرد اليهود من فرنسا على يد الملك الشرير فيليب الجميل (٦) ؛ ولكنهم عادوا بعد أن طردوا من أسبانيا والبرتغال فى بداية القرن السادس عشر ، ولكن بالرغم من أن الشعور المعادى لليهود كان عميقًا فى فرنسا ، وكان من السهل استثارته لإشعال مناظرة مثل تلك التى اكتسحت دريفوس السيئ الحظ إلا أن اليهود الفرنسيين في القرن التاسع عشر نالوا الاعتبار والاحترام بوجه عام .

ولم تعمل الإمبراطورية الألمانية ، وإمبراطورية النمسا ، والمجر ضد اليهود بالرغم من الحركات التى كانت تنشب بين الحين والآخر مفعمة بالتحامل الإثنى (العنصرى أو الجنسى) أو الاجتماعى مثلما كان يحدث فى باقى أجزاء أوربا ، بل رحبت هاتان الإمبراطوريتان باليهود . وقد كان اليهود فى ألمانيا على وجه الخصوص يتميزون بالقوة ، والغنى ، والكثرة العددية . وقد لعب اليهود الألمان أدوارًا قيادية في كافة المجالات التى أدت إلى ازدهار ألمانيا ثقافيًا واجتماعيًا فى العهد الإمبراطورى حتى نشوب الحرب العالمية التى أدى فيها الكثير من الضباط اليهود واجباتهم بامتياز وشجاعة .

وقد تأثر يهود ألمانيا إلى حد بعيد بالمفاهيم الجديدة عن القومية التى ارتكزت عليها نشأة الإمبراطورية الألمانية فى الربع الأخير من القرن العشرين ، وكان لهذا الإحساس العميق بالقومية تأثيرًا ملحوظًا على نمو الصهيونية التى بدأت هى الأخرى فى الظهور كمفهوم سياسى قرب نهاية القرن .

وكانت الأراضى الروسية هى التى دارت فيها أشد سياسات الاضطهاد تواصلاً ضد التجمعات اليهودية، وقد كان من المفيد بالنسبة لهذه الإمبراطورية التى كانت غالبية سكانها تعيش فى أحوال متدنية مثل التجرد من الملكية والبؤس أن تتحول السلطات إلى أقلية متميزة تصبح مسئولة عن سوء الحظ الذى انتشر على أوسع نطاق والذى انبعث عذابه من الأحوال السيئة لغالبية السكان ، ولقد زرعت وأينعت فى شرق أوربا البذور التى نمت فى أحد الأيام حتى أصبحت هى دولة إسرائيل .

وبينما تزايدت رفاهية أوربا تزايدت أيضًا رفاهية الجماعات اليهودية فى القارة ، ونتج عن ذلك أن هذه الرفاهية المتزايدة أشعلت قدرًا متزايدًا من الحسد ، وظهرت

تعبيرات الحسد فى شكل عدوانى عن طريق جماعات البروليتاريا المدنية الناشئة التى لاحظت أن بعض اليهود تتزايد ثروتهم بينما ازدادت الجماعات المدنية الفقيرة فقراً وأصبحت الصورة النمطية لليهودى الحديث الغنى والذى يعيش متفاخراً بثرائه ومستعرضًا أمواله سببًا آخر للكراهية ، والازدراء ، وكثيراً ما أدت إلى الهجوم عليه بدنيًا ، وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ترعرعت فى عقول الكثيرين من اليهود وغير اليهود فى وقت واحد " المشكلة اليهودية " فى أوربا ، وأدى ارتفاع مد القومية إلى تفاقم المشكلة لدى جماهير الشعب مع ظهور شبكات البنوك اليهودية المترابطة عالميًا سواء كان ذلك حقيقيًا أو خياليًا ، وكذلك المصالح التجارية التى عملت كما حدث فى الماضى على مد الحدود والفواصل القومية بينها وبين المصالح غير اليهودية .

أما نشأة الولايات المتحدة التى كان اليهود ضمن أوائل المهاجرين إليها والتى ظهرت أولى محاولات الأمريكيين الأوائل لمقاومة تأثيرهم التجارى ، فقد أعطت مساندة أكبر لمفهوم الأمة حتى لو كانت الأمة فى حد ذاتها مجرد شتلة نقلت من مكان إلى آخر وخليطًا من كافة الأجناس التى تعيش على الأرض ، ومع تزايد قوة الحماس الأوربى لتفعيل دور القومية فإننا لا نعجب عندما نجد أن بعض اليهود بالرغم من ضآلة أعدادهم فى هذه المرحلة الأولية قد بدأوا فى إبداء رغبتهم فى تكوين قومية خاصة بهم .

وعند هذه النقطة يجدر بنا أن نناقش الدور الذى لعبته اللغة فى هذه القضية ، إن مفهوم القومية يفترض مسبقًا وجود أمة ، ويرتبط مضمون الأمة باصطلاح "العنصر أو الجنس" ومن الواضح أن ذلك غير متوفر لعدم وجود رابطة مباشرة بين هذين الاصطلاحين بالنسبة لليهود .

وعلينا أن نذكر هنا مع بعض التأكيد أنه لا يوجد تحديد معروف لأى اصطلاح لأنه تفكير خيالى ولا يسمح بإطلاق اصطلاح الأمة أو العنصر على اليهود ، إن اليهودية شريعة تتركب من العقيدة الدينية والممارسة الاجتماعية ، والاثنتان مرتبطتان معًا كما هو الحال أيضًا فى الإسلام . إن ممارسات اليهودية والانعزالية التى كانت دائمًا تمثل جزءًا من طموحاتها القومية ، قد أدت إلى نمو شخصية بشرية مميزة بين غيرها من

شخصيات الشعوب وبين جميع الأجناس وذلك من حيث السلوك والمظهر لدى اليهود الذين اشتركوا فى المعتقدات ، وقاموا بأداء نفس السلوكيات التى عاشت معهم .

ويتمتع اليهود عامة بعضوية جماعة دينية واجتماعية بمعنى أنهم يمثلون مذهبًا أو طائفة وبذلك فإنهم يشبهون الشيعة فى الإسلام أو على الأصح بين المسلمين ككل ، ومن هذا القبيل فمن الأمور الموغلة فى الخيال وصف اليهود بأنهم "عنصر أو جنس" لأن هذا الاصطلاح لا ينطبق عليهم إلا إذا طبقناه على جميع المسيحيين أو المسلمين فلا يوجد شىء اسمه العنصر المسلم أو العنصر المسيحى وكذلك لا يوجد أيضًا جنس يهودى .

إن اليهود منتشرون بين جميع الأمم ومعظم الأجناس ، والكثيرون منهم أوربيون وبعضهم الآخر عرب ، وصينيون ، وسلافيون ، وهنود ، وقد لاحظنا كما سيرد فيما بعد أن التجمعات اليهودية فسيولوجيًا تتشابه أكثر مع السكان الذين تعيش بينهم أكثر من التشابه مع التجمعات اليهودية الأخرى التى تعيش بين سكان آخرين ، وبذلك لا نجد "يهوديًا نمطيًا" أو "طرازًا يهوديًا" ومن المؤكد أنه لا يوجد جنس يهودى .

ومادام الإدعاء اليهودى بامتلاك فلسطين يرتكز بدرجة كبيرة على قبول فكرة الطبيعة الخاصة لليهود مما يؤهلهم لتكوين دولة دائمة مميزة سياسيًا وذات سيادة يعيشون فيها فإن اليهودية تدفعنا بناء على هذا الادعاء إلى فحص الأدلة الأخرى التى فى صالح أو ضد اليهود كشعب متميز، أكثر من الاعتماد على انتسابهم الدينى ، ومن الضرورى النظر فى الأعمال التى تساهم فى تحديد هذا الفهم - الالتباس ، الذى يترتب على هذا الموقف ، ومن المفيد أيضًا النظر فى نتائج مسح الدليل التاريخى والعلمى الذى أدى إلى اعتبار اليهود يمثلون جنسًا أو أمة ، مادام الادعاء بامتلاك فلسطين قد جرى التعبير عنه باستخدام مصطلح " الوطن القومى " لليهود ، ولذلك فلابد من مواجهة هذه الاعتبارات هنا .

يبدو أنه كانت هناك عقيدة طال التمسك بها وهى أن اليهود مختلفين بطريقة واضحة عن الناس الذين عاشوا ، بينهم ويبدو أن هذه الفكرة قد سيطرت على عقول

اليهود كما سيطرت على عقول غير اليهود خاصة فى الدول المسيحية فى أوربا حيث عبر الناس عن مفاهيمهم وشكوكهم عن اليهود بالاضطهاد ، والازدراء ، والاستغلال ، والخوف ، لقد قبلوا حقيقة الفصل بممارسة الضغوط القانونية والاجتماعية ، أما اليهود فقد ساهموا على الأقل حتى العصور الحديثة فى تزكية الإحساس بالاختلاف عن طريق الملبس ، والطعام ، والممارسات الاجتماعية والدينية وعادات التزاوج الداخلى فيما بينهم (بالرغم من أن هذه العادات لم تكن مرنة تماماً) وبأساليب الإصرار على انعزالهم واختلافهم عن غير اليهود ، وقد كشفت المشكلة طويلة الأمد التى سادت الدوائر الدينية المتشددة حول ما يشكل شخصية اليهودى (تبدو هذه المشكلة بالنسبة لغير اليهودى وكأن هناك من يتابعها بنشاط غير عادى ، وحقد ملحوظ) بأنها تفسر ما يبدو كأنه اهتمام عميق يتجه نحو النظرة إلى الداخل حتى من خلال ما ساد المجتمعات الغربية العاقلة عن المزاج اليهودى ، والقيم ، والمهن ، وغريزة التجمع مع التجمعات اليهودية الأخرى كل ذلك يقوى الفكرة القائلة باختلاف اليهود عن غالبية الناس الذين يعيشون بينهم ؛ ولكن الحقيقة هى أن اليهود مختلفين عن جيرانهم فى بعض التفاصيل الضرورية .

وعلى كل حال ، فإن الاختلاف اليهودى (مهما كانت الظروف) أبرز فكرة " الوطن القومى " فى بعده السياسى وبالتالى فكرة الدولة اليهودية ، ويحتاج هذان المفهومان للفحص فى سياق الحاجة الملحة لإقامة بناء اجتماعى وسياسى يستطيع اليهود أن يشعروا من خلاله بالأمان ، وأن يحددوا إذا ما كانت هناك سبل إيجابية لوضع طبيعة اليهودية (بخلاف التأكيد على وجودها) التى قد تسمح بتطبيق أفكار القومية أو الوطنية على اليهود بأى معنى فى شكل مصطلح سياسى حديث وتتصل هذه الاعتبارات بالفكرة التى دعت إلى تأليف هذا الكتاب إذا سلمنا بأن اليهود يشكلون أمة بالفعل ، وحينذاك سيكون علينا أن نناقش ضرورة أن يعيشوا كأمة لها وطن قومى لأن مثل هذا التطوير إذا قبلناه فإنه سيحتاج إلى سلسلة من المعايير والمواصفات الخاصة .

وإذا كان قد لوحظ مؤخراً أن اليهود لا يشكلون جنساً بشرياً يصبح من الصعب استخدام هذا التعريف بشكل واضح وبدلاً من ذلك يستخدم اصطلاح كلمة الجنس

بالمعنى الشائع فى وصف مملكة الحيوان وهو جماعة من الأفراد الذين يتميزون بخصائص بدنية ثابتة ومعروفة بوجه عام ويرتبطون برابطة الدم أو ينحدرون من أصل معروف ، وينطبق هذا التعريف مع كافة نوعيات الشوائب والاستثناءات التى أدخلت عليه والتى تفسر لنا ضعف مفهوم الجنس أو العنصر على أنه شىء آخر بخلاف أنه اصطلاح عام وسطحى يميز بين الجماعات البشرية ، إنه موقف له جذور ضعيفة فى ارتباطه بالحقيقة العلمية التى يمكن إثباتها ، ومن الواضح أن الجنس لا يعنى جماعة تحيا فقط على أساس الاشتراك فى الانتماء الدينى ، وأن أعضاءها ينحدرون عن خليط من الأصول القومية والإثنية ، لقد انخرط العديد منهم فى المجتمع بوسائل أخرى غير الانتساب إلى أجداد معروفين ليست لهم لغة منتشرة أو جذور لغوية شائعة .

إن الافتراض بأن اليهود أعضاء من جنس واحد قد جرى فحصه بتوسع خلال ما يزيد على القرن الماضى بعدة سنوات ، وأفضل تلخيص يقال عن وضعهم الحالى يرتكز على فحص مفصل للمعلومات المتاحة التى جمعت من مرجع علمى معروف عنوانه The Myth of The Jewish Race وترجمته : "أسطورة الجنس اليهودى" للمؤلفين : ر . باتاى R. patai ، ج . باتاى J.Patai (٧) .

ولما كان أحد المؤلفين يشير إلى أصوله اليهودية (أشكينازى) فمن الواضح أن عنوان الكتاب لا يقصد به الاستفزاز، لأن العنوان يعلن كخطوة أولى عن موقف المؤلفين بوضوح فليس هناك جنس يهودى إذا ما بحثنا فى تطبيق هذا الاصطلاح من ناحية دلالته علمياً وتاريخياً .

وباختصار ، فإن كتاب " أسطورة الجنس اليهودى " يستعرض التاريخ المعروف لليهود ابتداء من عصر الكتاب المقدس فصاعداً ، إنه يشير إلى التجميع المستمر لمختلف العناصر التى تشكل الجماعات اليهودية الموجودة على مدى القرون ، وإلى تأثير العوامل التقليدية أو الاجتماعية مثل تغيير العقيدة (إجبارياً أو بدون إجبار) ، والزواج المختلط ، أو الاغتصاب كعوامل تؤدى باستمرار إلى تغيير التكوين الجينى بالنسبة لمختلف التجمعات اليهودية ، وهذه العوامل تصرف الانتباه نحو تأثير مختلف موجات التحول العقائدى التى اكتسحت التجمعات اليهودية فى العصور المسيحية المبكرة

والمتأخرة ، إن الخزر الذين اتخذوا لهم مكاناً فى هذه القصة كما حدث بالنسبة للقبائل العربية السابقة على ظهور الإسلام والتى دخلت فى الإسلام ثم إبعاد القبائل التى لم تتبرأ من اليهودية عندما نشر النبى (صلى الله عليه وسلم) دعوته بين سكان شبه الجزيرة العربية .

إن التساؤل عما إذا كان اليهود يمثلون جنساً يعتبر من ناحية نتيجة لبحثهم عن هوية عامة ، ومن ناحية أخرى نظرات غير اليهود إليهم ، ويبدو أن هذه الحاجة إلى وجود هوية تغلغلت فى نفسية اليهود بشدة بالرغم من الإدراك الواضح لدى العديد من اليهود بحقيقة " اختلافهم " عن هؤلاء الذين يعيشون بينهم والذين أطلق عليهم الكتاب المقدس اسم "الغرباء والدخلاء" ، وهذه الحاجة الواضحة تكشف عن نفسها من خلال قضية التركيبة اليهودية التى تتراوح ما بين اليهودى المتطرف الذى يظن أنه هو اليهودى ، حتى وجهة النظر الشديدة التحفظ التى ترى أن اليهودية تكتسب فقط بالميلاد من امرأة يهودية والتى يجب أن تنتمى هى الأخرى إلى أصل يهودى خالص .

وقد تجاهل المؤلفان السؤال الصعب الخاص بأصول هؤلاء الناس الذين أعطاهم الله ميثاقاً فى العهد القديم ، وعلى أية حال فإن هذه القضية لها أهميتها لأنها ترتبط بكل الإدعاءات التى يدعيها يهود اليوم حول انتسابهم إلى القبائل التى دونت سيرتها فى أسفار العهد القديم ، وفى التلمود (*) ، وحيث أن القبائل التى يدعى اليهود المحدثون انتسابهم إليها لا يمكن الجزم من حيث التركيب الجينى بأنها مختلفة عن الشعوب الأخرى التى عاشت فى شرق البحر الأبيض المتوسط فى الفترة ما بين أواخر حتى أواسط الألف الثانية ق.م ، فربما كان هذا الاختلاف لا يسترعى الانتباه .

(*) الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد هو موحى به من الله ، وإذا كانت التفسيرات المادية التى لجأ إليها اليهود والمذاهب المتطرفة فى المسيحية الغربية المالئة لليهود تخالف المفاهيم الروحية التى تشير إليها المعانى والأحداث التى وردت فى العهد القديم ، فإن هذا التطرف فى التفسير لا يمس حقيقة الكتاب المقدس الذى يتجه بكل محتوياته نحو إعداد الإنسان للحياة الأبدية فى الملكوت باعتبار أننا غرباء فى هذه الدنيا ولسنا مخلدين فيها؛ أما التلمود فهو كما ورد تحت كلمة Talmud فى قاموس The Scribner Bantam الإنجليزى، عبارة عن:"مجموع القوانين المدنية والكهنوتية اليهودية غير المدونة فى أسفار العهد القديم." إذن فهو كتاب مدنى وليس ضمن أسفار الكتاب المقدس الموحى بها من الله.(المترجم)

ويتتبع المؤلفان تاريخ اليهود منذ منتصف القرن الأول ق.م ، وهما فى ذلك يقفان على أرضية آمنة حيث إنه في الإمكان الحديث بثقة عن اليهود كجماعة مميزة منذ أوقات ما بعد السبى فصاعداً ، واستطاعوا كجزء من عملية التخفيف مما عرف بأنه السلالة الأصلية التى يقال إن اليهود الأوائل قد انحدروا منها أن يقتبسوا مرتبة المؤمنين " الذين يخافون الله " الذين لم يوافقوا تماماً على الممارسة أو العادة اليهودية والذين لم يندرجوا فى عضوية الجماعات اليهودية ولكنهم أصبحوا أعضاء صالحين ضمن اليهود الملتزمين (الأرثوذكس) عن طريق الزواج أو التسرى ، وفى القرون الأخيرة أصبحوا أعضاء جماعة الذين يعتبرون " على يمين السيد Droit du Seigneur" فى الإقطاعيات الأوربية مما يشكل إضافة جديدة للجينات اليهودية ، وكذلك أيضاً تحول العبيد لدى السادة اليهود الأثرياء إلى الإسلام فى البلاد الإسلامية على مثال ما حدث فى الأراضى المسيحية وهذا التحول معروف ومدون فى الوثائق مما وسع فى دائرة الجينات الأصلية وأدى إلى زيادتها .

أما الدليل على أثر النشاط الواسع للإرساليات الدينية اليهودية فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام فسنتحدث عنه فيما بعد ، وعند هذه النقطة يمكن القول أن التحويل لليهودية كان شديد التأثير لدرجة أن مملكة حمير على سبيل المثال وهى إحدى ممالك جنوب شبه الجزيرة العربية خلال أوائل المسيحية وما قبل الإسلام قد تحولت إلى اليهودية نتيجة لقرار ملك حمير بقبول تعاليم الإرساليات اليهودية الجوالة (٨) وعندما عرض على العشائر اليهودية فى شبه الجزيرة العربية فى عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يختاروا ما بين الطرد أو الدخول فى الإسلام ، فإن الذين لم يدخلوا فى الإسلام هاجروا من شبه الجزيرة العربية وأضافوا جيناتهم العربية إلى التجمعات التى أقيمت حول سواحل البحر الأبيض المتوسط تلك التى استقروا بينها وذابوا فيها .

ويجدر بنا أن نذكر فى هذا السياق أن أعضاء الجماعات اليهودية التى بقيت فى شبه الجزيرة العربية فيما بعد خاصة الذين أقاموا فى اليمن (مازال بعضهم يعيش هناك حتى الآن بالرغم من الهجرات الضخمة التى ذهبت إلى إسرائيل منذ الستينيات من القرن العشرين) لا يسهل التفرقة بينها وبين الجيران العرب من حيث الصفات

الجينية ، وكان ذلك مرزولاً فى حالة التجمعات اليهودية اليمنية التى استمرت فى عزلتها على مدى المائة عام الأخيرة .

أما عن موقف يهود شمال إفريقيا الذين يمثلون أكثر التجمعات اليهودية اعتباراً وفاعلية والذين نشأوا هناك منذ العصر الرومانى وربما قبله فهو موقف معروف ، إن سكان شمال إفريقيا مهما كان السبب تجاوبوا بحماس مع الإرساليات اليهودية منذ القدم ، ومن المحتمل أن يكون البربر بالذات قد رحبوا باليهودية وشكلوا عنصراً مهماً فى تكوين التجمعات فى هذه المنطقة ، وكانت الجماعات اليهودية فى جميع المدن الكبرى المنتشرة بطول سواحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبية كثيرة العدد ، وقوية ، وغنية ، وتتمتع بثقافة رفيعة ، وإلى هذه الطبقة الغنية تنتمى التجمعات اليهودية التى عاشت مؤخراً فى الأراضى الإسلامية وفى أوربا بأعداد غفيرة .

ويهتم المؤلفان بالدليل على وجود العقل اليهودى الذى يتميز بالفهم بالرغم من أنهما يقبلان ذلك على أنه من الصعب قياسه كمياً ، ويهتمان كذلك بتقدير ما إذا كان اليهود عند الحكم عليهم بالمعايير النفسية والاجتماعية المعترف بها يمكن القول بأن لديهم قدرات عقلية تفوق ما يتمتع به غير اليهود ، وكانت النتيجة التى توصلا إليها هى أن هناك نسبة كبيرة من الأفراد ذوى الذكاء المرتفع بين اليهود أكثر من غير اليهود ، ويذكرون أن اليهود من خلال المتابعة الدراسية يحققون نسبة تفوق بالمقارنة إلى غيرهم من الجماعات .

ويؤكد المؤلفان أن أية اختلافات تكتشف بين اليهود وغير اليهود فى هذا الصدد إنما هى نتيجة للعوامل البيئية ، ويفترضان أن أكثر هذه الاختلافات قدرة على التأثير هى انعزال أو فصل التجمعات اليهودية التى تعيش بين غير اليهود وتركيز قدراتها على الدراسة والمتابعة الذهنية ثم الحاجة إلى التفوق .

ولكن من المعلوم أن الدليل الذى يقدمه المؤلفان اعتمد على حالات ومصادر تعود إلى الأشكيناز ، وقد يتأكد انطباق هذا الحكم على أساس هذه الحقيقة القائلة : بأن موقف المجتمعات المسلمة الذى يتميز بالتسامح عامة أو غير المتحيز الذى سنشرحه

فيما بعد واحترام الإسلام للعلم لم يفرض نفس الضغوط على اليهود الشرقيين لكى يتفوقوا أو يطلب إليهم أن يحشدوا أنفسهم كما هو الحال فى المجتمعات الغربية أو الأوربية ، إن البحث عن التفوق العقلى ليس له أهمية فى حد ذاته بالنسبة لتجمعات اليهود الشرقيين .

ويعتبر كتاب " أسطورة الجنس اليهودى " دراسة شاملة من حيث أنه يهتم بفحص الدليل القائل بأن أفراداً معينين أو جماعات معينة تظهر يهودية ويستبعد الفكرة الخيالية القائلة بأن الدليل يبين ذلك بشكل واضح ، وفى هذا الصدد يردد مؤلفا الكتاب النتيجة التى توصلا إليها وهى أن اليهود يميلون إلى إثبات الصفات التى تتميز بها المجتمعات التى يعيشون بينها إلى درجة أكبر من حرصهم على إبراز تشابههم مع غيرهم من الجماعات اليهودية بالمولد .

ويستعرض المؤلفان الصفات الجسمية للأفراد اليهود والتى يمكن تحليلها مثل الطول ، ولون الشعر والعينين، وشكل وحجم الأنف، وحجم الرأس، وقبضة اليد ومدى اتساع الذراع ، وبصمات الأصابع ، ومكونات الأسنان، وبناء على دراسة معظم هذه العناصر استنتج المؤلفان أن " الدليل يشير إلى وجود اختلافات تدحض حجة الافتراض بوجود وحدة جنسية لليهود " وعلى كل حال ، فإنهما أوضحا بعض هذا الدليل بناء على تحليل بصمات الأصابع التى أيدت وجود بعض القرابة بين جماعات اليهود المنعزلة مثل تلك القادمة من ألمانيا، وتركيا ، والمغرب ، واليمن ، وتوصلا إلى أن الطراز الذى يوجد فى كافة هذه الجماعات يوحى بأنها تعود إلى أصول تنتمى إلى البحر الأبيض المتوسط .

وتوجد العديد من الملاحظات التى أوردها المؤلفان فى الدراسة الخاصة بالصفات الجينية للسكان اليهود ومازالت هذه الدراسة فى طور التطوير بشكل نسبى كما يقول المؤلفان حيث أن الدراسات لم تشمل سوى عينة صغيرة من الجينات التى لدى كافة الكائنات البشرية والتى يتراوح عددها ما بين ١٠ إلى ٥٠ ألفًا ، وقد أشار المؤلفان أيضًا إلى أن التشابهات الظاهرة فى نسبة تعدد الجينات بين مختلف السكان ربما تعكس عوامل معينة مثل مبدأ الاختيار الطبيعى وغير ذلك من المبادئ .

ويبين لنا فحص جينات الدم ، والخلايا الحمراء ، والبروتينات التى فى الدم ، وكافة العوامل التي تستخدم فى التحليل وجود علاقة بين السكان اليهود وجماعات البحر الأبيض المتوسط وبالطبع فإن هذا يتطابق مع الدليل التاريخى مع مراعاة الانتشار السريع والمكثف لليهودية نتيجة للتحركات السكانية، والتحول الدينى ، والتكامل الاجتماعى هذه كلها التى حدثت حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط على مدى التاريخ اليهودى وقد حدثت معظم هذه العمليات خلال العصور القديمة عندما وضعت القاعدة السكانية للمجتمعات الأخيرة فى شمال إفريقيا وأوربا ، ولكن الدليل على وجود ارتباط بين البحر الأبيض المتوسط والسكان اليهود المحدثين لا يمدنا فى ذاته بأية قواعد للحديث عن وجود جنس يهودى ولا يجعلنا نعتبر أن اليهود شعب متجانس أكثر من الشعوب الأخرى ، ومن المؤكد أيضًا أن ذلك لا يمدنا بأية سلطة علمية للإدعاء بأن اليهود قد انحدروا عن الجماعات التى كانت تعيش فى شرق البحر الأبيض المتوسط على أيام العهد القديم ، إن تكرار حدوث أمراض معينة بين جماعات سكانية محددة يمكن أن يمدنا بالكثير من المعلومات الجينية ويساعد على تحديد العلاقات أو الارتباطات بين جماعة وأخرى .

إن بعض الأمراض الموروثة والتى قيل إنها تنتشر بين اليهود خاصة الأشكيناز لم يتأكد وجودها بالفعل فى تجمعات اليهود المختلفة بشكل يجعل منها خاصية يتميز بها اليهود على وجه الخصوص ، وعلى عكس الوضع الذى يرتبط بجماعات اليهود السفرديم أو الشرقيين على وجه الإجمال (فيما عدا حمى البحر الأبيض المتوسط) ، وعلى ذلك فإن هذا الدليل لم ينتج عنه نتائج ذات قيمة فيما عدا الافتقار لوجود رابطة فى تلك الحالات بين تجمعات الاشكيناز وغيرها من التجمعات اليهودية .

ولاشك فى أن مؤلفى كتاب " أسطورة الجنس اليهودى " قد أيدا قضيتهما بالقول بأن الحديث عن الجنس اليهودى لا يمكن تأييده بالدليل الواضح حيث أن هذا الاصطلاح أو مثيله قد استخدم فى الماضى ، ولكن مضمونه أثار الشك والاستخفاف والإحساس العنصرى ، ومن المؤكد أيضًا ، أن الدليل الجينى الذى تمت دراسته لا يؤيد وجهة النظر القائلة بأن اليهود يمثلون مجموعة إثنية متجانسة بحيث يقال : إنهم يختلفون عن بقية الناس .

ومع ترك الموضوع جانبًا نلاحظ أنه من الضرورى القول بأن العالم يونج C. G Jung أكثر رواد التحليل النفسى فطنة ، قد توصل إلى نفس النتيجة عن اليهود فى أوربا وأوجه الشبه العامة التى يمثلونها بالنسبة للسكان الذين عاشوا بينهم (أو كما أفضل القول : الذين كانوا جزءًا منها) وقد كتب يونج فى كتاب : العقل والكرة الأرضية Mind and Earth عندما طبع للمرة الأولى فى سنة ١٩٢٧ باللغة الألمانية Mens-che and Erde عن أثر ما نطلق عليه اليوم اسم البيئة على السكان الذين يعيشون فى مكان محدد خلال فترة زمنية محددة قائلاً : "نلاحظ أن اليهود فى مختلف الدول الأوربية يتميزون باختلافات لا يمكن تفسيرها إلا بالعودة إلى خصائص الشعوب التى عاشوا بينها ، وليس من الصعب القول باختلاف يهودى أسبانى عن يهودى من شمال إفريقيا أو يهودى ألمانى عن يهودى من روسيا وفى الإمكان التفرقة بين أنماط مختلفة من اليهود الروس ، كما نفرق يهود بولندا عن يهود شمال روسيا والقوقاز ، وبالرغم من التشابه فى الجنس إلا أن هناك اختلافات واضحة تجعل قضيتهم غامضة ومن الصعب أيضًا تحديد هذه الاختلافات تمامًا بالرغم من أن دارس الطبيعة البشرية يحس بها لأول وهلة " [٩]، وبالرغم من أن يونج يتحدث هنا عن العنصر أو الجنس فإن فهمه للشخصية العامة لليهود من خلال ارتباطها بالسكان الذين يعيشون بينهم لافت للنظر ، وتمثل رؤية يونج هذه جزءًا من نفس تتابع المدارك فى النفس البشرية التى درسها فى ذلك الوقت بما فيها ذلك الذى يمكن أن نطلق عليه إسم إدراكه المسبق للاشتراكية القومية القادمة إلى ألمانيا عندما كان يتحدث عن "الوحش الأشقر" الذى رآه داخل نفوس العديد من المرضى الألمان والذين أجرى لهم تحليلاته النفسية التى كتب عنها سنة ١٩١٨ [١٠] .

أما النتيجة الحتمية لاختلاف خصائص السكان اليهود فهى أن اليهود لا يمكن أن يقال أن لديهم أية علاقة عنصرية أو إثنية بفلسطين ، وحتى إذا أمكن إثبات أن كل اليهود الذين يعيشون اليوم أو غالبيتهم هم النسل المباشر لسكان فلسطين القدماء ، فإن ذلك لن يمنحهم حقًا أخلاقيًا أو قانونيًا "للعودة" (*) .

(*) فى ١٦ فبراير سنة ١٩٦٧ صدر ضمن كتيبات " المكتبة الثقافية " كتيب بعنوان : " اليهود أنثروبولوجيًا " من تأليف الدكتور جمال حمدان ، والكتاب صغير الحجم لكنه عظيم القيمة ونوصى الباحثين والقراء بالعودة إليه (المترجم) .

وإذا كانت مثل هذه المناقشات سارية المفعول فإن الكلتيين Celts يجب أن يصروا على حقهم في العودة إلى حوض نهر الدانوب الذى جاء منه المتحدثون باللغة الكلتية ومنه أيضًا انتشروا غربًا لكي يستقروا فى ألمانيا ، وفرنسا ، والجزر البريطانية لأن التاريخ وحده هو الذى يمنح حقوق الانتماءات القومية .

وبالطبع لا يوجد هناك نسب مباشر بالنسبة لليهود أكثر مما هو موجود بالنسبة للكلتيين بالرغم من أن بقاء اللغات الكلتية فى العصور الحديثة قد يعطيهم بعض الامتياز ، أما الإدعاء اليهودى فى فلسطين فإنه يستند فقط إلى حقيقة الامتلاك وإذا كان ذلك على أساس العهد فلابد أن يعتمد على وجهة نظر كل شخص ، لقد كان الشرط الدينى هو الذى جعل الدول الأوربية أو على الأصح بريطانيا للوهلة الأولى مستعدة لقبول فكرة " الوطن القومى " إن الأمة يجب أن ترتبط بلغة عمومية ، وقوانين وعادات ، وحكومة ، وتاريخ ، وقد تتكون الأمة من اندماج الجماعات المختلفة كما حدث بالنسبة للولايات المتحدة أو كما يحدث الآن فى العملية التى تتعلق باليهود الذين يعيشون الآن فى إسرائيل ، أما اليهود الذين من أوربا والذين يعتبرون المؤسسين الفعليين للدولة الإسرائيلية فليست لديهم العناصر العمومية التى تشكل القومية وتجعل منها حقًا سياسيًا كما هى الحال بالنسبة للهولنديين أو كما هو واضح فى قضية الأيرلنديين على سبيل المثال .

ومن السهل تفسير هذه النقطة بالتعرف إلى بعض الجماعات التى تعيش فى الشرق الأوسط التى حرمت حاليًا من الحصول على قومية ولكنها تتوافر فيها عناصر تكوين القومية مثل الأكراد الذين لهم تاريخ واضح ومدون ، كما أنهم يتحدثون لغتهم الخاصة بهم ويعيشون فى مجتمع له كيان ولكنهم لسوء الحظ توجد أراضيهم التقليدية داخل حدود أربع دول حديثة ، وكذلك الأرمن وهم شعب له خصائص مميزة ولهم أيضًا لغتهم الخاصة بهم وعاداتهم ، ونظمهم الإدارية ، والكنسية الراسخة منذ زمن طويل ، أما الفلسطينيون على الرغم من اشتراكهم فى ثقافة وتاريخ العالم العربى الواسع إلا أنهم كما هو واضح يمثلون قومية حسب كافة المقاييس المعروفة أما اليهود بوصفهم يهودًا فإنهم ليسوا كذلك .

إن مفهوم "وطن" أو "أرض الوطن" أيضًا شديد التحيز لأنه يحمل معنى المكان الذى ينتمى إليه أصل شعب معين أو مجتمع معين ، إن الإدعاء بامتلاك أرض معينة يحتاج إلى تأكيد رابطة الدم ففى الولايات المتحدة لا يمكن قبول أحد أفراد الأباتشى إذا ادعى امتلاك الأراضى التى عاشت فيها قبيلة الهنود الحمر التى عاشت فى وادى الموهوك Mahawk وهكذا فلا يمكن قبول قيام مثل هذه الادعاءات على أساس الأرض وربما يكون من المفهوم بالنسبة للشخص الذى ينتسب إلى اسكتلندا والذى يعيش فى أستراليا أن يتبنى فكرة عن اسكتلندا بوصفها وطنًا ؛ ولكن جميع المحلفين سيتفقون على أن مثل هذه الأوهام لا تشكل حقوقًا أو تصبح عنوانًا على وجود قومية اسكتلندية إذا كان مثل هذا المفهوم قانونيًا .

إن هذه الجولة حول علم الدلالات اللغوية بين اصطلاحات " العنصر أو الجنس "، و"الأمة أو القومية" و"الوطن" عبارة عن رد فورى على الطبيعة الواسعة والإيجابية للدليل الذى قدمه مؤلفا كتاب "أسطورة الجنس اليهودى" ، ولم يكن المؤلفان يشغلان نفسيهما بمعانى مثل هذه الاصطلاحات فيما عدا الاصطلاح الأول منها لأن هذه الكلمات ليست متعلقة بموضوع دراستهما ولكنهما سمحا لنفسيهما بانطلاقة غريبة تتعلق ببقية الدراسة ، وهناك فصل يختص بما أطلقا عليه اصطلاح "الطعن الأخير : اليهودى العنصرى" لقد دونا فى فصول كتابهما الخاصة بتاريخ اليهود فى أوربا ظاهرة " الطعن الدموى " ، وهو الطعن المسيحى الشاذ وهو القائل بأن اليهود كانوا يختطفون الأطفال وغيرهم لكى يعتصروا دماءهم لاستخدامها فى إتمام طقس لا يوصف .

إن "الطعن الأخير" مختلف قليلاً ويبدو أنه رد على إدانة الصهيونية بوصفها شكلاً من أشكال العنصرية ، وقد ورد ذلك فى قرار وافقت عليه الجمعية العامة للأمم المتحدة ، ولم يخف الصهاينة ، والإسرائيليون ، والكثير من اليهود غضبهم وارتباكهم عندما حدث هذا الإتهام ، أما قرار الأمم المتحدة المذكور عاليه فهو القرار رقم ٣٣٧٩ الصادر فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٧٥ وهو يفترض أن " الصهيونية شكل من أشكال العنصرية والتفرقة " وهذا القول يمثل إعادة للاصطلاح الذى تضمنه القرار رقم ١٩٠٤ الصادر فى ١٠ نوفمبر ١٩٦٣ الذى حدد مفهوم التفرقة العنصرية بأنها : " أى تفرقة أو استثناء أو حظر ، أو تفضيل قائم على أساس العنصر، أو اللون ، أو النسب، أو القومية ، أو الأصل الإثنى."

وقد أيدت إسرائيل القرار الصادر فى سنة ١٩٦٣ ، أما القرار الصادر فى سنة ١٩٧٣ فقد كان يحقر من شأنها ، وهنا يقدم المؤلفان وجهه نظر غريبة حيث قدما دليلاً على أن اليهود لا يمثلون عنصراً بشريًا وبذلك فإن اليهود لا يجوز اتهامهم بالعنصرية . وبالطبع فإن اليهود المتهمين هنا ليسوا هم أتباع الديانة اليهودية بالرغم من عدم الشك فى أن هذه القضية يمكن إطلاقها ضد اليهود الذين اقتنعوا بالعنصرية بوصفها عملاً يتخذ ضد أية جماعة أخرى ، وإذا نظرنا فى المعنى الحرفى لما ورد فى العهد القديم فسيظهر لنا هذا الاتهام فى صورة تحط من طبيعة وخصائص شعب يختلف عن هؤلاء الذين اختبروا حسب إرادة الله ، وأنهم لا يستطيعون الهروب من بعض الملاحظات المهينة ولكن الحقيقة هى أن الصهيونية عنصرية حسب مصطلحات قرار الأمم المتحدة الصادر سنة ١٩٦٣ .

وترتكز دعوى اليهود حول " الوطن القومى " على قانون العودة الذى يعطى لكل يهودى من أى جنسية ومن أى أصل إثنى الحق فى المواطنة الإسرائيلية بينما يستبعد الفلسطينيين العرب من العودة إلى وطنهم .

إن استمرار استبعاد الفلسطينيين من وطنهم والحالات المتكررة لطرد العرب إنما يؤيد هذه النقطة. إن الطبيعة العنصرية للصهيونية كما أوضحتها الأمم المتحدة فى الوقت الذى لم تحقق فيه دول العالم الثالث التأثير العددى أو السياسى الذى تتمتع به اليوم والذى لم يكن حينذاك موجهًا ضد إسرائيل على وجه الخصوص أصبحت إسرائيل تطبقه الآن بوصفه سياسة الدولة ، بالرغم من اعتقاد العالم بأن اليهود من دون الناس جميعًا لا يصح أن يوصموا بالعنصرية .

وكانت الولايات المتحدة وحلفاؤها مصرين من خلال ضغطهم المستمر على الأمم المتحدة على إلغاء قرار سنة ١٩٧١ ، وقد تقرر ذلك فى الوقت المناسب لتحقيق رضاء وراحة إسرائيل ، ولكن إلغاء القرار لم يؤد إلى تغيير الشرط الذى فرض أصلاً من أجله ، إن الصهيونية عنصرية واضحة وكذلك فإن موقف إسرائيل فى تبنيها للصهيونية لتكون هى المبدأ الأساسى لها ، يؤدى إلى اتهامها بتطبيق سياسة عنصرية ، إن إلغاء قرار الأمم المتحدة الذى يعلن هذه الحقيقة لا يغير من طبيعة إسرائيل أكثر من تأكيده أن قبول القرار جعل الصهيونية عنصرية .

الهوامش

(1) Paul Johnson, *A History of the Jews* , Weidenfeld & Nicolson, 1987

(2) Norman Cohn, '*Europe's Inner Demons*, Heinemann, Chatto, Sussex University Press, 1975 .

(3) See, in particular/ Martin Bemal, Black Aihena, vo5s land 2, Free Association Books/ 1987, 1990

(4) Ibid

(5) Ibid

(6) Joseph R, Strayer, *The Reign of Philip the Fair*, LPE Princeton, 1980 .

(7) R Patai and }. Patai, *The Myth of the Jewish Race* , rev. edn, Wayne State University Press, Detroit, 1989 . The quotations which follow relating to the concepts of race are drawn from this source

(8) See *The Cambridge History of Islam* , vol. 1 ,Cambridge/ 1970 .

(9) C. G Jung, 'Mind and Earth', *Collected Works* , vol. 10 , *Civilisation in Transition* (translated from the German by R. F. C. Hull), Routiedge & Kegan Paul, nd 2 edition, 1970

(10) C. G. Jung, 'Uber das Unbewusste' (1918) *Die gesammelte* Werke von C. G. Jung, Zurich, 1958 - 1970 / X, 25 .

الفصل الرابع

اللغة ، والدعاية ، والصهيونية

أوجبت الاستخدامات الغربية للغة مناقشة الموقف الخاص بالمواجهة بين العرب والإسرائيليين ، لأن الاصطلاحات التى استُخدمت بدقة أكبر فى مناقشة أرض فلسطين ومشكلتها الحالية ، قد تحركت فى هذا العالم المضطرب من حيث دقة معانى الكلمات التى اختارها رجال الدعاية ، أولاً فلسطين نفسها : هذا الاصطلاح اتفق عليه لوصف الكيان التاريخى والجغرافى للمنطقة التى خضعت للانتداب البريطانى والتى كانت تدار قبلاً بمعرفة الإمبراطورية العثمانية ، وهى تتضمن أصلاً الأقسام أو الوحدات الإدارية المكونة من عكا ، ونابلس ، والقدس ، وكان القسم الأخير (القدس) يتمتع بوضع خاص بسبب مفهومه الدينى ، مما جعله يرتبط بالقسطنطينية مباشرة ، وكانت فلسطين فى العصر العثمانى تحكم من محافظة دمشق ، وكانت فيما مضى من العصور تخضع لإدارة سلسلة من الشعوب والدول هى : الكنعانيون ، والفلسطينيون ، والإسرائيليون والآشوريون ، والبابليون ، والفرس ، والإغريق ، والرومان ، والبيزنطيون ، والإمبراطوريات الإسلامية ، والمسيحيون (قليلاً) ، والأتراك ، والإنجليز (إلى حد ما) . وبالرغم من تعدد هؤلاء السادة فإن سكانها مثل غيرهم من سكان بلدان شرق البحر الأبيض المتوسط والهلال الخصيب كانوا من الفلاحين وسكان المدن ، وهم مهما كان عددهم كبيراً إلا أن تكوينهم ثابت مثل أساليب معيشتهم .

هؤلاء هم الفلسطينيون السكان الذين عاشوا دائمًا على هذه الأرض جيلاً بعد جيل سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً حسب انتمائهم الدينى حتى إعلان قيام دولة إسرائيل . واصطلاح (فلسطينى) مفهوم بوضوح سواء استخدم كصفة مثل قولنا

(قرية فلسطينية) أو (امرأة فلسطينية) أو استخدم كاسم (الفلسطينيون) . ومن الضرورى أن نقول : إن (الفلسطينى) لا يعنى فقط الانتماء الإسلامى بالرغم من أن غالبية سكان فلسطين الأصليين الآن مسلمون ، فقد كان هناك دائمًا عدد كبير من السكان المسيحيين وعدد قليل من السكان اليهود الذين كانوا يعيشون فى القدس قبل إنشاء إسرائيل .

أما الكلمات المرتبطة بالعنصر اليهودى من سكان إسرائيل وما وراءها فإنها كلمات أكثر تعقيدًا وإثارة للجدل بالنسبة لتلك التى ترتبط بالفلسطينيين أنفسهم ، وما داموا مرتبطين بالسمة اليهودية لإسرائيل فإنهم يحملون معهم كافة النغمات التوافقية التى اكتسبوها خارج إسرائيل خلال القرون التى سبقت إدراكها فى الأراضى البعيدة عن شرق البحر الأبيض المتوسط .

أما الاصطلاحات الثلاثة التى تتردد كثيرًا فى سياق السياسة الفلسطينية والإسرائيلية فهى (يهودى، وسامى، وصهيونى) وأصولها ، إنها ثلاثة اصطلاحات يصعب تحديدها حيث إن لكل منها طبقات عديدة من المعانى ، وعلى كل حال ، فإن ذلك لا يمنع كل من يستخدمها من أن يثق بأنه يعرف ما تعنيه ، وأن هؤلاء الذين يقرأونها ويسمعونها سيفهمون المصدر الذى يشير إلى معناها المقصود ، إنها مدرسة الخلط فى علم اللغة التى أوجدت مثل هذه المواقف .

ويصبح اصطلاح " يهودى " له معنى عندما يستخدم للدلالة على عضو جماعة تتشارك فى الثقافة ، والخصائص الدينية ، والعادات ، والمعتقدات ، ونجد فى العصور القديمة أن الناس الذين سكنوا فى مدن وقرى الشرق الأوسط خاصة الذين سكنوا شبه الجزيرة العربية والمناطق الصحراوية الممتدة فى الأراضى المعروفة اليوم باسم سوريا ، والأردن ، والعراق مع أجزاء من شمال وغرب المملكة العربية السعودية ، قد ارتبطوا معًا بواسطة العادات واللغات التى يتحدثون بها ، وأن بعضهم من البدو الرحل ، ولاشك أنهم كانوا جميعًا من البدو ، وعلينا أن نتذكر أن حياة البداوة هى المنتج النهائى للحياة فى الأراضى الصحراوية وليست مرحلة أولية فى طريق التقدم نحو الاستقرار فى الحياة ، ونستطيع إذا عدنا إلى الألف الأولى قبل الميلاد أن نضع أسماء لبعض اللغات

الخاصة بشبه الجزيرة العربية والمناطق الملحقة بها ، والناس الذين يتحدثون بها ، وأول مصدر عن العرب نجده فى نقش للملك شلمناصر الثالث نقش بعد معركة قارجان سنة ٨٥٢ ق.م [١] .

ولا يمكن إنكار أنه عند حلول منتصف الألف الأولى (حوالى سنة ٥٠٠ ق . م) فإن أفراد المجموعة اللغوية الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم اليهود ، كانوا يتحدثون لهجة من لهجات لغة أسلافهم الكنعانيين التى نشأت حسب كافة الاحتمالات فى المنطقة التى تعرف اليوم بشمال غرب المملكة العربية السعودية والأردن ، وجنوب سوريا ، وهى تظهر فى أشهر الأشعار والمحررات التى تدخل فى عملية صياغة القواعد التى ترتكز عليها الأساطير والتراث القبلى . أما هذا التعبير الغنى بالمعانى عن طاقة الشعر لدى السكان ، فقد نتج عن خلفيتهم الثقافية وخلفية العديد من جيرانهم الذين يقيمون بين ظهرانيهم البعض ممن لا ينتمون إلى هذه العائلة اللغوية ؛ ولكن كانت تربط بينهم فيما مضى صلات جوهرية سواء بشكل مباشر أو عن طريق آخرين لا يتذكرونهم ، ومن هؤلاء الجيران الذين تركوا مثل هذه التأثيرات القوية : السومريون Sumerians .

والحضارة السومرية هى أولى الحضارات المدنية المعروفة فى التاريخ وقد عاشت فى المنطقة الجنوبية من العراق ويعتبر السومريون ضمن أكثر الشعوب القديمة قدرة على الابتكار ، ومن بين اختراعاتهم ذات التأثير العميق والتى لولاها لأصبح عالم اليوم بكامله فى وضع شديد الاختلاف ، الكتابة . لقد اخترع السومريون الكتابة وكانت فى البداية نظامًا للمحاسبة وفيما بعد اتخذت شكلاً مرنًا للتعبير الأدبى وشجعت عليه ، كان السومريون من رواة القصص الموهوبين وقاموا مثل بقية الناس بالتأمل فى أحوالهم ومكانتهم داخل الترتيب العالمى فاخترعوا علمًا للبحث فى أصول الآلهة ، ووجودها ، وتعددها ، وبصرف النظر عن جاذبيتها فإنها عبارة عن مجموعة من الإلهيات ، وقد ، اختفوا من سجل التاريخ عند نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد بالرغم من أن لغتهم استمرت موجودة بشكل محدود ومتحجر وبذلك ظلت مستخدمة فى الطقوس الدينية [٢] .

وكانت بذلك سابقة لما حدث للعبرانيين بعد قرابة ألف وخمسمائة عام ذلك أن المتحدثين بتلك اللغة حتى حينما كانت مزدهرة بوصفها لغة حية تذكروا القليل عن

وجود السومريين بالرغم من أنهم اشتقوا الكثير من أساطير خلفائهم البابليين والأشوريين ، وهم من أواخر الذين تحدثوا لغة سامية على خلاف السومريين الذين لا يوجد تشابه بين لغتهم وغيرها من اللغات الحية أو الميتة ، وقد نتج عن هذا الخليط المشوش من التجارب الثقافية مجموعة من الأساطير والأشعار التى أثرت فى البشرية بشكل عميق ، وابتداء من منتصف الألف الأولى ق.م. خاصة بعد سبى بابل أصبح اليهود أكثر تحديداً كجماعة مميزة تعيش بين سكان الشرق الأوسط ، ومهما كانت هوية هؤلاء السكان فى ذلك الوقت فقد اشتركوا معًا فى انتماء لغاتهم التى تحدثوا بها إلى الأصل السامى (٢) .

وقد لوحظ منذ وقت مبكر صعوبة واضحة فى تحديد معنى اصطلاح "يهودى" بالنسبة للعالم المعاصر، ويبدو أن هذا الاصطلاح كان واضحًا إلى حد ما فى الآثار القديمة بعد الأسر البابلى حيث كان يعنى عضواً فى الجماعات التى تلت تعاليم الأحبار الذين نظروا إلى الهيكل كمصدر لمعتقداتهم التى حفظت هى الأخرى فى كتب التوراة ، وفى العصور التالية وبسبب انتشار ممارسة التحول إلى ديانات أخرى أصبحت هذه السمة المحددة لليهود غير واضحة إلى درجة القول بأن اليهودى هو من يعتبر نفسه يهودياً ، وبينما تصر معظم الدوائر اليهودية التى تتبع المذهب القويم على أن اليهودية موروثة عن أم يهودية محددة وأن وجهة النظر التى تعتبر اليهودية شكلا للتعبير عن الذات قوضت كل صفة قاصرة على فئة خاصة كانت تربط نفسها باليهودية عن طريق أى إحساس وراثى أو قياسى ، وعلى كل حال ، فإن دعوى اليهودية واضحة بما فيه الكفاية لكى تصبح عنوانًا على القومية الإسرائيلية .

ومن المفيد فى هذا السياق ضرورة تطبيق اصطلاح "العربى" على نوعيات كثيرة من الناس ، ومن الواضح أن العرب عندما يستخدمون هذا الاصطلاح فإنهم يستخدمونه بمفهوم ثقافى : العربى هو الذى يتحدث اللغة العربية والذى تنبثق ثقافته من الخبرة المشتركة للأجيال المتعاقبة من المتحدثين باللغة العربية ، وبذلك يمكن إدراج البربر ، والأفارقة ، والساميين وسكان شرق البحر الأبيض المتوسط تحت عنوان "العرب" ، ولكن الاصطلاح لا يتضمن أى انتساب عنصرى واضح أو محدد بصرف

النظر عما يعنيه اصطلاح "عنصر" وربما كان سكان شبه الجزيرة العربية أو الصحارى السورية العربية هم السكان الذين يمكن أن يطلق عليهم اسم "العرب" وحدهم ؛ لأنه من المحتمل أن يكونوا هم الساميون الحقيقيون الذين يستخدمون هذا الاصطلاح فى معناه اللغوى الصحيح حتي لو كان استخدامه على نطاق ضيق .

ومن بين أهم المجتمعات التى ظهرت فى الشرق الأدنى فى القرون الأخيرة للعالم القديم الأنباط الذين عاشوا فى المنطقة التى تغطى اليوم شمال غرب السعودية ، والأردن حيث ازدهرت عاصمتهم "البتراء" بوصفها إحدى العجائب التى انحدرت من العالم القديم ، كان الأنباط أسلافًا للعرب المحدثين وتحدثوا لغة قريبة من اللغة العربية وأقاموا دولة مزدهرة تمتعت بكافة عناصر النمو والحياة تحكمها أسرة ملكية تعاملت مع روما معاملة تقترب من المساواة ، وكانوا أخصائيين موهوبين فى شئون الرى كما أحرزوا سمعة طيبة فى تحويل الصحراء إلى أراض خضراء ، وقد انضموا إلى الإمبراطورية الرومانية وأصبحت مملكتهم تشكل ولاية البتراء العربية .

لقد ازدهرت دولة الأنباط فى الوقت الذى تمتعت فيه التجمعات اليهودية فى شرق البحر الأبيض المتوسط وحوله بالازدهار ، وقد ارتكز ازدهار الأنباط على التحكم فى معظم طرق القوافل التى تجلب التوابل والبخور من شبه الجزيرة العربية إلى العالم الرومانى . ويتضح لنا من المصادر العديدة التى تنسب لهذا العصر أن الأنباط العرب والتجمعات اليهودية التى كانت تجاورهم قد عاشوا معًا فى صفاء واعتبر كل منهما نفسه منتميًا إلى شعب واحد مع اختلاف الشعائر الدينية ، أما استخدام اليهود اللغة الآرامية لغة لهم مع قربها الشديد من لغة الأنباط فقد ساعد بوضوح على انتشار علاقات الصداقة والسلام بينهما .

ويأتي بنا ذلك فى سياقه الصحيح إلى الاصطلاح الثانى الذى يستخدم بطريقة جزافية وهو اصطلاح "سامى" واشتقاقاته خاصة نقيضه "اللاسامى" الذى يمكن إذا راعينا أصول الشرف والدقة أن ننسب إليه استنباطًا آخر ، ونقول مرة أخرى : إنه لا يوجد عنصر سامى ، وإن لفظ سامى والسامية يمثل اشتقاقًا لغويًا ، واللغات السامية هى التى تعود فى جذورها إلى الركن الشمالى من شبه الجزيرة العربية وربما على

وجه التحديد الركن الشمالى الغربى المناطق الصحراوية التى تقع إلى الشمال من هذا الركن ، واليوم فإن اللغة السامية الوحيدة التى تستخدم استخداماً عادياً هى اللغة العربية ، أما اللغة الأمهرية وهى اللغة الأساسية فى إثيوبيا فهى شديدة القرب من اللغات السامية فى أصلها ولكنها ليست سامية ، وفى العصور القديمة ازدهرت مجموعة غنية من اللغات السامية فى الشرق الأدنى ولكنها انضمت جميعها إلى مجموعات محددة من بينها اللغة العربية التى أصبحت اليوم هى اللغة الوحيدة التى بقيت من بينها ، أما اللغة العبرية كما تستخدم اليوم لغة رسمية لإسرائيل فإنها عبارة عن تركيب صناعى إلى حد كبير إلى درجة أنه لا يستطيع أحد الآن التأكد من أن اللغة العبرية كانت تستخدم كلغة للحديث فى العصور القديمة ، وهناك حديث طويل فى ذلك الأمر .

إذا بحثنا عن ملحوظة عامة حول المسار التاريخى للمتكلمين باللغات السامية فيمكن القول بأنهم اشتهروا بشن الحروب ، وأنهم من النوع المتعطش للدماء ضد جيرانهم ، وتسجل أسفار العهد القديم الهجمات الفظيعة والوحشية التى شنها المتحدثون باللغة السامية الذين يحتفلون بحروبهم خاصة تلك الحروب التى تشن طبقاً لوصايا آلهتهم القاسية ، والتى لا تعرف الغفران ولاشك أن أول الناس الذين تحدثوا باللغة السامية هم الذين نشروا الخراب فى الأراضى المجاورة لهم ، ويمكن القول بأن السومريين اللطفاء والمبدعين الذين تحدثوا لغة غير سامية والذين اتسعت منازعاتهم حتى وصلت إلى مستوى الهجمات المفاجئة التى كانت تشنها إحدى المدن ضد مدينة أخرى إلا أنها كانت مقصورة عليهم وحدهم حيث أن هذه المدن كانت تنضوى تحت مظلة التيار المتحدث بالسامية والذى كان ينطلق من الصحارى على مدى القرون .

لقد كان الأكديون ، وخلفاؤهم البابليون ، والأشوريون جميعهم من المتحدثين بالسامية وقد أقام الأكديون أول إمبراطورية (تحت حكم سرجون الأول) وسحقوا خصومهم فى بلاد ما بين النهرين ووصلت حملاتهم إلى أبعد منها [٤] ، وتعتبر دعاوى سرجون مثالاً لنوعية الجعجعة التاريخية والتحقير المهين للأعداء وهو الأمر الذى لا نعرفه اليوم ، أما البابليون والأشوريون فقد كانوا أشد عدوانية وخاصة الأشوريون الذين تركوا خلفهم سجلاً مرئياً للبلاد التى فتحوها يسجل عليهم ما ارتكبوه من قتل

خصومهم بالخازوق ، أو ربطهم بأعمدة ثم حرقهم أحياء ، أو تقطيع أطرافهم لإرضاء خيال قادة معسكراتهم الذين وصل عددهم إلى ألف قائد ، ومن المحال وصف الجرائم التى ارتكبها المتحدثون بإحدى اللغات التى عاشت فى الشرق الأوسط منذ قرون مضت إلا إذا وجهنا الاتهام إلى الناطقين باللغة الإنجليزية بارتكاب جرائم تجارة العبيد .

ومن غير المفهوم أن نحاول المساواة بين السامية واليهودية على وجه الخصوص لأن كلا الاصطلاحين يعنى نفس الشىء ، وربما يقال أن الساميين الحقيقيين هم عرب شبه الجزيرة العربية والأراضى الأخرى الملحقة بها حيث إنهم هم الذين يتحدثون وحدهم لغة سامية هى لغتهم الأم أو المولد - وباختصار فإن من يطلق عليه اسم "معاد للسامية" اليوم هو الذى يعادى اللغة العربية أو يعادى هؤلاء الذين يتحدثون بها .

والاصطلاح الثالث الذى يستخدم بشكل عام هو " الصهيونية " ولهذا المصطلح فى السياق الإسرائيلى وكما هو مستعمل اليوم أهمية ومعنى سياسيًا خالصًا ، وعلى كل حال ، فقد كان "صهيون" هو أحد الاصطلاحات التى تعنى فى العقيدة الدينية اليهودية المجتمع الأعظم للديانة اليهودية ، وفى هذا السياق فإن كلمة " اليهودية " قد تكون هى أقرب الأمثلة لهذا الاصطلاح ولكن هذا الاصطلاح ليست له الروابط التاريخية أو العاطفية التى يحملها لفظ "صهيون" ، وتم الاتفاق عليه من خلال ضربات الدعاية بوصفه الاصطلاح الذى تلتف حوله الجماعات اليائسة المختلفة من المتطرفين اليهود فى الربع الأخير من القرن الماضى أثناء رحلتها لتأمين وطن قوى لليهود ومع قبول الصهيونية بوصفها بؤرة تنعكس عليها الدعاية التى يبثها المتطرفون ، فقد أصبحت نقطة الالتقاء مع فكرة "العودة" كأمل يهودى قديم يتعلق بالانتشار الذى وجد الصهاينة القدماء أنهم يستطيعون تجميع مؤيديهم المختلفين حوله .

وأصبحت الصهيونية هى الحركة السياسية التى حشدت لإنشاء الوطن القومى اليهودى ، وفيما بعد لعودة جميع اليهود إلى أرض إسرائيل إلى " صهيون " ويستخدم اصطلاح الصهيونية غالبًا بنفس المعنى الذى تستخدم فيه كلمة " العروبة " ؛ لتحديد مفهوم هوية جميع المتحدثين باللغة العربية بصرف النظر عن جنسياتهم (أو انتماءاتهم الدينية) أو كلمة "الزنوج" لتحديد مفهوم هوية الأشخاص الذين ينحدرون من أصول إفريقية .

ومن الضرورى لنا فهم عدم وجود مفاهيم واضحة للصهيونية ، ومن بين هذه المفاهيم اعتبارهم حركة سياسية تطور برنامجًا يطالب جميع اليهود فى العالم بالمشاركة فى إقامة دولة إسرائيل فإن الصهيونية عقيدة خاصة لا تعرف الرحمة، وتتصف بالمادية والكلاسيكية وكانت تتخذ شكل الاشتراكية عند ظهورها فى بداية القرن الحالى (العشرين) ، إنها تعبير عن العقيدة حسب طبيعة اليهود العنصرية ، وطبيعة الديانة اليهودية ، والموقف الخاص الذى يجب اتخاذه حيالهم ولا يظهر هذا المفهوم فى أى موقف أخر أوضح من العلاقة بين اليهود والفلسطينيين ، ومنذ الوقت الذى بدأت فيه التعبيرات المبكرة عن الطموحات الإسرائيلية حتى أخر الإعلانات التى أعلنها قادة إسرائيل الحديثة مثل بيجين وشامير وما تعنيه من عدم وجود فى إسرائيل لسكان فلسطين الأصليين الذين أصبح دورهم الوحيد محصوراً فى قيامهم بأعمال " قطع الأخشاب " وسقاية المياه [٥] للمهاجرين اليهود ، أما النظرة إلى العرب فإنهم يعتبرون العرب نوعًا من " الرجل الأدنى مرتبة Untermensch" وهذا الاصطلاح تتضح لنا طبيعته من خلال استخدام النازيين له بغرض تصنيف السلافيين ، وأحيانًا اليهود أنفسهم ، وعندما كان شامير رئيسًا لوزراء إسرائيل وصف العرب بأنهم "يشبهون الجراد بالنسبة لنا" وهو تعبير يحمل الإحساس بالمشاركة والنية الطيبة من جهة هؤلاء الذين يخفى شعوره نحوهم بوصفه حاكماً يهوديًا ينتمى إلى النخبة الحاكمة ونظرة هذه النخبة إلى الرعية المقهورة ، ولا يمكن تجاهل ذلك حتى بعد الاعتبارات الإيجابية التى أعلنتها الصهيونية منذ أيامها المبكرة حتى يومنا الحاضر ومؤداها أن اليهود يعتبرون أنفسهم فئة ذات مواهب خاصة لها احتياجاتها وحقوقها .

ومن خلال هذا السياق علينا أن نعرف أن الصهيونية تضمر الشر لنفس الأسباب التى جعلت النازية شريرة والماركسية شريرة على الأقل بسبب نظمها السياسية التى تطمح إليها ، لقد أثنت النازية على مصالح الفئة الخاصة وجعلتها فوق الجميع خاصة هؤلاء الذين زعمت أنهم أقل مكانه ، كما أن الماركسية أثنت على مصالح طبقة معينة ، وتستمر الصهيونية فى نفس الأرضية السياسية الموحلة الكئيبة مثل النازية والماركسية فهى تثنى أيضًا على مصالح فئة خاصة وتجعلها فوق الآخرين ، وتحتقر السكان الأصليين للأرض التى استولى عليها أتباعها .

وتمثل الصهيونية مفهوماً دينياً وهى بذلك تختلف كلية عن التعبير السياسى الذى طبقها ، إنها قريبة الصلة بدور المسيا المخلص الموعود فى التراث الأدبى الدينى اليهودى ؛ لأن العقيدة المستقيمة لدى الصهاينة تقول : بأن الاشتياق إلى معرفة صهيون على الأرض لن يتحقق إلا فى آخر الأيام عندما يعود المسيا لقيادة شعب الله إلى بيتهم ، ومنها يتضح لنا أن غالبية أحبار اليهود المتمسكين بالعقيدة المستقيمة يعارضون استمرار الدولة الصهيونية على الأرض رافضين تماماً استمرار إسرائيل بوصفها كياناً سياسياً يعتمد على الجيوش ، والسياسة الخارجية ، واستغلال التدخل فى الشئون الدينية . والأسوأ من ذلك هو ما يترسب فى عقول غالبية اليهود المتمسكين بالعقيدة المستقيمة أن الدولة تستغل ما تختاره لتطلق عليه اسم قانون وذلك عندما تسن القوانين مع إشاعة القول بأن القوانين كلها موضوعة بشكل يعكس التدخل الإلهى حسب تعاليم التوراة بينما هى فى معظمها تقدم صورة مشوهة للتطرف المجنون الذى يعتبر أن المغالاة فى العقيدة المستقيمة لدى الكثيرين منهم هى الأقرب إلى طبيعة الديانة اليهودية أكثر من رجال الدعاية الأوربيين الذين يتخذون لأنفسهم رونقاً كاذباً ، ومقاتلى الموساد الذين يتظاهرون بأنهم أعظم الخدام مثالية فى خدمة الدولة الصهيوينة ، وعلى ذلك فإننا نجد أمامنا صنفين من الصهيونية **الأول** هو الصهيونية السياسية العلمانية ، **والثانى** هو الصهيونية القائمة على التقاليد الدينية وليست هناك صلة بين الاثنين ، ومع ذلك فإن كلاً منهما فى حقيقتها تقتصر على فئة خاصة وتتبادلان المنفعة .

ويعزى نجاح الصهاينة فى تشويه هذه التفرقة إلى مهارتهم السياسية بالنسبة للجميع فيما عدا هؤلاء الذين يعتبرون ذلك شأناً من شئون العقيدة الدينية عميقة الأغوار .

ويظهر للمراقبين أن هناك حاجزاً منيعاً بين الصهيونية السياسية ومعظم التقاليد الدينية الراسخة لدى الشعب اليهودى ، ويتضح لنا من خلال التقاليد القديمة ومن خلال أسفار العهد القديم والدلائل التى قدمها دارسو الآثار القديمة وأثار العصور الوسطى أن فكرة الدولة اليهودية بوصفها كياناً سياسياً مرفوضة تماماً لدى المجتمع اليهودى كله ، حتى عندما كان يرزح تحت حكم الطغاة كان ذلك أفضل ، وحسب هذا

الرأى فإن شعب الله يجب أن يحتمل المعاناة أفضل من التخلى عن تراثه القديم بوصفه الشعب المختار ، ولما كانت هذه التقاليد الأرضية أو البشرية ليست ذات جدوى ، فإن الله وحده هو الذى يقرر الشكل الملائم لليهود من بين أشكال الحكومات ، وهو المحفوظ فى التوراة التى تتضمن الشريعة ، أما تحديد ذلك القانون المعطى من الله داخل حدود دولة من صنع البشر أو القوانين البشرية فإنه يعتبر تجديفًا لا رجوع فيه (٦).

وفى هذا الصدد تعتبر طبيعة تمسك اليهود بأهداب الدين قد اختبأت وراء الغطرسة المفزعة المتمثلة فى التعبير عن العقيدة بطريقة أجوداه – Agudah وهو اسم الحركة التى أنشأها حكماء الجماعات ذات الرأى المستقيم والتى تتبع أكثر تفاسير التوراة تطرفًا ، والتى تقول بأن العالم قد خلق لأجل إسرائيل ، وهذا يعنى أن السبب الجوهرى لخلق العالم هو إقامة حكم التوراة فى أرض إسرائيل (٧) .

وهذا التفسير الذى قد يصدم المراقب غير المنحاز بوصفه عنصريًا ومتعاليًا لا يدل على إقامة دولة إسرائيل بالشكل الذى تمثله اليوم ، ولكن بوصفها مجتمعًا يحكم مستقلاً حسب نصوص التوراة بصرف النظر عن هؤلاء الدارسين الذين يعتقدون أنهم هم وحدهم القادرون على التفسير .

ولكن صهاينة الجزء الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين لم يدركوا أو أنهم كانوا غير مكترثين بأقوال الدارسين للدين ، ونظرًا لأنهم كانوا علمانيين يعيشون فى عالم علمانى ، فقد كان فى مقدورهم إخفاء الطبيعة الحقيقية لليهودية التاريخية حتى بالنسبة للناخبين ، وكانت لديهم القدرة على تقديمهم من خلال النشرات المطبوعة الخاصة بالهوية السياسية كمعارضين مباشرين للسلوك القائم على الخرافات التى ترقد تحت ثقافتهم الموروثة والتى اكتسبوها من اليهود القدماء . أما هؤلاء الذين تمسكوا بالمفهوم القديم الذى يعتبر أرض إسرائيل هى صهيون منذ البداية ، فإنهم هم غالبية دعاة الاستقرار اليهودى فى فلسطين وإقامة الدولة اليهودية ، وبناء على هذه الصيغة التى تجمع بين الاثنين استطاع تيودور هرتزل ، مؤسس الصهيونية السياسية ذو العقلية العلمانية فى نهاية القرن الماضى وأتباعه – إقامة حركة سياسية لتحويل فلسطين إلى الصهيونية ، وقامت إسرائيل نتيجة للضغط

العنيف والمستمر فى بريطانيا والولايات المتحدة وبدرجة أقل فى الدول الأوربية كرد فعل للمشكلة الأوربية الشاذة وأعنى بها اضطهاد اليهود .

ومن سخرية التاريخ أن الحضارة الأوربية التى سمت بروح الإنسان إلى مستويات عليا لم يكن يتخيلها أحد هى ، أيضًا التى اقترفت باسم رسالتها الحضارية وعقيدتها الدينية السائدة الكثير من الأفعال العدوانية والتى تتسم بالقسوة ضد الشعوب الأخرى أكثر من كل الحضارات الأخرى على مدى التاريخ ، إن العزل المتعمد واضطهاد الأقليات ضد هؤلاء الذين يتخذون موقف المعارضة من سياسة المؤسسة الحاكمة أظهرت نفسها مرارًا على أنها سمة مميزة للتاريخ الأوربى على مدى ما يزيد على الألف سنة الماضية مما يعتبر سجلاً محزنًا وكئيبًا . ولاشك فى أن بعض صفحاته السوداء تتمثل فى تلك التى تكشف عن كثرة الحالات التى كان اليهود فيها هدفًا لهذا الانحراف الخاص ، ولابد من القول بأن الصهيونية هى ناتج الاضطهاد الأوربى لليهود .

إن الصهيونية عقيدة سياسية وقد أظهرت سريعًا منذ نشأتها رد الفعل بين اليهود الأوربيين وهؤلاء الذين شجعوهم استجابة لسجل المعاناة التى تعرضوا لها بين أيدى معذبيهم على مدى القرون ، ومع أن الصهيونية السياسية نشأت فى ألمانيا وبالرغم من حقيقة أن الكثيرين من أنصارها الأوائل أتوا من الإمبراطورية الألمانية إلا أنها اجتذبت معظم أتباعها المخلصين من الأراضى الروسية . لقد سمح لليهود بأن يستقروا مؤخراً فى الأراضى التى تحكمها الإدارة القيصرية حيث ساد شكل فتاك من أشكال الحكم المعادى لليهود والذى عبر عن نفسه فى المذابح الموجهة ضد الجماعات اليهودية ، ولذلك كانت حياة اليهود فى غرب ، وجنوب روسيا وفى بولندا ، وليتوانيا حياة يائسة ، وقد اعتاد اليهود الروس أن يكونوا ضمن أكثر التجمعات اليهودية افتقاراً للامتيازات حيث يعيشون الحياة التى يحياها أفقر الفلاحين فى أدنى المستويات ، أو فى أحوال بائسة فى المدن الصغيرة ، وكان لديهم القليل من الامتيازات التى يتمتع بها أقرانهم من اليهود فى الدول الغربية ، ونتيجة لذلك فإنهم حافظوا على حماسهم للتعليم وتحقيق التفوق الشخصى والتقدم الذى كان حتى ذلك الحين يميز الكثيرين من أعضاء التجمعات اليهودية التى ينحدرون منها ، وكانت الإمبراطورية العثمانية أقوى سلطة

فى العالم الإسلامى ترحب باليهود [٨] ، وعندما طردت التجمعات اليهودية من أسبانيا والبرتغال فإن أقوى دولة إسلامية فى العالم قدمت لهم المأوى والأمان . وعندما أحس اليهود بوطأة حمل الحكم المسيحى خلال القرن الثامن عشر تشجعوا وتحركوا إلى الشرق واستقروا فى مدن الإمبراطورية العثمانية .

وقد تدخل السلطان لدى الأمراء الأوربيين فى حالات عديدة تم تسجيلها مطالبًا بالعفو عن اليهود ، كما أقام تجمعات يهودية فى المدن العثمانية وأرسل رسلاً إلى الغرب للسماح بالهجرة اليهودية ليس إلى فلسطين بل إلى المدن المزدهرة والمتمدينة فى الخلافة العثمانية .

ويمثل هذا الاهتمام بحماية اليهود والموقف الذى تمتعت به التجمعات اليهودية فى الأراضى العثمانية اهتمامًا خاصًا كما يثير المرارة بالنسبة للتصريح المزيف الذى اعتادت أن تصوره إسرائيل اليوم بأن يهود الشرق والمسلمين اعتادوا دائمًا على أن يكره كل منهم الآخر ويخشاه ، وأن اليهود كانوا يتعرضون دائمًا للاضطهاد من الحكام المسلمين ، لقد كانت حياة الأقليات فى الأراضى الإسلامية بعيدة عن الرفاهية إلا إذا قورنت بحياتهم فى الأراضى المسيحية ؛ ولكن اليهود أنفسهم اعتبروا أن المعاملة التى تلقوها فى البلاد العثمانية عظيمة فى كافة أرجاء هذه البلاد الواسعة بالنسبة لتلك التى تلقوها فى البلاد المسيحية ، وذلك حسب شهادة الكثير من المصادر اليهودية رفيعة الشأن [٩] فى ذلك الوقت .

وعند نهاية القرن الثامن عشر حدثت هجرات أخرى لليهود من شرق أوربا ، واتخذت طريقها فى البداية نحو الغرب حتى وصلت إلى بريطانيا وأمريكا التى رحبت بهم ، وفى نفس الوقت بدأت جماعة من اليهود المتدينين فى الاتجاه نحو فلسطين ليزيدوا من أعداد التجمع اليهودى الذى عاش هناك منذ أيام الحروب الصليبية وربما قبل ذلك .

وفى أواخر القرن التاسع عشر كان اليهود الذين انتقلوا من شرق أوربا وهاجروا غربًا وشكلوا قاعدة للتجمعات اليهودية فى غرب أوربا قد حققوا ازدهارًا وتأثيرًا ملحوظًا ، ونظرًا لأن الكثيرين منهم كانوا مجتهدين فقد وصلوا إلى مراكز

مرموقة استطاعوا من خلالها التأثير فى السياسة والرأى فى العديد من الدول الأوربية بدرجة تفوق أعدادهم الموجودة فـى المجتمعات التى عـاشـوا فيـهـا ، وقد قبلتهم هـذه المجتمعات بكافة التحفظات التى تتخذها كافة الحكومات نحو قدوم الوافدين الجدد ، ولكنهم مع هذا القبول تزايدت أعدادهم كما تزايدت قوتهم السياسية والمالية على الأقل لدى هؤلاء الذين ظلوا يكنون لهم العداء ، وعندما ظهرت الصهيونية كمذهب سياسى واضح استخلصت عدداً من ردود الأفعال فى أوربا تجلت فى قبول اليهودية بوصفها سلفًا للمسيحية وفى نفس الوقت رفض اليهود بوصفهم غرسًا دخيلاً فى جسم المجتمع الأوربى .

لقد كتب تاريخ الصهيونية بالتفصيل سواء بمعرفة مسانديها أو معارضيها وهو ما يدل على أن الصـهيونية التى أنتجها اليهودى الألمانى العلمانى النشيط تيودور هرتزل كانت تعرف منذ أيامها الأولى بأنها حركة ذات طابع أوربى لا يمكن إغفاله ، وقد تطورت عن المفاهيم القومية التى اندفعت بشدة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وكانت تهدف إلى الحصول على بلد آمن يستطيع اليهود أن يعيشوا فيه بسلام وقد تحرروا من أحمال الكرابيج والقوزاق .

لقد تخيل هرتزل فكرة " الدولة اليهودية Judenstat " [١٠] وعندما اقترح إقامة كيان سياسى منفصل لليهود عارضته بشدة كافة المؤسسات اليهودية فى الدول الأوربية ، فقد رأى قادة اليهودية الأوربية أن إنجازات الاحترام والقبول التى اكتسبوها فى المجتمعات التى اعتبروا أنفسهم جزءاً منها قد ضاعت فى خضم القومية المتقلبة الأطوار والتى لا تبالى بالعواقب التى نظر إليها المتمسكون بالتقاليد من بينهم على أنها تتناقض مع طبيعة التاريخ اليهودى .

وفى ذلك الوقت لم تسلط الصهيونية الأضواء على فلسطين بوصفها الأرض التى بحثت عنها لكى تزرع نفسها فيها وإنما كانت الاقتراحات تدور حول شرق إفريقيا ، ومدغشقر ، وأستراليا كأراض صالحة للاستقرار ؛ ولكن بمجرد عرض فكرة أرض فلسطين قبلها الصهاينة أنفسهم بشغف كأفضل المواقع لتحقيق طموحاتهم ، وأصبحت فلسطين هي التعبير المجازى عن مفهوم الهوية القومية التى تبناها الصهاينة ، وفيما

بعد لقيت هذه الفكرة المساندة من السياسيين الأوربيين من أمثال تشرشل الذى اكتشف ميزة في مناصرة هذه القضية . وفي الحقيقة نقول إنصافًا لتشرشل أن مناصرة الصهيونية كانت واحدة من السياسات القليلة التى أصر عليها بشدة خلال عمله السياسى المستهتر غير المألوف والذى كرسه لمتابعة الاتجاه الذى بدا له أن رياح السياسة تهب منه على أمل أن يقوده إلى الحكم والنفوذ السياسى اللذين زاغا منه خلال معظم أيام حياته ، ولكنه كان مثاليًا فى مراعاته لتطور المصالح الصهيونية سواء فيما يتعلق بعصره أو معاصريه ، وبدأت الصهيونية بالتدريج فى شق طرق لها فى السياسة الغربية وزيادة عدد أتباعها فى البلدان الغربية بشكل ملحوظ لقد أديرت حملة إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين داخل صالونات كبار السياسيين ومكاتب الوزراء الذين اقتنعوا بمساندة القضية ومكاتب رجال البنوك ورجال الأعمال الذين يرسمون سياسات واقتصاديات الغرب ، وعند هذه النقطة تقرر أخذ رأى الفلسطينيين ، وقد كانوا فى المجال الأول رعايا للإمبراطورية العثمانية التى لم تكن تهتم كثيراً باستطلاع رأى رعاياها . وفيما بعد أى عقب انتهاء الحرب العظمى أصبح هؤلاء الفلسطينيون خاضعين للإمبراطورية البريطانية التى منحت حق الانتداب بمعرفة الدول العظمى فى مؤتمر السلام الذى عقد سنة ١٩١٩ ، وبالطبع فإن بعض وجهاء الفلسطينيين أحسوا بالفزع إزاء الزيادة الملحوظة فى الهجرة اليهودية فاحتجوا بشدة ولكن أحداً لم يستمع لشكاياتهم ، ولم يكن من السهل الحيلولة دون وقوع الصدام بين الطرفين ، وحاول الإنجليز تهدئة كلا الجانبين ولكنهم لم ينجحوا فى إرضاء أى من الطرفين .

وقبل إسناد الانتداب إلى بريطانيا حدثت حلقة أصبحت أساسية فى إنشاء الدولة اليهودية ونقصد بها وعد بلفور الذى يقف على قمة قائمة الإجراءات السياسية التى بقى أثرها فترة طويلة بعد الموقف الذى صدر الوعد لمواجهته ، لقد صدر فى شكل خطاب أرسل من وزير خارجية بريطانيا فى ذلك الحين أرثر بلفور إلى لورد روتشيلد المؤيد المتحمس للقضية الصهيونية ، وبالرغم من وروده فى مناسبات لا تحصى إلا أنه كان لابد من ذكره هنا بوصفه أداة أساسية فى اللعبة التى نتج عنها تأسيس إسرائيل .

ويقول الوعد بالنص : " إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، على أن يُفهم جليًا أنه لن يؤتي بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين ، ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى" (١١) .

لقد ترك مثل هذا البيان الودود انعكاسًا لأثر الفساد السياسى على مسيرتهم فقد جرى كتمان ما تقصده الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت الذى يشهد منعطفًا خطيرًا فى الحرب مع قوات المحور ، وذلك بهدف تحريك المساندة اليهودية فى بريطانيا وعلى الاكثر فى أمريكا التى كانت تميل للعطف على ألمانيا وحلفائها نحو مساندة قضية الحلفاء(١٢) ، ولم يكن الحافز على وجه الخصوص مثاليًا ولا رفيع المستوى ، ولكنه كان مثالاً للنتائج المشئومة التى ترتبت على الذريعة قصيرة المدى التى يوافق عليها السياسيون سريعًا فى كافة الأوقات ، وقد قام السياسيون الصهاينة والإسرائيليون بتوظيفها بقسوة لتبرير ما ينطوى عليه مستقبل بقاء إسرائيل كدولة يهودية ذات سيادة . أما عن عدم احتواء الوعد على شيء يسمح بتفسيره لصالح إقامة دولة ذات سيادة فقد كان المقصود به إقامة دولة طائفية بالذات وهذا هو ما كان يرمى إليه هؤلاء الذين صاغوه أو ذاك الذى وقع عليه ، ويقف وعد بلفور مع التصويت الذى أجرته الجمعية العامة للأمم المتحدة - الذى قيل أنه أضفى الشرعية على إسرائيل بوصفهما الأساسين اللذين ارتفعت فوقهما المكانة السياسية لإسرائيل ، ومن الأمور المضحكة التى تتعلق بالموقف الذى يحيط بإنشاء دولة إسرائيل حقيقة أن أرثر بلفور الذى كان يتحمل من حين لآخر مسئولية المساهمة البطولية فى العملية الصهيونية لصنع الأساطير كان جادًا فى عداوته لليهودية ، وقد أوضح كراهيته لليهود واليهودية فى حديث له مع حاييم وايزمان الذى أصبح أول رئيس لإسرائيل ، وقد ذكر بلفور أمام وايزمان هذا الحديث السريالى الخاص الذى أدلى به إلى كوزيما واجنر فى بيروت القلعة المعادية لليهودية .

بالرغم من تعبيرات الأمل المتعلقة بمعاملة الطوائف غير اليهودية التى ورد ذكرها فى وعد بلفور إلا أنه من الواضح أن الصهاينة الأوائل لم يهتموا كثيرًا بعرب فلسطين

المسلمين والمسيحيين تماماً مثل اليهود الشرقيين الذى عاشوا فى الشرق الأوسط منذ العصور القديمة ، وإذا لقى العرب بعض الاعتبار فذلك لأنهم من وجهة نظر إسرائيل يمثلون قوة عمل مناسبة ورخيصة وينتظرون بفارغ الصبر حضور المستوطنين الصهاينة ، وجرى التأكيد على أنه ما دام العرب قد رأوا أن الوجود اليهودى فى أراضيهم سيبقى دائماً وأنهم رأوا التكنولوجيا المتفوقة التى سيجلبها المهاجرون فمن المتوقع زوال أية معارضة من جانبهم ، ونلاحظ أن هذه الفكرة البعيدة عن الحقيقة اقتنع بها اليهود وغير اليهود على حد سواء ، والواضح أنه منذ البداية لم يكن للعرب مكان فى الرؤية الصهيونية للدولة اليهودية ولن يكون ، هذا إذا نظرنا إلى الوضع بإيجابية ، كان الصهاينة يعرفون منذ البداية أنهم سيعتبرون متطفلين دخلاء وعليهم تبرير وجودهم المستمر فى البلد بالإكراه وليس بالإقناع .

وقد تسبب حضور مقدمات مجموعات كبيرة من الأجانب الدخلاء أى المهاجرين اليهود الأوربيين فى اختلال التوازن بين الطوائف المختلفة التى عاشت معاً لقرون عديدة ، وكان عدم التوازن الذى أحدثه العدد المتزايد من المهاجرين إلى فلسطين قبل سنة ١٩٤٨ قد تكرر مئات المرات بظهور إسرائيل كعامل سياسى فى الشرق الأوسط منذ لحظة قيامها سنة ١٩٤٨ حتى يومنا الحاضر .

وهناك وثيقة أخرى ضرورية يمكن الرجوع إليها لفهم أصول وطبيعة دولة إسرائيل ولكن فقراتها أقل استخداماً ونعنى بها صك الانتداب الذى تعينت بريطانيا بموجبه لحكم فلسطين ، وهى تستحق الاهتمام لأنها حسب السياق المستخدم فى وقتها وانعدام الثقة والكراهية اللذين قوبلت بهما من غالبية اليهود تعتبر غريبة تماماً وعندما نتلوها اليوم نشعر بأنها قد أمليت لخدمة المصالح اليهودية فقط ، ولا يمكن إغفال فحواها لأنها تسلم بالطبيعة اليهودية لفلسطين وكذلك الرابطة التاريخية المزيفة تماماً التى تربط بين فلسطين ويهود أوربا ، أن بنود الانتداب تشير إلى حتمية التفوق اليهودى الذى لقى الترحيب فى فلسطين بمعرفة الدول ، وقد عرف العرب خطورته ولكنهم كانوا أضعف من أن يؤثروا فى مسار الأحداث .

إن صك الانتداب (انظر : الملحق الأول حيث تجد النص الكامل لهذه الوثيقة ذات الأهمية) يكرر التعبير الذى صيغ به وعد بلفور بحيث يبدو صالحاً بينما هو فى حقيقته

عديم القيمة ، لأن بعض أجزائه تنضوى تحت عباءة وعد بلفور وتطالب بحق الطوائف غير اليهودية فى فلسطين بأن تلقى الاحترام ثم تتحدث عن إعادة بناء الوطن القومى لليهود فى ذلك القطر ، ومن الواضح أن ذلك يمهد لإنشاء كيان سياسى يهودى عن طريق التماس الأسبقية التاريخية المعقولة ظاهرياً بينما هى فى حقيقتها باطلة ونعنى بها إنشاء هوية سياسية يهودية ، لقد تضمن صك الانتداب ضمن أغراضه الرئاسية توفير الظروف السياسية والإدارية والاقتصادية فى فلسطين بحيث تؤمن إنشاء الوطن القومى لليهود، ومن الأمور الغريبة أيضًا إنشاء الوكالة اليهودية باعتبارها الأداة الصحيحة لإسداء النصح لإدارة فلسطين والتعاون معها، وقد أصبحت هذه الوكالة هى المنظمة الصهيونية بالرغم من أنها عند إعلان الانتداب فى سنة ١٩٢٢ كانت تمثل قسمًا ضئيلاً من رأى اليهودية العالمية ، وتضمنت بنود الانتداب تسهيل الهجرة اليهودية ووضع قانون للجنسية ، وربما كانت أغرب بنود الانتداب هى تلك التى صيغت لتسهيل اكتساب اليهود لحقوق المواطنة الفلسطينية ، وتدعو إلى مساعدة المنظمة اليهودية فى تطوير الأرض والخدمات ، ومما يثير العجب أن الكثيرين من العرب بمن فيهم الفلسطينيون قد رأوا فى الانتداب دليلاً على تبنى سياسة طويلة المدى لإصلاح بلدهم (١٣).

ومن ذلك الوقت فصاعداً اتضح لكل مراقب حصيف أن مستقبل الفلسطينيين قد ضاع . إن بنود الانتداب مطولة ولكن هناك شكًا فى أن تكون الحكومة البريطانية قد توقعت دلائل المستقبل حول قيام دولة اتحادية أو ما يشابه ذلك وأصبح تحديد مستقبل فلسطين بين يدى الوطن القومى لليهود ، وبذلك تكرر الالتباس الذى تضمنه وعد بلفور فى أهم بنوده ، وكانت فكرة المشاركة فى الأراضى الموعودة مرفوضة تمامًا بالنسبة للصهاينة فإن سياستهم تهدف بكل بساطة إلى امتلاكها كلها .

وقد تدهور الموقف فى فلسطين بشكل ملحوظ خلال سنوات ما بين الحربين ، ولم تلتفت الدول الأوربية أو أمريكا كثيراً إلى التقارير الخاصة باضطهاد اليهود على يد النازى فى ألمانيا ، وكذلك استدار اليهود أنفسهم نحو فكرة اعتبار فلسطين هى الملجأ فى مواجهة هذه الحقيقة المرعبة ، لقد تهرب البريطانيون كما غضب الفلسطينيون

ولكن كل ذلك كشف عن عجز شديد فلم يخرج أحد من هذه السنوات وقد نال ضماناً أو حقق ما كان يصبو إليه من أهداف .

ولكن السنوات التى سبقت الحرب مباشرة كانت مهمة فى تاريخ الحركة الصهيونية لأنه بالرغم من تحكم السلطات البريطانية فى الهجرة ، فقد تحرك الآلاف من اليهود الأوربيين إلى فلسطين ، وكان الكثيرون منهم اشتراكيين فى توجههم السياسى وهو الاتجاه الذى تكونت به سياسة السنوات الأولى من الدولة الإسرائيلية ، وقام هؤلاء بإنشاء حركة الكيبوتزات ، والزراعة المجمعة ، وبعض المشروعات الصناعية التى نمت على نطاق ضيق حول الكيبوتزات .

وتمت دراسة الدور الذى لعبته المنظمات الصهيونية المختلفة أثناء ظهور النازية فى ألمانيا وتوابعها فى البلاد الأوربية الأخرى ولكن لم يصلنا عنه الكثير [١٤] ولا شك فى أن سبب ذلك أنه يشين المؤسسة الصهيونية التى كانت تستعد للتفاهم مع النازيين المكروهين المرعبين ، وكانت المنظمات الصهيونية تتفاوض مع النازيين حول نقطة واحدة هى تطوير عمليات تصدير المنتجات الألمانية لتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين ، ومن جهة أخرى حاول الصهاينة إنكار الجهود التى يبذلها اليهود المعارضون للنازية لمقاطعة السفر الذى رأوا أنه يضر بمفاوضاتهم مع السلطات النازية ، وظلت عملية التفاوض مع العدو القاتل تتكرر على مدى تاريخ النازية وإسرائيل حتى يومنا الحاضر ، عندما ظهر الخلاف حول تمثيلية تتعلق بجهود القائد اليهودى المجرى ريزو كازار لتمكين فريق من اليهود - بينهم أعضاء من أسرته - من الهرب مقابل دفع أموال للسلطات النازية ، أو الدور الذى لعبته إسرائيل ضد المصالح الإيرانية [١٥] .

وعلى مدى الفترة التى سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية لعبت الجماعات اليهودية لعبة ملتوية ومعقدة كان لها صدى عميق لمدة طويلة خلال السنوات التالية ، عندما قامت إسرائيل كدولة مستقلة كانت هناك أصوات انتخابية لا يستهان بها بين يهود شرق أوربا الذين انجذبوا نحو الفاشية فى تنظيم حزبى لتطوير التفكير العنصرى والأيديولوجية العنصرية **Volkisch** وكان ذلك واضحاً فى بولندا ، وكان من بين أبرز قادة التأثيرات المهمة التى انبثقت من الصهيونية البولندية فلاديمير زيبف

زابوتنسكى منحوس الطالع الذى كان على صلة بجماعة المراجعة Revisionism وهى شكل غير محدود من أشكال الصهيونية كان يعبر بلا خجل عن الأفكار القومية والعنصرية (١٦) ، وقد اتفق زابوتنسكى مع بليورا السياسى الفاشستى المتحمس الذى أيد قبول فلسطين كمستودع للزبالة يلقى فيه باليهود الأوربيين كحل لمسألة يهود أوربا ، وفيما بعد أصبح زابوتنسكى قائداً لحركة بيتاى Bitai movement وهى جماعة اتخذت من القمصان النازية ذات اللون البنى زيًا لها ، وقد تخرج مناحم بيجين خليفة زابوتنسكى الروحى والسياسى من هذه الجماعة المختلطة الرديئة وأنشأ حزب حيروت أحد أجنحة جماعة الليكود الحديثة الموجودة فى إسرائيل اليوم ، وكانت بيتاى ومازالت فى شكلها الحالى هى الأثر الباقى للجماعة الرئيسية التى اندمجت فى التيار الأساسى للسياسة الإسرائيلية حيث تقوم بدور فاشستى صريح .

وهكذا كانت آليات الجماعات الصهيونية شديدة الشذوذ والتعقيد قبل الحرب كما كانت شديدة الرغبة فى الاستحواذ على فلسطين بكافة الوسائل الممكنة ، ويبدو أن هذا السبب أحياناً هو الدافع للتخلى عن قادتهم الذين نجدهم يتلقون التمنيات الطيبة من هيدريك وهو القديس الذى أصبح حامى الأراضى التشيكية (تصحبكم تمنياتنا الطيبة مع حسن نوايانا) ، وهذه هى الدعوة التى كانت تصحب المهاجرين إلى فلسطين ، (١٧) ويقال إن إيخمان زار فلسطين وهى قصة باردة وغير طبيعية تقول إنه زار فلسطين بتشجيع جماعة الهاجاناه الإرهابية التى أمدت قيادتها الجيش الإسرائيلى وقوات الأمن بالمقاتلين (١٨) . وقد تضمنت مهمة إيخمان زيارة لإحدى الكيبوتزات وقد تأثر كثيراً بتلك الزيارة ، وقد اتصل أثناء وجوده فى فلسطين بالصهيونى الشرس بولك الذى عرض خدمات الهاجاناه فى وقت من الأوقات لأداء خدمة الاستخبارات حول أنشطة القادة المسلمين وتقديمها إلى النازى ، ومن الصعب تقديم تعليق واضح حول هذا الموضوع المشئوم وهل هو دليل على الجنون أو الانغماس فى النشاط السياسى ، وعلى كل حال ، فإن هذه الحكايات تعتبر هى بذور استعداد إسرائيل للاتفاق مع أعدائها السافرين أو أعداء أصدقائها بالالتجاء إلى هذا السلوك ما دامت ترى أنه يخدم أهدافها أو سياساتها .

وبعد هجرة اليهود من أوربا حدثت تطورات منحوسة للفلسطينيين ونعنى بها الممارسات التي صاحبت حصول المستوطنين اليهود على الأراضي والتى حدثت بواسطة الوكالة اليهودية ، وقد اعتبر هذا العمل مشبوهًا وغير قانونى (١٩) ، لقد استولى الأفراد اليهود والمؤسسات الخيرية اليهودية على مناطق واسعة من أصحاب الأراضى المسيحيين الغائبين منذ أوائل القرن الحالي ، وبالرغم من أن الكثيرين من الفلاحين العرب قد عاشوا على هذه الأرض منذ أزمان بعيدة إلا أن سجلات الأراضى كانت قليلة ، وعلى كل حال ، فإن ذلك يعتبر ميزة عظيمة لبرنامج الدولة الإسرائيلية لحيازة الأرض عن طريق الشراء الإجبارى للأراضى ذات الوضع القانونى الغامض لأن الدولة كانت تستطيع أن تنازع العرب حقهم القانوني فى الأراضى التى يعيشون عليها ، وقد جاءت عملية نزع ملكية الأراضى العربية فى أعقاب مسار النمو الإسرائيلى فى إسرائيل نفسها وفيما بعد وصلت إلى الأراضى المحتلة وقد تم وضع أسس هذه السياسة خلال فترة ما قبل الحرب .

وشهدت الحرب العالمية الثانية شدة الاضطهاد النازى لليهود ، وبصرف النظر عما كان يحدث فى ألمانيا نفسها منذ عشرات السنين التى حفلت بالأدلة المرعبة على كراهية الطوائف اليهودية التى زرعت فى غرب أوربا وكشفت عن نفسها فى تلك البلدان التى سقطت تحت الهيمنة الألمانية فى شكل اضطهادات لليهود فى البلدان التى ظهرت فى صورة متسامحة ، ولكن الحماس الأوربى لاضطهاد الأقليات كان لا يزال نشيطًا فى فرنسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، ويوغسلافيا ، والنمسا ، والمجر ، ورومانيا حتى إنه لاح فى بعض الحالات ما يوحى بأن خدام النازى فى هذه البلدان كانوا يدفعون سادتهم بالقوة لتقليص أعداد اليهود فى التجمعات اليهودية وحتى وقت الحرب كان من الواضح الدور الذى قام به بعض قادة الصهيونية فى ذلك الوقت ضمن ما تم كشفه من تعاملات مع قادة النازى، وإن الدور الذى قامت به جماعة ليفى التى أصبحت تعرف باسم "عصابة شتيرن " كان دوراً ذميمًا . ولكن لابد من القول بأنه لم يكن الدور الأول ولا الأخير فى تاريخ الجناح اليمينى للصهيونية.(٢٠) ومن الواضح أن هناك قدراً كبيراً من العمل كان مقرراً القيام به من قبل السلطات النازية وقادة اليهود للسماح بتهجير مليون

يهودى إلى أمريكا ، وقد وافقت الولايات المتحدة ولكن القيادة الصهيونية عارضت الفكرة بشدة، وأصرت على عدم القيام بأى عمل يحول دون الهجرة إلى فلسطين ، وأعلنت أن الموافقة على عرض الهجرة إلى أمريكا ستهدم فكرة اعتبار فلسطين هى الوطن القومى الصحيح لليهود ، ولابد من تأمينه ضد أى تهديد بالخطر ، كما طلبوا ألا تقوم الحكومة البريطانية صاحبة الانتداب بالموافقة على مثل هذا العرض ، وعلى ذلك فقد أرسل مليون يهودى إلى غرف الغاز والمشانق لإرضاء أوامر هؤلاء الذين ادعوا أنهم المنقذون ، وهذا هو الانجاز البارز الذى قامت به الوكالة اليهودية التى تعتبر هى الكيان الصهيونى الذى أصبح فى ملء الزمان نواة لحكومة الدولة اليهودية (٢١) .

وأثناء الحرب لم تترك القيادة الصهيونية التى كانت حينذاك جيدة التنظيم والتمويل وعلى دراية تامة بالشئون السياسية – فرصة تمر دون تطوير قضيتها مع الضغط على ترجمة تصريحات وعد بلفور الغامضة إلى اعتراف شامل بالدولة اليهودية القومية فى فلسطين ، وقد خدعوا تشرشل – بالرغم من التزامه الواضح بقضيتهم كما أن قادة الحلفاء الآخرين لم يتوقفوا عن الاهتمام بأية مصالح إلا مصالح اليهود وتجاهلوا أى إجراء لا يسهم من وجهة نظرهم المباشرة فى تحويل فلسطين إلى الصهيونية وهو الأمر الذى له الأولوية بالنسبة لأى قضية أخرى ، أما ضغوطهم على الإدارة الأمريكية التى كانت تحت رئاسة روزفلت معادية للقيادة البريطانية فكان لابد من تحييدها فى الصراع مع دول المحور واعتبرت ذلك شأنًا أوربيًا خالصًا وكان ذلك أحد المواقف الحاسمة فى جذب هذا الحليف المتردد نحو جانب بريطانيا وحفنة الدول الأخرى التى وقفت ضد ألمانيا وحلفائها ، وكان الباعث واضحًا وهو أن انتصار الحلفاء كان ضروريًا لتحقيق خطط الصهاينة .

وبعد انتهاء الحرب وجدت بريطانيا المنهكة والمفلسة (الحالة الأخيرة نشأت نتيجة طمع وشَكِّ حليفها الأمريكى) نفسها مازالت صاحبة الانتداب على فلسطين التى تشعر بالأسى) ، وجدد الصهاينة حملتهم مستخدمين العنف بقسوة ، وللمرة الأولى تعرَّف العالم الجديد إلى الاستخدام المتعمد لأساليب الإرهاب الموجه ضد السكان المدنيين الأبرياء تحت سيطرة إسرائيل ، وعلى كل حال ، فقد هرب الإنجليز مرة أخرى وأظهروا

التردد الواضح فى سياسات وزير الخارجية أرنست بيفن فى استخدام القوة الكاملة وغير المحدودة فى مواجهة الرعب الصهيونى (٢٢) ، وتحول الرعب إلى حملة مخيفة بإلقاء القنابل والتشويه المتعمد الموجه خصيصاً نحو أضعف الأهداف وبالذات تجمعات المدنيين. أما تلك الحملة المزودة بالوثائق فقد انطلقت فى المدن والقرى الفلسطينية على يد أفراد مثل مناحم بيجين وإسحاق شامير ، وقد صار كل منهما رئيساً لوزراء إسرائيل بعد إعلان قيام الدولة وأصبح كل منهما مقياساً لمدى الانهيار الذى عانت منه القيم والمثل العليا اليهودية نتيجة لقيام إسرائيل (٢٣) .

لقد لجأت قيادة العصابات الصهيونية إلى أسلوب استخدام الإرهاب ضد الأهداف المدنية بشكل متعنت ولا يعرف الرحمة ، وفى ضوء رفض جميع الناس المحترمين لمثل هذه الممارسات ؛ حاول قادة هذه العصابات تبرير حملاتهم بأنها موجهة أساساً ضد القوات الاستعمارية المحتلة ، ولكن هذه الحجة المعقولة ظاهرياً كانت فى الحقيقة باطلة لأن الضحايا كان يتم اختيارهم بعناية فائقة من بين المدنيين المسالمين ، وكانت هذه سياسة محسوبة حيث عملت القيادة الصهيونية من خلال إشاعة الفزع بين السكان المدنيين على تحقيق أهداف محدودة عديدة ، هى إزعاج القوات المحتلة التى افتقرت إلى الرغبة فى الثأر بهذا الأسلوب ، وإرهاب السكان العرب فى المناطق التى يطمع فيها المستوطنون الذين من المتوقع هجرتهم إلى فلسطين ، وإخضاع أية جماعة يهودية تحاول اقتراح القيام بالحوار مع السكان العرب على أسس إنسانية أو سياسية أو تلتزم بسياسة أقل من السيادة اليهودية المطلقة ، وبعد عدة سنوات عرف المدنيون اللبنانيون هذه السياسة بعد الغزو الإسرائيلى لأراضيهم .

وقد صبت حملة الفزع التى نفذتها المنظمات اليهودية ، مثل عصابة شتيرن وعصابة إرجون ، جام غضبها فى فلسطين وأضعفت المؤسسات المدنية والعسكرية مما جعل بريطانيا تستسلم وتتخلى عن الانتداب بإعادته إلى الأمم المتحدة مرة أخرى ، وفى النهاية حدث الانسحاب البريطانى المشين . وإذا عدنا إلى شرائط الأنباء السينمائية فى تلك الفترة فسنجد أن المخلوقات الوحيدة التى شعرت بالأسف لرحيلهم تمثلت فى بعض الكلاب الحزينة والمحرومة التى يمكن مشاهدتها وهى تراقب رحيل سفن نقل الجنود بينما تقف على رصيف الميناء وهى تشاهد من كانوا أصدقاءها يوماً ما وهم يهرولون فى اتجاه الغرب مع غروب الشمس .

الهوامش

(1) For a useful recent summary of the extensive scholarship on the Arabs and their origins see William Facey, *Riyadh the Old City* , Immel Publishing, London, 1991 especially chapters 2 and 3 and the notes thereto

(2) S. N Kramer, *The Sumerians*, University of Chicago Press, 1963 Also Harriet Crawford, *Sumer and the Sumerians*, Cambridge, 1991

(3) Paul Johnson, *A History of the Jews* , Weidenfeld &Nicolson, 1987

(4) George Roux, *Ancient Iraq*, George Alien &Unwin, 1964 .

(5) Holman Hunt, via Herzl, in Johnson, op cit

(6) This view is deeply entrenched amongst the orthodox: see the pronouncements of the religious –parties in successive election campaigns and, in particular, the statements of Neturei Karta) Guardians of the Holy City)

(7) Emile Marmorstein, *Heaven at Bay: The Jewish Kulturkampf in the Holy Land, Oxford*, 1969

(8) Stanford J Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, vol 1 , Empire of the Gazis, Cambridge/ 1976

(9) Bernard Lewis/ *The Jews of Islam*, Routledge & Kegan Paul, 1948

(10) T. Herzl, *Der Judenstaat: Versuch einer modernen Loering der juedischen Frage*, Vienna, 1896

(11) Letter from A J Balfour to Lord Rothschild/ the –Foreign-Officer November 1917

(12) See Alan R. Taylor, *Prelude to Israel: An Analysis of Zionist Diplomacy 1896 - 1947*, Darton, Longman &Todd, 1959

(13) In Meyer Weisgal (ed) *The letters and Papers of Chaim Weizmann*, New Brunswick NJ and Jerusalem, Transaction Books and Israel Universities Press 1985

(14) Lenni Brenner, *Zionism in the Age of the Dictators: A Reappra aisal, Laurence Hill* 1983

(15) For the Kastner case see Brenner, op cit, for the Israeli involvement in the Iran-Contra affair see, *inter alia*, Benjamin Beit-Hallahmi/ *The Israeli Connection: Whom Israel Arms and Wh y* , I B Tauris/ 1987 .

(16) Brenner, op. dt

(17) Ibid.

(18) Ibid.

(19) Walter Lehn with Uri Davis, *The Jewish National Fund*, Kegan Paul International, 1988

(20) Brenner, op cit.

(21) Ibid

(22) Taylor/ op cit

(23) David Hirst, The *Gun and the Olive Branch: The Roots of Violence in the Middle East*, Faber and Faber/ 1977

الفصل الخامس

الدعاية ، والتاريخ ، وقوة ، الأسطورة

إن لغة الدعاية والمجادلات العنيفة لها قواعدها ، لقد أصبحت لغة الحديث الجديدة التى تنسب إلى أرويل حقيقة عادية لأن كافة الكلمات التى استخدمت فى فترة ما بعد الحرب قد استخدمها السياسيون لكي تعنى عكس معناها الحرفى تماماً فأصبحت كلمة (الديمقراطية) تعنى الطغيان ، و(الحرية) تعنى الاستعباد ، و(حرية الاختيار) تعنى فقدان الشخص لكافة حقوقه ، ويعتبر تاريخ إسرائيل مثالاً ضمن أمثلة أخرى عديدة للدلالة على تحوير اللغة بحيث تعطى الكلمات معنى آخر حسب ما يختاره مستخدمها من معان مخالفة ، ويتضح لنا مدى التحيز الخطير الذى جعل العديد من المصطلحات اللغوية المستخدمة بشكل معتاد فى مجادلات إسرائيل والفلسطينيين تصبح مختلفة فى الدلالة ، فإذا وضعت البادئة anti بجوار المصطلح ، فسرعان ما تُخْرِج لنا عدداً مختلفاً من القيم . وعلى ذلك فإن كلمة anti-jew أو كلمة anti-jewish تعنى النفور من أو رفض الثقافة اليهودية ، وربما أيضا المعتقدات الدينية التى يدين بها المجتمع اليهودى ، وربما توحى أيضًا بكراهية اليهود بوصفهم فئة اجتماعية متميزة أو كأفراد وبذلك يكون هناك شعب يمكن أن نصفه (بالفعل يوجد أو بلا شك) مما يمكن تطبيقه على جماعات أخرى ، فنقول : معاد للكاثوليكية ، أو معاد للبروتستانتية ، أو معاد للمذهب الميثودستى الفطرى، ومن المؤكد وجود فئات من الناس الذين يعتبرون معادين للمسلمين أو معادين للعرب .

ومن المؤكد عدم قبول تعريف اصطلاح (يهودى) بأنه يعنى إسرائيل كما قال الكثيرون من أنصار الدولة اليهودية . إن القول بإن هذا الشخص معاد لإسرائيل

لا يمكن أن يوحى لأى خيال محموم بأنه يعنى نفس الحالة التى يعنيها اصطلاح (معاد لليهود) مهما عمل رجالُ الدعاية الإسرائيليون لإكسابه هذا المعنى . وبالطبع فإن الاستخدام الشائع الذى ينطبق على كافة أساليب تغيير معانى المصطلحات اللغوية يجب وضعه فى الاعتبار، ولكن الحقيقة هى أن اصطلاح (معاد للسامية anti semite) بالرغم من اعتباره لغوًا غير مفهوم ، إلا أنه خالٍ من أى معنى ويمكن إطلاقه على بعض المعلقين السومريين الذين كانوا يعيشون فى جنوب العراق فى الألف الثالثة ق.م ، الذين كانوا يكرهون سكان الصحراء الذين يتحدثون اللغة السامية فقد اعتبروهم فى مرتبة (الذين لا يعرفون الحبوب) ، وإذا نظرنا إلى العصور الأقدم نجد أن أحد الانتصارات التى أحرزتها الدعاية الإسرائيلية أنها جعلت اصطلاح (معاد للصهيونية) معادلاً لاصطلاح "معاد للسامية" ، وهذا الاصطلاح الثانى أصبح يعنى (معاد لليهود) وتصبح معارضة الدولة الإسرائيلية أو سياسات وإجراءات الحكومة الإسرائيلية (معاداة للسامية) ، وأصبحت هذه الوسيلة تمثل إحدى آليات الاستجابة الكلاسكية لجهود كافة رجال الدعاية الإسرائيليين ، ولذلك فإن سفير إسرائيل السابق فى لندن تحدث عن انتقاد سياسات حكومته حول غزو إسرائيل للقطر اللبنانى الذى عاصره عندما وصل لكى يتقلد منصبه (١) فقال : "إن بعض الجرائد متهمة بالمبالغة الشديدة فى عرض الخسائر المدنية حتى أن بعض كتابها تحدثوا معى أنا اليهودى عن "إبادة قوم من البشر" وأنا اعتبر ذلك شيئًا فظيعًا ، وأخشى أن يكون ذلك "معاداة للسامية"، وأتذكر أن هذه الملحوظة قد وردت فى سياق الحديث عن السياسات الإسرائيلية فى لبنان التى تشمل بعض الفئات مثل الموارنة الذين اختلطوا بالفلسطينيين فى مخيمات صابرا وشاتيلا وهى قصة يجب تدوينها فى يوميات البشاعة المعاصرة .

إن المواقف الهزلية التى تعبر عنها الكلمات تمثل ضريبة مقابل المثابرة والمهارة التى يبديها رجال الدعاية الإسرائيليون ، أما القول بإن جميع الفلسطينيين إرهابيون ، فهو قول لا يفرق بين قذفهم بالقنابل عشوائيًا من قبل القوات الإسرائيلية أو من قبل غيرها ، ولا يهم إذا كان الناتج هو تدمير المستشفيات المدنية ، والمدارس ، وقتل الذين بداخلها ، ويعتبر الإسرائيلى الذى يرتكب جرائم القتل ضد العرب مخبولاً أما العربى الذى يهاجم أهدافًا إسرائيلية فهو إرهابى وقاتل .

والشيء الذى يثير الأسى فى كل ذلك ليس هو الخراب الذى ارتكب فى حق اللغة التى ولدت قدراً عظيماً من السباب وتشويه الحقائق فى وقتها والتى ستعانى الكثير قبل فناء الجنس البشرى ، ولكن حقيقة أن الكثير من الجرائد الغربية المحترمة قد قبلت المفردات الإسرائيلية فإنها بذلك تعطى كافة الناس المحترمين سبباً للحزن .

ومن السذاجة القول بأن الفلسطينيين قد رتبوا أنفسهم دائمًا على التصرف باعتدال ، مع الاهتمام بمشاعر الآخرين أو الإحساس الدائم بأهمية الحقيقة . ولكن التحريض على العنف الذى أصبح صفة مميزة لمواقف الأحزاب من الصراع لم يكن دائمًا من صنعهم ، إن موت الأطفال وتدمير المنازل العائلية للكبار والحجز على الممتلكات وكافة الأخطاء التى لا تحصى التى عانوا منها لابد وأن تدفع السكان الودعاء إلى الثورة ، ومع ذلك فقد كان الفلسطينيون يتعرضون للسباب ، ويعاملون كأهداف للكراهية والاحتقار ، مثلما كان يحدث بالنسبة لهؤلاء الذين يضطهدونهم خلال سنوات الشر قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية .

إن النجاح الذى استطاعت به السلطة السياسية الإسرائيلية وصم الفلسطينى بالإرهاب يعتبر واحداً من أقسى الانحرافات التى حفلت بها هذه القصة المؤسفة ، وربما كان من الضرورى القول بأن العديد من الأشخاص فى المستويات الأعلى من المؤسسة الإسرائيلية قد تأهلوا جيداً للتعرف على الإرهابى عند رؤيته إلا أن هذا الاصطلاح عنيف وغير عادل فى حالة الفلسطينيين ، لأنهم أناس جردوا من ممتلكاتهم وتجاهلتهم الدولة التى استولت على أراضيهم كما تجاهلتهم بقية الدول خلال كافة مراحل حياتهم، لقد كانوا منذ فترة قصيرة أناساً بسطاء يعيشون حياة هادئة فى مدن وقرى أجدادهم التى طردوا منها على يد الغزاة القساة ، ونتج عن ذلك نشأة أجيال كاملة من الأطفال الفلسطينيين الذين بلغوا سن الرشد وهم يعانون الخوف من العدو داخل مخيمات اللاجئين حيث تربوا على الكراهية ، ومع ذلك فإن الإسرائيليين يخطئون عندما يتحدثون عنهم بوصفهم إرهابيين مع أنه لم يكن أمامهم فرصة للاختيار ولكنهم يحاولون استرداد أرضهم بالوسيلة الوحيدة التى يفهمها أعداؤهم .

ومهما كانت ألاعيب إسرائيل والدعاية الصهيونية منذ إنشاء الدولة الإسرائيلية ، فقد كان من المناسب للدول الغربية النظر إلى إسرائيل بوصفها حليفهم الوحيد فى

الشرق الأوسط واعتقدوا أنهم يستطيعون الاعتماد عليها على أساس استقلالها ومراعاة مصالحها مهما بلغت التكلفة ، وفى سبيل تأييد هذه السياسة قبلت هذه الدول القصة التى نسبوها للكتاب المقدس والتى يستندون إليها فى القول بأن الأرض التى فى الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط أعطاها الله فى العهد القديم إلى الشعب المختار وهى قصة يعرفها العالم المسيحى وكذلك الإسلام .

وهذه المصادفة التى تتحدث عن المشاركة فى هذا الاعتقاد ليست إلا نتيجة لانتهاز إحدى الفرص التاريخية ولا شك فى أن حكاية المشاركة فى هذا الميراث المشاع لا تجعلها مختلفة عن غيرها من فئات الحكايات المشابهة الواردة فى ثقافات أخرى منتشرة ، حول العالم ، وقد وظفتها إسرائيل لتبرير اغتصاب اليهود لهذه الأرض وما تلا ذلك من حكمهم لمعظم أراضى فلسطين ، ولا تؤثر فى ذلك حقيقة أن غالبية هؤلاء اليهود الذين أسسوا دولة إسرائيل كانوا من العلمانيين والملحدين ، وأنهم نقلوا مناخ العقلانية الأوربية إلى اليهودية خلال القرن التاسع عشر ومعظم سنوات القرن الثامن عشر. لو لم تكن هذه القصة موجودة لأصبح فى مقدور شعب بروناى أو الكونغو أن يطالب بامتلاك فلسطين مثلما تفعل شعوب بولندا ، أو ليتوانيا ، أو أواسط آسيا.

إن المغالطات المنطقية الموروثة فى محاولة تحوير النصوص التاريخية لمساندة دعاوى إسرائيل فى فلسطين يسهل عرضها بالعودة إلى التاريخ نفسه ، وربما يتحقق ذلك بمعرفة كيف أن الأوربيين وهم يبحثون عن حل للمشاكل التى نجمت عن معاملتهم لليهود قد نقلوا المشكلة إلى غيرهم وهم سكان الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط الذين واجهوا أضرارها التى ليست فى صالحهم .

كانت القضية الرئيسية التى بنى عليها يهود أوربا الشرقية دعاواهم فى فلسطين تتمثل فى أنهم أحفاد سكان الأرض الأصليين الذين وعدهم الله بامتلاكها وقد جرلوا منها وهم يستعيدونها الآن من آخر الغزاة وهم عرب فلسطين !!.

والحقيقة هى أن سكان فلسطين الذين عاشوا على أرضها فى السنوات الأولى من هذا القرن كان معظمهم أحفاداً لهؤلاء الذين عاشوا على أرضها منذ أقدم العصور،

بصرف النظر عن عقائدهم الدينية سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهوداً (بخلاف هؤلاء الذين استقروا هناك خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) ، وهؤلاء هم السكان الأصليون لفلسطين .

ومن الضروري أن نأخذ في الحسبان مؤثرات التحركات السكانية مثل الحروب، والغزوات، والهجرات التي أحدثت بعض التغييرات في تكوين وخصائص سكان فلسطين خلال هذه الحقبة . وعموماً فإن شعب فلسطين كان منتمياً لوطنه فلسطين – كما يقول الفرنسيون – فقد كانوا هم أحفاد الشعب الذى عاش على نفس هذه الأرض على مدى ألفين أو ثلاثة آلاف عام قبل اليوم مثلما يدعى الألمان بأنهم انحدروا عن القبائل التي أتعبت الرومان .

وفي العصور القديمة المتأخرة حدثت تحركات سكانية ملحوظة في وحول شرق البحر الأبيض المتوسط نتيجة للحل ذى الطابع الروماني الوحشي تجاه سلوك اليهود الفلسطينيين الذين يعيشون في وحول القدس ، فقد حدثت سلسلة من الثورات الصغيرة شجعت الرومان على تدمير معظم مدينة القدس وطرد سكانها ، أما السكان الباقون فقد تركهم الرومان دون أن يزعجوهم فعاشوا على هذه الأرض كما فعل أجدادهم عصوراً طويلة ، واستمروا في تدبير معيشتهم ولم يثيروا إلا القليل من الاهتمام ، وأضيف إليهم الحجاج الموسميون أو الباعة الجائلون والدارسون المغامرون ، واستمرت هذه الحالة حتى نشوب الحروب الصليبية. وأثناء القرن الثامن عشر حدثت بعض الهجرات إلى فلسطين قادمة من بلدان الشرق الأوسط مع القليل من شرق أوربا .وعند بداية القرن التاسع عشر بلغ عدد اليهود في فلسطين ثمانية آلاف شخص ، وعند حلول عام ١٨٨٠ ازداد عددهم إلى ٢٠ ألف شخص ، وعند صدور وعد بلفور كان عدد اليهود يمثل نسبة ١٠٪ من إجمالي عدد السكان في فلسطين [٢] ، وفي سنة ١٩٢٢ وحسب الأرقام الرسمية بلغ عدد السكان اليهود ٨٤ ألفاً من مجموع ٧٥٠ ألفاً هو العدد الكلي للسكان [٣] .

وفي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين ازداد معدل هجرة اليهود إلى فلسطين ، وفي سنة ١٩٣١ ارتفع عدد السكان الإجمالي إلى ما يزيد على مليون ويقدر

عدد اليهود حينذاك بما يزيد على ١٧٠ ألفًا ، وفي سنة ١٩٤٦ وقبل أن يسلم الإنجليز الانتداب مباشرة ومع صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين كان المجموع الإجمالى للسكان أقل من مليونين بعدد قليل ، وقد قفز عدد اليهود حينذاك إلى ٦٠٠ ألف يهودى [٤] .

وبالرغم من ارتفاع عدد المهاجرين اليهود فقد كانت الأغلبية الساحقة للسكان بفلسطين من أبناء البلد الأصليين أى أفراد العائلات المسلمة والمسيحية الذين عاشوا هناك على مدى الأزمان التى عاشها سكان بلدان شرق البحر الأبيض المتوسط .

وكان أسلاف كافة السكان الأصليين فى فلسطين أعضاء فى الاتحادات التى كانت تتكون من القبائل الأصلية غير محددة الشكل التى انتشرت حول المحيط الخارجى للحضارات الأساسية العظيمة فى مصر وشرق البحر الأبيض المتوسط وما بين النهرين ، وقد أتت جميع هذه الشعوب من مناطق الصحراء السورية العربية أو خرجت منها ، وقد سُجلت هذه التحركات - وما تحمله من تهديدات - بشكل متقطع فى النصوص المصرية ونصوص ما بين النهرين منذ منتصف الألف الثالثة فصاعداً . وبالطبع فإن هذه الشعوب موجودة فى المنطقة منذ أقدم العصور وحتى اليوم ، ونحن غير متأكدين من الأسماء التى حملها أفراد هذه الجماعات فى العصور القديمة التى نسبوا أنفسهم إليها ، إن معظم المنطقة الساحلية التى سكنوا فيها كانت تعرف باسم "كنعان" وكانوا يتحدثون اللغة الكنعانية وقد عُرفوا فى التاريخ بأنهم شعب متميز عاش فى القرن الثامن عشر ق.م ، [٥] وعند هذه النقطة نقول إن الفروق الوحيدة التى كانت تميز بين الجماعات المختلفة هى الفروق اللغوية.

يقول دزرائيلى : "كل الموضوع يتمثل فى العنصر وليست هناك حقيقة أخرى ،" وقد عبر عن هذه الفكرة من خلال شخصية صيدونيا التى تمثل نوعًا من شخصيات اليهودى الممتاز فى مشروع جرىء للمؤلف نفسه من خلال روايته Tancred [٦] التى تصور دراسة رديئة للتجمعات البشرية خاصة البدائية ، وهى توضح لنا فقط الفوارق سهلة الإدراك التى تظهر بين الشعوب سواء كانت تعود إلى اختلاف العنصر أو الثقافة أو المؤهلات ، وتعتبر اللغة هى أبرز العوامل الثقافية ، وبالرغم من حتمية هذه الفوارق

فإن الخطوط غالبًا ما تصبح غير واضحة ويصبح من الصعب تحديد طبيعة وعلاقة الكثير من اللغات القديمة ، لأن اللغة تقدم لنا أحد المعايير القليلة التي يمكن الاعتماد عليها في تحديد السمات الثقافية وعلاقات القرابة التي يتميز بها كل شعب على مدى الأزمان .

وتوجد في سجل حضارات الشرق الأدنى القديم عائلات لغوية معينة أثّرت تأثيراً عميقًا في مسار التاريخ الإنساني وفي تطور نوعية المجتمع الذي وصل إلى عالمنا الحاضر، والحقيقة هي أن العديد من التأثيرات التي كانت موجودة في ثقافات الشرق الأدنى ما زالت تعمل حتى اليوم ، هناك في وادي النيل تيار لغوي أفريقي سائد انصهر مع التأثيرات التي وردت مع أهالي الصحراء الذين تدفقوا على الوادي من الشرق والغرب ، أما فيما بين النهرين فإن اللغات التي تطورت في الصحاري والواحات من شمال سوريا حتى حدود إيران فقد أصبحت سائدة واستبعدت لغة السومريين الغريبة غير السامية والتي تعتبر نسيجًا مستقلاً .

وتصنف عائلة اللغات المهمة التي تعود في أصولها إلى الصحاري السورية العربية ضمن المجموعة السامية ومن الصعب القول بأن السامية تعتبر اصطلاحًا لغويًا لأنها صفة للجنس أي العنصر ، ولا يمكن انطباقها على أية مجموعة لا تتكلم لغة سامية بوصفها اللغة الأم ، وليكن معلومًا أن معظم اليهود الموجودين اليوم ليسوا ساميين وليسوا مواطنين يتحدثون لغة سامية .

وعلى ذلك فإن دولة إسرائيل أنشئت على أساس أسطوري وأن الادعاء الذي ادعته الصهيونية وسلم به فيما بعد العديد من اليهود المؤمنين بأحقيتهم في أرض فلسطين يقوم على أساس قصة العهد الذي نالته أعداد من القبائل البدوية والأفراد المستقرون على أطراف الصحاري السورية العربية في الألف الأولى قبل الميلاد من الله الذي عرفوه خلال هذا الزمن القديم باسم « يهوه » أي الأعظم . ويتضمن العهد القديم من الكتاب المقدس تاريخ هؤلاء الناس ومعاملاتهم مع الله .

إن علاقات العبرانيين (الاسم الذي دُعي به هؤلاء الناس الذين يقولون بأن الأسفار الأولى من الكتاب المقدس تسجل تاريخهم القديم) مع شعوب الشرقين الأدنى

والأوسط تمت دراستها بصورة مكثفة بصرف النظر عن نتائج هذه الدراسات المتضاربة ، ومن الصعب تأكيد علاقتهم بأى من المجموعات اللغوية أو القبلية التى انتشرت فى المنطقة حتى الألف الأولى ق . م ، أى الوقت الذى ورد فيه ذكر العرب لأول مرة كشعب معين ، ولا شك أن كافة الشعوب التى انتشرت حول هذه المنطقة مرتبطة ببعضها ، ولها عادات اجتماعية متشابهة ومعتقدات وممارسات دينية وأيضًا أنساب لغوية شديدة التماسك .

واليهودية كعقيدة موجودة اليوم يمكن إرجاع تاريخها إلى المعتقدات التى كانت سائدة لدى العديد من هذه الشعوب الصحراوية ، وهى كنظام دينى ترتبط تفسيراتها بأيام السبى ، خاصة أن اصطلاح "يهودى" لم يستعمل إلا بعد السبى (٧) ، وعلى سبيل المثال فإن محاولة الربط بين الإسرائيليين الحاليين والإسرائيليين الذين عاشوا أيام الملكية القديمة ليس لها سند فى مفهوم التاريخ ، وقد كان المتحدثون بالعبرية فى القرون الأولى من الألف الأولى ق.م لا يختلفون عن القبائل الأخرى التى تتحدث لغة سامية وتحتل أجزاء من شمال الصحارى السورية العربية وتستقر فى مدنها ، ولم تكن هذه القبائل تعبد إلهًا واحدًا ولكنها كانت - مثل أبناء عمومتها الذين تقاسموا معها واحات الصحراء والمدن الساحلية - تعبد آلهة عديدة ، وقد احتاج الرب (يهوه) إلى زمن طويل لتأكيد عظمته بالرغم من أن أتباعه ظلوا مرعوبين إزاء قوة خصومهم فى مواجهة أتباعه (*).

(*) أخطأ المؤلف فى استنتاجاته هنا ، لأن يهوه اسم من أسماء الله التى أطلقت عليه فى العهد القديم وهو الله الذى عبده الآباء الأوائل : إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط . ولا يمكن القول بأن هؤلاء الآباء قد عبدوا إلهًا وثنيًا كما يبدو لأول وهلة من هذه الافتراضات الخاطئة التى يقدمها لنا المؤلف ، أما المشكلة التى أدت إلى كل تلك الافتراضات الخاطئة فتتلخص فى موقف العبرانيين (اليهود) أبناء إسحاق من أبناء عمومتهم أبناء إسماعيل الذين تجاهلوهم نهائيًا ، وتجاهلوا أن لهم نفس الحق فى الوعد بامتلاك أرض فلسطين ، وهو وعد روحى سماوى يشير فى مفهوم المسيحيين إلى ميراث ملكوت السموات ، وهو أيضًا فى جانبه المادى الذى يدعيه اليهود ينطبق على أبناء عمومتهم أبناء إسماعيل ، ومنهم الآن عرب فلسطين الذين لهم حق متساو فى امتلاك هذه الأرض ، أما ملكية الأرض بوجه عام فهى تخص الله وحده (للرب الأرض وملؤها) حسب قول داود النبى فى الآية الأولى من المزمور الرابع والعشرين . (المترجم) .

وتشتهر القبائل العبرانية ببعض المعالم الثقافية المميزة ومنها موهبتهم فى التعبير بالشعر (وفى الأيام الأخيرة مساهمتهم فى تقديم مترجمين ممتازين قاموا بعمل تنقيح لطبعة الملك جيمس من الكتاب المقدس) ولم يقدم علم الآثار دليلاً قوياً من المواقع التى تحدد الأماكن التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس قبل السبى ، وتاريخ الحكومة اليهودية فى الأراضى التى يطالبون بها مؤخراً لتكون وطناً قومياً لليهود لأنه دليل ضعيف ، أما عن تفوق الحكام سواء كانوا ملوكاً أو غير ذلك والذين يمكن التأكد من هويتهم اليهودية فإن حكمهم لم يتجاوز ثلاثمائة عام أو أقل كما هو معروف ، وهى مدة تقل عن المدة التى قضاها الرومان فى حكم بريطانيا . وفى القرن السادس ق.م نقل بعض السكان العبرانيين من فلسطين مع بعض السكان الآخرين إلى الشرق ، وبعد سبى بابل هاجرت الكثير من التجمعات الباقية إلى الجنوب بينما انجرفت تجمعات أخرى نحو البحر الأبيض المتوسط حيث انضمت إلى التجمعات اليهودية الموجودة هناك والتى ازدهرت طويلاً فى المدن الساحلية على كلا جانبى البحر المتوسط خاصة سواحله الشرقية المتطرفة (انظر أيضاً : الفصل السادس لإلقاء مزيد من الأضواء على هذه القضية) .

ومن الناحية الثقافية نجد أن إسرائيل اليوم تتميز بهوية وسلوك ينتسبان إلى شرق أوربا وتعتبر ذلك مصدر قوتها وفخرها ، وحتى على مستوى الثقافة الشعبية فإن إسرائيل أوربية الهوية لأن كل أغنية وكل رقصة تدل على الأصول البولندية والروسية لإسرائيل ، ومن جهة المنشأ فإن إسرائيل طالبت بأن تعامل بوصفها مقاطعة أوربية فى شرق البحر الأبيض المتوسط كما أن عضويتها فى اتحاد الإذاعات الأوربية عضوية غير مؤثرة ، وحتى على المستوى اللامعقول فإن مشاركة إسرائيل فى مسابقة الأغنية السنوية التى يعقدها التليفزيون الأوربى Eurovision تثبت حرصها على عدم إضاعة أية فرصة للاستمرار فى إثبات انتمائها للقارة الأوربية التى ولدت فيها الصهيونية ، إن الأصول التاريخية لإسرائيل تنتمى لأوربا وليس للشرق الأوسط .

إن الأغلبية الساحقة من اليهود الأوربيين لم تكن لها صلة بالشرق الأوسط قبل أو بعد السبى ، وأن الدم الفلسطينى ليس له أثر فى عروقها ، إن اليهود الذين عاشوا

فى أوربا منذ القرن السادس عشر كان يطلق عليهم اسم الأشكيناز Ashkenazim ، وهو اصطلاح انتشر بين يهود إسبانيا ثم هؤلاء الذين جاءوا من شمال إفريقيا الذين تحركوا إلى شرق أوربا عندما طردوا من إسبانيا على يد الملوك الكاثوليك لهذا البلد العنيف سنة ١٤٩٣ وتبعهم أبناء عمومتهم الذين كانوا يعيشون فى البرتغال سنة ١٤٩٧ ، وتقابل الفرعان واختلطا مع الطوائف الصغيرة التى تعود فى أصولها إلى البحر الأبيض المتوسط وتلك أيضًا كانت قد تحركت إلى المدن المزدهرة فى أوربا بعد حركة الإصلاح الدينى ، وقد إلتقوا أيضاً مع الباقين على قيد الحياة من إحدى الطوائف الشاذة ولكنها باقية ومؤثرة فى القرارت السياسية التى اتخذت فوق القارة الأوربية وهذه الطائفة عرفت فى التاريخ بأنها تجمعات اليهود الذين عاشوا على أطراف الإمبراطورية البيزنطية ، إنهم السكان الأغراب المختلفون الذين كانوا فى قلب هذا الامتداد العجيب للتجمعات اليهودية فى شرق أوربا ، إنهم شعب الخزر Khazars .

لقد قيل إن معظم اليهود الأوربيين الموجودين اليوم هم أحفاد هذا الشعب (٨) ، وقد يكون فى ذلك بعض المبالغة ولكنه يتضمن الحقيقة أكثر من الخيال ، لقد كان شعب الخزر يمثل إحدى قبائل التركمان التى تحركت غربًا نتيجة للضغوط الموجودة فى أواسط آسيا والتى مازلنا حتى اليوم لا نجد لها تفسيراً وأخذوا فى الاستقرار حول الأطراف الشمالية للإمبراطورية البيزنطية فى أواسط الألف الأولى للميلاد ، وقد أحاطت بهم لدى وصولهم ظروف تشبه تلك التى تمخضت عنها فيما بعد غزوات المغول ، وعند ابتداء ظهور الخزر استقروا فى جنوب روسيا فى المنطقة التى تقع بين القوقاز ونهرى الدون والفولجا ، وهناك بدأوا فى التخلى عن طابعهم القبلى واكتساب سمات الدولة .

وازدهرت حياة الخزر بعد استقرارهم ونتيجة لذلك أثاروا انتباه الإمبراطوريتين الإسلامية والبيزنطية ولذلك سرعان ما وجدوا أنفسهم على اتصال مثير للقلق بالقوتين الأعظم فى ذلك الوقت ، وقد مارست كلا الإمبراطوريتين ضغوطها على الخزر الوثنيين

لقبول عقيدتها سواء كانت هى المسيحية الأرثوذكسية من جهة أو الإسلام من الجهة الأخرى ، ومن الواضح أن الخزر كانوا يتميزون بالذكاء مستعدين لإبقاء باب الاختيار مفتوحًا حيث وجدوا أنهم لن يلجأوا إلى العبقرية السياسية ، ليعرفوا أن قبولهم لإحدى الديانتين العظيمتين سيؤدى إلى القطيعة مع أهل الديانة الأخرى ولذلك اضطر الخزر للبحث عن حل جذرى لمشكلتهم ، وكان الحل الذى توصلوا إليه حلاً عجيبًا فأعلنوا اعتناقهم للديانة اليهودية وبذلك تجنبوا إثارة حفيظة كل من الجارتين القويتين ، واستمر الخزر فى البحث عن هوية مقبولة وانتماء دينى جدير بالاحترام على الأقل حسب النموذج الذى أطلق عليه اسم « المراسلات الخزرية » ، فقد أرسلوا إلى المسلمين الذين أرادوا إدخالهم فى الإسلام ، وسألوهم : أى العقيدتين تلقى احترامكم أكثر من الأخرى ؟ هل هى العقيدة اليهودية أم المسيحية ؟ فأجاب المسلمون بلا تردد قائلين : اليهودية ، كما أرسلوا إلى البيزنطيين الذين كانوا يرغبونهم فى المسيحية الأرثوذكسية ووجهوا إليهم سؤالاً مشابهًا قائلين: أى العقيدتين تلقى احترامكم أكثر من الأخرى ؟ هل هى العقيدة اليهودية أم الإسلامية ؟ فأجاب المسيحيون فى صوت واحد قائلين : اليهودية ، وبناء على ذلك اختار الخزر اليهودية وأصبحوا يهوداً ، وهذه القصة ممتعة إذا لم يرد غيرها .

كان الخزر كثيرى العدد ، وأذكياء ، ومجدين ، وكان بينهم فلاحون ، وصناع ، وتجار ، كما تميزوا بفضائل عديدة اتصف بها إلى اليوم اليهود الأوربيون الذين تميزوا بالإنجاز الرفيع ، كما ارتبطوا بتجمعات الفلاحين فى شرق أوربا التى أحبها اليهود مع الأساطير الشعبية الإسرائيلية ، أما وسيلتهم فى اتخاذ اليهودية عقيدة لدولتهم فقد نتج عنها الإزعاج والاضطهاد الذى صبته عليهم كلا الجارتين القويتين ، ولابد أنهم توقعوا حدوث هذه النتيجة وعرفوا أنه مهما كانت فضائل الخزر فإن المهارة السياسية لم تكن متوفرة بينهم ، وفى الوقت المناسب اختفى الخزر كدولة مميزة ولكن فى ذلك الوقت كانت اليهودية قد انتشرت بين عدد كبير من الفلاحين وصغار الملاك وأهل المدن المتواضعين الذين كانوا يعيشون فى جنوب روسيا ، وبالتدريج انساق بعض السكان الزائدين عن الحاجة فى اتجاه الغرب واستقروا فى معظم مدن أوربا الشرقية بالرغم

من أن التجمعات الأصلية حرصت على الاستمرار فى مهنة الفلاحة ، وصاروا يمثلون طبقة ذات أهمية فى نسب اليهود الأشكيناز خاصة بعد أن هاجروا إلى بولندا ، وليتوانيا ، والمجر .

إن المؤرخين الذين درسوا هذا الموضوع وافقوا على أهمية تأثير الخزر فى سلسلة أنساب اليهود بالرغم من أن استنتاجاتهم لم تلق الترحيب من المؤسسة الحاكمة فى إسرائيل ، وحتى يتم قبول مثل تلك النظرية فإنها ستزيد من الكلام الفارغ الذى تطلقه إسرائيل وهى تحاول إقناع يهود العالم بأنهم سلالة عاش أجدادها فى فلسطين قبل السبى .

لقد جعل الصحفى أرثر كستلر المتخصص فى معالجة المشاكل الحيوية من وجود الخزر قضية معروفة لجمهور عريض من غير المتخصصين فى مقاله : " القبيلة الثالثة عشرة - The Thirteenth Tribe" (٩) ، وقد لخص فى هذا المقال حواراً مقنعًا بصورة ظريفة كعادته دائمًا أدهشت الكثيرين من قرائه وقد دار الحوار حول الدور الذى لعبه الخزر فى تاريخ اليهودية الأوربية ، وعلى كل حال ، فإنه بذل جهداً كبيراً لشرح واكتشاف تاريخ الخزر لنفسه ، إن دراسة الخزر ومشاركتهم فى أصل الأشكيناز كانت موضوعًا قام بدراسته علماء القرن التاسع عشر، ولم يكن هذا الموضوع محل خلاف إلا عندما يصطدم بالصهيونية لأن حقيقة وجود الخزر تجعل المبدأ الصهيونى المنادى بالعودة إلى إسرائيل مجرد لغو بلا معنى ، وبذلك يصبح موضوعًا للخلاف وليس موضوعًا دراسيًا مجرداً من الانفعالات ، ولم يفكر أى من الدارسين اليهود خلال القرن التاسع عشر فى اعتبار أن الموضوع يتعلق بمساهمة الخزر فى إثارة الشك حول سلسلة نسبه ولكن الموضوع لا يمكن إخفاؤه (١٠) .

وعلاوة على ذلك ، فإن الدارسين الإسرائيليين لم يحاولوا تناول الحوار بشكل جاد وفضلوا تجاهله منكرين وجود الدليل الذى يؤيده ، ومقدمين بدلاً منه هذه المعادلة : [إسرائيليون (مواطنون يسكنون إسرائيل الحديثة) - يهود - إسرائيليون (من نسل يعقوب أو عبرانيون من مملكة إسرائيل القديمة) - يهود - إسرائيليون (مواطنون يسكنون دولة إسرائيل الحديثة)] وإليك النص الإنجليزى لهذه المعادلة :

وتفتقد هذه المعادلة المصداقية المطلقة ولكنها تقدم لنا التعبير عن الأسطورة التى تكمن فى جوهر ما تدعيه إسرائيل من الوراثة التاريخية فى فلسطين .

وكذلك فإن الدليل اللغوى يشهد ضد دعاوى إسرائيل فى أرض فلسطين اعتماداً على التاريخ ، واليوم فإن العبرية هى اللغة الرسمية لدولة إسرائيل ، ولكن العبرية كما تكتب وتنطق اليوم عبارة عن بناء صناعى من إنتاج المعامل وأن الدراسة توضح لنا أنه مجرد امتداد لغوى خاص بالسلالات أو الأجناس البشرية ، وقد استخرجت معظم ألفاظه من دراسة اللغة العربية المستخدمة فى الكلام والتى بقيت مستخدمة فى المحادثات اليومية على خلاف اللغة العبرية .

واللغة العبرية ترتبط بالشعب الذى ورد ذكره فى العهد القديم (والذى كان يتحدث لهجة كنعانية) كما ترتبط أيضاً عن طريق التوسع فى الماضى والنغمات التوافقية التى تستخدم للازدراء والتحقير باليهود كطائفة متباينة ، إنها تقوم بدور الدليل الوحيد على تلك الصفة المراوغة "اليهودية" كما تشهد على الصفة المحددة للتراث اليهودى ؛ ولكن اليهود لم يستخدموا اللغة العبرية بوصفها لغة للكلام لمدة تزيد على ٢٥٠٠ عام قبل إنشاء دولة إسرائيل .

لقد كان استخدام اللغة العبرية لغة رسمية للدولة الإسرائيلية الجديدة ضربة سياسية ناجحة فقد كانت سياسة لم تتحقق بسهولة أو بدون معارضة من المجالس اليهودية الأقدم ، حيث رأى الكثيرون من الصهاينة الأوائل أن فرض اللغة العبرية يعتبر خطوة غير معقولة ، وقديمة ، ومتخلفة ، وكانوا يفضلون استخدام اللغة الألمانية أو اليديش Yiddish (لغة اليهود الأشكيناز فى شرق أوربا) لتصبح هى اللغة المتداولة فى أية دولة يهودية يجرى إنشاؤها ، والحقيقة هى أن اللغة العبرية الحديثة بناء غير طبيعى فرض على كل مهاجر أن يتعلمها وكذلك العديد من اليهود الذين يعيشون فى فلسطين قبل إنشاء دولة إسرائيل ، وكانت لغة اليهود الغربيين الأشكيناز هى لغة اليديش وهى لهجة ألمانية تمثل قسماً من الفرع الجرمانى من عائلة اللغات

الهندوأوربية ، ولم يتحدث اليهود الأوربيون اللغة العبرية للكلام ، وتمسكوا بها باعتبارها مخصصة للصلاة والدراسة واعتبروا أنها لغة الله عز وجل وهى بذلك صالحة للاستخدام فقط فى التخاطب معه ، ويعتبر رفض فكرة استخدام اللغة العبرية بوصفها لغة شعبية إحدى العلامات التى تميز اليهود الأرثوذكس المتفوقين فى إسرائيل حتى اليوم .

وهناك فرع آخر للتجمع الإسرائيلى الدولى ونعنى به اليهود الشرقيين أو السفرديم Sephardim الذين سنتحدث عنهم كثيراً فى الفصل الثامن ، وهنا علينا أن نلاحظ أن هؤلاء اليهود الذين عاشوا فى الأراضى العربية (بما فيها فلسطين) كانوا يتحدثون اللغة العربية دائمًا بوصفها اللغة الأم مثلما كانت الجماعات اليهودية الأخرى التى عاشت فى إسبانيا ، والبرتغال ، وإيطاليا ، وأيضًا الجماعات الأصغر عدداً التى عاشت فى بلاد أخرى حول العالم تتحدث اللغة السائدة للسكان الذين عاشت بينهم ، كذلك فإن السفرديم الذين عاشوا فى شبه جزيرة أيبريا وأراضى أوربا اللاتينية طوروا أيضًا ما يتناسب معهم من فروع لغة اليديش والتى أشهرها لادينو Ladino ولكنها لم تنتسب إلى اللغة العبرية مباشرة أكثر من انتسابها إلى لغة اليديش .

ولا شك فى أن اللغة العبرية ظلت إحدى اللغات الرئيسية التى تؤدى بها الطقوس الدينية ، بوصفها لغة التوراة وطقوس المعابد اليهودية . والحقيقة هى أنها اللغة الوحيدة للطقوس اليهودية كما أن اللغة الآرامية هى اللغة المصطلح عليها للتفاهم بين الدول القديمة فى الشرق الأدنى ، وقد عاشت كذلك فى النصوص القانونية وفى بعض المعالم الطقسية ، وكانت العبرية كذلك هى اللغة المهمة وأيضًا الوحيدة للدراسة اليهودية بنفس الطريقة التى كانت بها اللغتان اللاتينية واليونانية هما اللغتان المستخدمتان فى الدراسات الأوربية حتى تدهورت صدارتها بظهور حركة الإصلاح الدينى ، وعلى ذلك فإن الإسبانى سليمان بن فرجة كتب بالعبرية ، [١١] والحقيقة أن مثل هذه الشروح الإسبانية بالرغم من أنها كتبت فى أرض إسلامية إلا أنها قامت بدور كبير فى حفظ العبرية بوصفها لغة مستخدمة فى الدراسة ، ومن جهة فإن ابن ميمون [١٢] وهو أحد الدارسين اليهود العظام خلال العصور الوسطى – وقد سمع عنه معظم المثقفين – قد استخدم اللغة العربية فى كتاباته حتى فى أقدس وأصعب المواضيع .

ولكن حتى فى السياق الدراسى أو الطقسى فإن طريقة نطق اللغة العبرية تعرضت للنسيان بعد السبى البابلى والعودة منه ، ولم تدون حروف العلة فى اللغة العبرية كما هو معتاد فى اللغات السامية ، مما جعل انتقالها بوصفها لغة للكلام يتم عن طريق الأمثلة الشفوية والتقليد. ونفس الكلام ينطبق على اللغة العربية وهى اللغة السامية الحية الوحيدة .

ويعتبر الشكل الذى اخترعته إسرائيل للحديث باللغة العبرية غير مفهوم المعنى بالنسبة لأية قبيلة كانت تتحدث العبرية خلال القرن السابع ق.م ، وهو يمثل آخر العصور التى كانت فيها هذه اللغة تستخدم بوصفها لغة دارجة وحتى فى أيام السيد المسيح فإن اللغة العبرية بوصفها لغة الكلام كانت قد اختفت ، وقد تحدث أتباع المسيح الأوائل باللغة الآرامية رغم أنهم كانوا من اليهود ، واللغة الآرامية هى إحدى اللغات التى استُخدمت فى الحديث بشكل كثيف فى كل بلدان الشرق الأوسط عند نهاية الألف الأولى ق.م.

والآرامية لغة من التيارات اللغوية السابقة على اللغة العربية التى حلت محلها فيما بعد بوصفها لغة استخدمت للحديث فى المنطقة كلها بوجه عام ، وحمل الفاتحون المسلمون خلال القرن السابع اللغة العربية إلى شمال إفريقيا شمالاً وحتى حدود إيران شرقًا ، وفى منطقة القلب من شبه الجزيرة العربية والصحارى السورية العربية بما فيها فلسطين تطورت اللغة الآرامية إلى اللغة العربية فى عصر البعثة النبوية وأصبحت هى لغة الحديث بالنسبة للأغلبية الساحقة من سكان المنطقة بصرف النظر عن انتمائهم الدينى ، فقد كان هناك فى ذلك الوقت سكان مسيحيون كثيرون فى شبه الجزيرة العربية والأراضى المحيطة بها وكذلك أيضًا تجمعات يهودية كبيرة (١٣) .

وهناك بعض الاستثناءات لهذا المبدأ العمومى الخاص بسيطرة اللغة العربية على شبه الجزيرة العربية والأراضى المجاورة لها ولكنها توجد عادة بين بعض التجمعات الصغيرة والمنعزلة مثل السامريين الآشوريين المسيحيين وسكان الجبال جنوب عمان الذين احتفظوا بلغاتهم التقليدية على الأقل لتأمين عائلاتهم وحتى هذا الوضع غير موجود بالنسبة للعبرية ، وتطورت الآرامية نفسها فى العصور الأخيرة وأصبحت

تستخدم استخدامات قانونية وطقسية متخصصة وانضمت منذ أواسط الألف الأولى إلى قائمة اللغات الأخرى التى استخدمها اليهود حتى نهاية العصور الوسطى ومن بينها العبرية ، والكلدانية ، واليونانية ، والعربية ولكن اللغتين الأكثر تأثيراً من بينها كُلّها هما الآرامية وحفيدتها العربية ، مع أن اللغة اليونانية التى تمثل تراث فترة ازدهار الثقافة اليهودية فى العصور الهلنستية كانت هى الأخرى عاملاً مهما فى تفتيت المفاهيم الثقافية والفلسفية اليهودية .

أما أكثر اللغات المستخدمة فى الحديث بوجه عام لدى أغلبية اليهود الذين أسسوا دولة إسرائيل فهى لغة اليديش ، ولم تعد ترتبط بالعبرية أكثر من ارتباط لغة ويلز أو المجر بها . وهى ليست اختراعاً حديثًا ، ولكن لها أسلافًا مثل معظم اللغات الأوربية ، وتطورت مع لغة اليديش القديمة التى كانت لغة للحديث ما بين عامى ١٢٥٠ ـ ١٥٠٠ للميلاد فى شكل اصطلاحات مرتبة زمنيًا يمكن مقارنتها باصطلاحات الإنجليزية الحديثة ، ويعتبر المدى الذى وصلت إليه لغة اليديش من حيث استخدامها فى الحديث فى التجمعات اليهودية الغربية عاملاً مهمًا فى العناية بتجربتهم الثقافية الشائعة ، وقد اشتقت معظم الثقافة الإسرائيلية الحالية مباشرة أو عن طريق غير مباشر من هذا الميراث الخاص بالخلفية اللغوية الشائعة ، وهذا الاعتبار دون غيره من الاعتبارات هو الذى يحدد الطبيعة الأوربية التى تدمغ المجتمع الإسرائيلى .

لقد وصلت بذور الصهيونية منذ البداية لتقع على الأراضى الخصبة فى أوربا التى انطلقت منها ، وتعتبر الأسطورة قوة مؤثرة فى أيدى المجادلين المهرة وأصبح استخدام الأسطورة إحدى الدمغات التى يتميز بها السياسى أو رجل الدعاية الصهيونى ، وليست فقط الأساطير المرتبطة بفكرة العودة إلى الأرض التى لا تربطهم بها أية رابطة تاريخية مهما كانت كيفية استخدامها بمهارة لمساندة القضية الصهيونية ، وهى تمثل نوعية أخرى من الأسطورة لخدمة قضيتهم بحيث تخلق استجابة قوية بين ذوى النفوذ من غير اليهود الذين كانت مساندتهم حيوية بهدف تجنيدهم .

وبالرغم من أن مؤسسى الصهيونية لم يكونوا متدينين (وظل خلفاؤهم كذلك) إلا أنهم كانوا يسارعون دائمًا إلى الالتجاء إلى النصوص المقدسة القديمة التى تمسكوا

بها مثلما فعل غير اليهود ، ولاشك أنه بدون المشاركة فى هذا الميراث الدينى فإنه لم يكن فى مقدور الصهيونية أن تحظى بمثل هذا الاهتمام الجدى من أصحاب المصالح الغربية ، وإذا قلنا إنه يحق لأهالى البلاد الواقعة على بحر البلطيق الذين يتحدثون اللغة الألمانية أن يطالبوا بمنطقة بيجنج Beijing اعتماداً على بعض الأساطير الشائعة فإن مثل هذه المطالبة سيتم استبعادها لما تحمله من وقاحة ، وكذلك إذا قيل إن الديانة المنتشرة فى أوربا اليوم تعود فى أصولها إلى أساطير أهالى ويلز Mabinogion فقد يلحق ذلك الضرر بسلام بعض الدول التى تشكل قسماً كبيراً من العالم المتحضر .

أما حقيقة أن اليهود قد يشيرون إلى كتب العهد القديم التى تقوم عليها عقيدة أوربا الدينية بأنها هى الميراث العمومى لليهود والمسيحيين ، مما قد يؤدى إلى تقوية تأثير قضية الصهيونية بشكل لا يمكن حصر نتائجه ، فإننا نقول : إن ذلك ينطبق أيضاً على غير المتعلمين الذين يعتبر الكتاب المقدس بالنسبة لهم هو كلمة الله الواضحة والتى لا يمكن إنكارها تاريخيًا ، كما أنكرها المفكرون الذين يغالطون فى الكلام ويجادلون فى تفاصيل وتفاسير العقيدة ، دون أن يحاولوا معرفة ما إذا كان يهود بولندا على سبيل المثال هم اليهود أنفسهم الذين ادعوا أنهم دخلوا فى عهد مع الله للمعيشة على الأرض التى يطالبون بها الآن بإلحاح شديد .

وقد وجد الكثيرون من الأوربيين – حتى لو كانت عقيدتهم المسيحية شكلية أكثر منها حقيقية – أن هذه المعارضة للسياسة السماوية قد طرقت على الوتر الحساس وأحدثت صوتاً رناناً فى ضمائرهم عندما عرفوا أن هؤلاء الذين اكتشفوا هذه الأصداء فى أعمق مستويات عقائدهم كانوا هم أيضاً من صانعى السياسة فى بلادهم مما جعل لهذا التوافق مغزى سياسيًا ، لقد خلق المبدأ القائل " أرض بلا شعب تنتظر شعباً بلا أرض" [١٤] (شعار يحدد معناه الواضح طبيعة الدعاية الصهيونية) استجابة سريعة وتعاطفاً هائلاً بحيث إن زيف المبدأ ذاته لم يؤد إلى ارتباك أى شخص متشائم عندما أخذ هذا المبدأ فى الانتشار بقوة .

لقد كان لوقع أسطورة العهد معنى مؤثرٌ ليس فقط فى عقول المسيحيين (أو على الأصح فى عقول هؤلاء الذين تلقوا تعليمهم حسب التقليد المسيحى الغربى) ولكن

أيضًا فى عقول العرب والمسلمين ، فقد كان هذا الانتصار العجيب للإقناع الذى تفوق على الحقيقة والاهتمام الشخصى عبارة عن انتصار له مغزى عميق فى الحرب النفسية التى وجهتها إسرائيل بمهارة واستمرارية ضد العالم العربى منذ سنة ١٩٤٨ .

إن المسلمين يتقبلون معظم التعاليم الدينية اليهودية مادام اليهود من وجهة نظرهم أهل كتاب مثل المسيحيين ولا يعيبهم سوى أنهم يؤمنون بعقيدة سابقة حلت محلها عقيدة جديدة ، لقد تأهل المجتمع المسلم لقبول فكرة أن المهاجرين اليهود الذين نزحوا إلى أرض فلسطين لديهم إيمان قوى بعقيدتهم ، بالرغم من أن المسلمين يرون أن هذا الإيمان ليس بعيد المدى ، لأنهم يعتبرون أن العبرانيين بسبب كثرة عنادهم وتعدياتهم فقدوا الوعد الإلهى الذى أُعطى لهم سابقًا .

ومع ذلك فقد انفعل المسلمون إزاء ادعاء اليهود بأنهم أحفاد سكان فلسطين الأصليين ، وللأسف فإن هذه الخرافة اهتم بها المسلمون الفلسطينيون الذين يحبون أن يطلق عليهم اسم : المجاهدون ، والذين تميزوا بقسوة السلوك رغم قلة عددهم ولكنهم فى السنوات الأولى للإسلام انطلقوا من شبه الجزيرة العربية.ونشروا رسالة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) فى الصحارى السورية العربية وما بعدها ، وعلى ذلك فإن الكثيرين من الكتاب المسلمين افترضوا أن الفلسطينيين (أو على الأقل المسلمين منهم) هم نسل الجيوش التى انطلقت من شبه الجزيرة تلبية للحماس الذى بثه فيها الرسول ، وحتى هذا اليوم فمن المعتاد أن تسمع أحد الفلسطينيين وهو يتحدث عن " أربعة عشر قرنًا من الاحتلال " على يد أسلافه وذلك للتعبير عن طول الفترة التى استغرقتها القضية الفلسطينية . ولاشك فى أن بعض المسلمين الأوائل قد أتوا من شبه الجزيرة العربية واستقروا فى الأراضى الخصبة الواقعة فى الشمال ولكن إذا كان ذلك قد حدث فلابد أنهم يمثلون نسبة ضئيلة فى المجتمع الذى فتحوه .

إن الاعتقاد بأن انتشار الجيوش العربية خلال القرن السابع كان واسعًا يؤيده ما نراه فى مصر حيث يؤكد المسيحيون الأقباط أنهم هم الأحفاد الحقيقيون للمصريين الذين ينتمون إلى أيام الفراعنة ، أما المسلمون فإنهم أحفاد الفاتحين الذين دخلوا مصر ضمن جيوش عمرو بن العاص عندما استولوا على مصر من يد سادتها

البيزنطيين باسم الإسلام ، إن الطبيعة غير المعقولة لهذه الفكرة والتى يبرهن عليها المسلمون الذين يمثلون الأغلبية الساحقة فى المجتمع المصرى لم تؤد إلى الإقلال من الحماس الذى تلقاه هذه الفكرة فى بعض الأوساط القبطية .

وانتشر الإسلام بسرعة ملحوظة بين المسيحيين وغيرهم من الجماعات بما فيهما الوثنيون واليهود الذين عاشوا فى فلسطين فى ذلك الوقت ، ولم تختلف تجربتهم حينذاك عن تجربة الأعداد التى لا حصر لها من الناس الذين التقوا بالمسلمين فى هذه الاندفاعة الأولى ، أما العرب الذين لم يدركوا هذه المرحلة الفاصلة من تاريخهم بصرف النظر عن مدى قبولهم للدعاوَى اليهودية بالانتساب إلى فلسطين فقد ردوا بعنف على الدعاوى الأكثر تطرفًا التى أعلنتها الصهيونية ، ولم ينصف العرب قضيتهم وهم يشيرون إلى "أبناء عمومتنا" كلما تحدثوا عن الإسرائيليين وعن اليهود الأوربيين بوجه عام ، وكانوا مستعدين تمامًا لقبول الأسطورة التى تقول : بأن إبراهيم هو الأب المشترك لهم ولهؤلاء القوم الذين ضاعت أصولهم فى مجاهل آسيا عندما كان إبراهيم موجوداً . إنها ضريبة مقابل قوة الإقناع الإسرائيلية وأعنى بها هذه الفكرة التى يصعب تصديقها والتى حققت هذا الانتشار حتى بين أقوى أعدائهم ، كذلك فإن الدارسين المسلمين أيضًا ساعدوا فى تطوير الخلفية التاريخية لادعاءات إسرائيل فى فلسطين بما عمدوا إليه من تجاهل التاريخ السابق للإسلام وأظهروا أنه غير جدير بالاهتمام أكثر من الفترة التى تلت رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) . إن الفترة السابقة على الإسلام فى المفهوم الإسلامى هى "العصر الجاهلى" وبذلك لا تستحق اهتمام الدارسين المسئولين ، ولذلك دأب مروجو الأساطير على شق طريقهم لتحويل النص الذى تمسك به الصهاينة وأصدقاؤهم إلى نص قانونى سارى المفعول .

إن الفكرة التى تقول بأن يهود إسرائيل بينهم اليهود الذين يعودون إلى الأصل الأوربى وأن العرب بمن فيهم الفلسطينيون أقرباء لبعضهم البعض ، مازالت فكرة حية وخالدة على الأقل بين الصحفيين الشعبيين ، ولذلك أوردت مجلة التايم ملحوظة مؤداها أنهم (العرب واليهود) أبناء عمومة مثلما كان الجدان إسحاق وإسماعيل نصف أخوين بشكل فنى [١٥] .

ونلاحظ أن كلمة « بشكل فنى » قد وردت مرتين فى محاولة إضفاء الصفة العلمية الزائفة على التعليق وفى التبسيط الحاد للذاكرة ، ومن الصعب الاعتقاد بأن نفس الصحيفة قد تُكرر بنفس مستوى الرزانة بعض الأساطير الشعبية أو العلوم الزائفة (ربما حدود أو مقاييس الأهرام) أو ترديد قصة الزوجات المسنات عند التعليق على الممارسات الطبية ، إلا أنها ومعها غيرها من الادعاءات الأخرى ستؤدى إلى انتشار مثل هذا الكلام الفارغ على مثال القول بأن إسحاق وإسماعيل قد أنجبا شعبين أحدهما أصيل فى الشرق الأوسط والآخر متفوق فى شرق أوربا مع الكثيرين من أحفادهم فى آسيا.

إن فكرة النسل المشترك للعرب واليهود تم تطويرها باستخفاف على يد العديد من رجال الدعاية الصهاينة بالرغم من ازدرائهم للأديان بوجه عام ، وهم بذلك يعطون لقضيتهم سلطة ضعيفة البنيان خاصة بين السذج الذين يصدقون بسرعة (وأيضًا هؤلاء الذين يريدون أن يقتنعوا) وأصحاب العقليات المتدينة وخاصة بين طوائف معينة مثل المذاهب المسيحية المتطرفة ، أما العرب فقد وصفهم اليهود الذين يدعون الاشتراك فى النسب معهم بأنهم كانوا متخوفين جداً كما كانوا خاضعين بشدة لتأثير أساطيرهم القبلية مما جعلهم ينكرون بكل المقاييس مثل هذا الوهم الذى لا يحتمل على كل المستويات وكل المبررات.

وهناك شىء واحد جدير بالملاحظة أكثر من الدعاية لفكرة النسب المشترك بالنسبة للعرب واليهود – لدى الأفراد المدركين والمتعلمين – وهو قبول الأفراد المدركين والمتعلمين لهذه الفكرة : إن الأساطير التى تلازم وجود إسرائيل تمثل شهادة إضافية إذا كانت هناك حاجة إلى شهادة لتأكيد سذاجة الجنس البشرى .

الهوامش

(1) *The Times*, 17 October 1988

(2) British Census of Palestine 1922

(3) James L- Abu-Lughod/ The Demographic Transformation of Pales-tine' in I. Abu-Lughod (ed)/ *The Transformation of Palestine* , North Western University Press, Evanston, 1971

(4) Estimates by the British Mandated administration

(5) G Dossin, *Syria* , 50 , 1973

(6) Benjamin Disraeli, *Tancred, or the New Crusade* , 3 vols/ Colburn / 1847

(7) Paul Johnson, *A History of the Jews* , Weidenfeld &Nicolson/ 1987

(8) *Pace* Lewis in *Semites* and *Anti-Semites* , Weidenfeld &Nicolson, 1986 /where he is abruptly dismissive of the Khazars and their connection with the Jews of Europe

(9) Arthur Koestler, The Thirteenth Tribe, Hutchinson/ 1976

(10) See Koestler's bibliography

(11) Johnson/ op. dt

(12) Ibid.

(13) For an interesting overview/ written prior to the creation of Israel see De Lacy O'Leary, *Arabia before Mohammed* , Kegan Paul, Trench, Trubner, 1927

(14) Israel Zangwill, "The Return to Palestine", *New Liberal Review* , December 1910

(15) *Time*, 11 April 1988

الفصل السادس

علم الآثار أداة للدعاية

هناك بعض المعالم الخاصة بالصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين قد تثير الضحك أو ربما ابتسامة تنم عن التهكم والمرارة أو تعتبر موضع سخرية واستهزاء دبلوماسى أو تكشف عن نموذج متطرف من المواقف السياسية ؛ ولكن يبدو أن الضحك سيظل هو رد الفعل غير المناسب بالنسبة للمواجهة التى أدت إلى معاناة الكثير من الأبرياء ، ومع ذلك فهناك ظرف وحيد يعتبر فيه الضحك ، والسخرية ، والشك هو الاستجابة الوحيدة المناسبة والحتمية ، ويتعلق هذا الظرف بمحاولات السلطات الإسرائيلية لاستغلال علم الآثار لمساندة ادعائهم بأنهم الأحفاد المباشرون للشعب الذى نال موعداً من الله بامتلاك الأرض منذ أربعة آلاف عام كما تقول الأسطورة .

وكان من المتوقع قيام الأوربيين المهاجرين إلى إسرائيل بتشجيع البحث عن الآثار فى موطنهم الجديد ، وكان هناك عدد كبير من الدارسين اليهود فى مقدمة علماء الآثار الدخلاء على البحوث الأثرية فى فرنسا ، وبريطانيا ، وألمانيا خلال القرن التاسع عشر ، كما كان هناك أيضًا أخصائيون فى الدراسات اللغوية حيث قام الدارسون اليهود بمساهمات في دراسة آثار الماضى التى أصبحت خلال هذا القرن هى الشغل الشاغل بالنسبة للعديد من المجتمعات الأوربية ، ولم تكن مساهمتهم أساسية أو حتى مرتبطة بالدراسات التى تهتم بالتاريخ اليهودى بالرغم من ظهور مؤرخين مهتمين باليهود والديانة اليهودية بين اليهود أنفسهم . وكان هناك رجال مثل هاليفى وويل اللذين قدما

إسهامات مهمة في علم الآثار المصرية والدراسات الخاصة ببلاد ما بين النهرين وتاريخ أناتوليا القديم، ويبدو أن بلاد اليونان والرومان لم تجتذبا الأكاديميين اليهود ولكن مساهمتهم العظيمة اتجهت نحو ما نعرفه باسم الدراسات الشرقية .

إن فلسطين التى تعتبر بكاملها أرضًا مقدسة بالنسبة لليهود والمسيحيين (*) كانت بالطبع بؤرة اهتمام الدراسات اليهودية ؛ ولكن هذه الدراسات لم تتميز بروح العصبية وإذا حدث ذلك فلابد وأنه كان ظاهرًا لدى بعض أصحاب الأفق الضيق من الحاخامات ، وعندما ظهرت الصهيونية كمفهوم سياسى فإنها استقطبت فى مدارها بعض العاملين فى مجال علم الآثار مع بعض الأكاديميين فى مجالات أخرى مثل التاريخ ، والجغرافيا والدراسات اللغوية .

وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كان تقدُّم الصهيونية مواكبًا لظهور الدراسات الأثرية للكتاب المقدس ، وكان هناك اهتمام دائم لإثبات حقيقة النصوص التاريخية التى وردت فى الكتاب المقدس ، وقد كان هذا الاهتمام قويًا فى بعض نواحى الدراسات المسيحية ، ولم يكن اللاهوتيون العقلاء - خاصة هؤلاء الذين فى قمة الاقتناع بالفكر الكاثوليكى - مقتنعين بمحاولة تطبيق مبادئ المؤرخين الرسميين على الأحداث التى تصور خريطة مسار حياة وأفعال الشخصيات القيادية التى دونت سيرتها فى أسفار العهد القديم .

لم تستطع تحفظات الكاثوليك حول البحث عن إثبات الحقيقة فى الحوليات التى تخلط الأسطورة بالتاريخ أن تمنع زملاءهم البروتستانت - خاصة الذين انفصلوا عن روما - من محاولة كشف التأكيدات الأصلية التى تتعلق بالحقيقة المدونة فى الكتاب المقدس .

ومن أسبق الدراسات القائمة على التخمين والتى قام بها البروتستانت منذ فترة طويلة للبحث عن الحقيقة التاريخية فى الكتاب المقدس أبحاث رئيس الأساقفة

(*) وهى أيضًا بالنسبة للمسلمين بسبب وجود المسجد الأقصى بالقدس وعلاقته الوثيقة بالإسراء والمعراج ، واعتباره ثالث حرم إسلامى بعد المسجد الحرام بمكة ، ومسجد الرسول بالمدينة (المترجم) .

أوشر USSHER في القرن السابع عشر ، واستنتج منها أن العالم قد خلق فى صباح يوم جمعة من شهر أكتوبر سنه ٤٠٠٤ قبل الميلاد ، وبناء على هذا الاكتشاف أعد قائمة بحياة الآباء الأوائل وغيرهم من الشخصيات التى وردت فى العهد القديم والأحداث التي وصفتها الأسفار ، وفي القرن التاسع عشر نشرت هذه الدراسة الإنجليزية مما أتاح للدارسين تأكيد أو تصحيح هذه الدراسة الخيالية .

ولم يكن رجال الدين التابعين للكنيسة الإنجليزية هم وحدهم الذين بحثوا فى تأكيد قواعد المعتقدات من واقع الدراسات الأثرية ، فقد كانت هناك طبقة من الباحثين الذين وقعوا فى شباك نوع من الدراسات الصوفية التى قادتهم إلى البحث فى الديانات الشرقية والأبحاث الأثرية وأفضل مثال على ذلك فاوست الذى شق طريقه خلال غابات أمريكا الجنوبية بحثًا عن ورثة قارة أطلا نتيس ، وقد شهدت فلسطين بعض أفراد هذا الطراز الذين خاضوا فى أبحاث الكتاب المقدس اعتماداً على تخيلاتهم وقد مالوا إلى تشجيع الأبحاث الخاصة بالشعب المختار وتاريخه الافتراضى وذلك من واقع ميولهم الاستعمارية ومنهم جوردون ، وكتشنر ، وأيضًا وينجت ، والأخير منهم كان غريب الأطوار وبالرغم من أنه كان ضابطًا شجاعًا إلا أنه كان صهيونيًا مخلصًا ؛ ولكن الدارسين اليهود الذين ينتمون إلى التقاليد الثقافية الأكثر التزاما بمبدأ الشك لم يساهموا فى هذه الدراسات الخيالية .

وقد تغير الوضع بشكل درامي بعد قيام دولة إسرائيل فقد تحول عدد من اللاجئين الفارين من الاضطهاد الأوربى إلى مؤرخين وعلماء آثار ، ومن المدهش حقًا أن يتضمن صك الانتداب شرطًا (الفقرة ٢١) ينص على حماية التراث الأثرى الفلسطينى بالرغم من أنه فى نفس الوقت أعطى حقًا مماثلاً لكافة أعضاء عصبة الأمم للقيام بأبحاث وحفريات فى أراضيها ، لقد شجعت حكومة الانتداب على تكوين هيئات محترفة للإشراف على الأبحاث الأثرية فى فلسطين ، وبالرغم من وجود هذه الترتيبات فقد نجحت إسرائيل سنه ١٩٤٨ فى إقامة أبحاث أثرية منفصلة خاصة بها ، وفى نفس الوقت وضعت برنامجًا لبناء المتاحف للحفاظ على البقايا الأثرية ولتطوير المتاحف التى تعكس محتوياتها ومعروضاتها الفكر الأيديولوجى لمؤسسى دولة إسرائيل ، وقد أعطى الكثير من هؤلاء الباحثين الطابع الدعائى للصهيونية وما ترتب عليه ، ويعتبر متحف

هرتزل مثالاً على هذه النوعية من المتاحف التى تخلد تاريخ اضطهادات اليهود فى روسيا كما ترتبط متاحف أخرى بقصة النازحين الأوائل إلى فلسطين كما تسجل متاحف أخرى أنشطة جماعة الهاجاناة (التى قد يفشل البعض فى التفرقة بين أنشطتها وبين الإرهاب المدنى) وكذلك الدور الذى لعبته الفرقة اليهودية فى الحربين العالميتين ، ويوجد أيضًا متحف لأعمال فلاديمير زابوتنسكى ، وهناك متاحف عديدة مخصصة للاضطهاد الذى شنه النازى ضد اليهود وهى تساند ما تنشره إسرائيل عن (الهولوكوست) بصفته أحد الأسباب الرئيسية لإنشاء الدولة اليهودية .

ومنذ سنة ١٩٤٨ استدعت الضرورة استخدام علم الآثار لتحقيق غرض قومى محدد فقد استخدمته الدولة لضمان عقيدتها السياسية وتأكيداتها السياسية . ولا تختلف إسرائيل فى هذا العمل عن العديد من الدول الحديثة التى استغلت الكشوف الأثرية وأحيانًا اتجاهاتها الأساسية لسرعة إقامة قاعدة علمية لوجهة نظرها عن العالم وموقعها فيه .

وخلال فترة ما بعد الاستعمار (عبارة ثقيلة الوطأة ولكنها توضح تمامًا التأثيرات السياسية التى حدثت أثناء النصف الثانى من القرن العشرين) استخدم علم الآثار لتحليل الشخصية القومية للدولة جديثة النشأة حتى أصبح نفوذ رجال الآثار واسع الانتشار ، وعلى سبيل المثال فإن قيام دولة زيمبابوى الكبرى يعتبر إنجازًا ضخمًا بالنسبة للأفارقة الذين أقاموها بعد عقود من إنكار الدارسين لحقيقة أن البدائيين استطاعوا بناء مثل هذه الدولة مثالاً نموذجيًا ، وفى بعض الأحيان تصل نتائج أبحاث رجال الآثار إلى يدى رجل السياسة أو الدعاية مما يجعلها أقل بهجة ، لقد وجهت ألمانيا عددًا من الإنذارات المرعبة قبل الحرب العالمية الثانية [1] ، وبعد ذلك حدثت أمثله أخرى لأنه فى بعض الأحيان تلقى وجهة النظر المتعلقة بالماضى تصديقًا يجعلها تنتمى إلى ديزنى لاند أكثر من انتمائها إلى جدية عالم الآثار أو المؤرخ الذى تعتمد إعادة البناء على جهوده .

ويعتبر علم الآثار علاجًا ناجحًا عند توظيفه خارج حدوده الأكاديمية لأن معظم الناس يستجيبون لرأى الماضى خاصةً إذا كانوا يؤمنون بأنه أرحم أو أكثر سخاء

أو أنه كان يتميز بوجود متسع من الوقت وذلك بالنسبة للحاضر ، ولابد أن تقود وجهة النظر هذه إلى بعض السخافات الماضية مثل عرض إنجلترا فى العصور الوسطى ، وقد سكنها القرويون المرحون الذين يرقصون الرقصات الشعبية القديمة Morris danc-ing ، وبذلك يصعب قبول حقيقة أن حياة الشمال التى تميزت بأنواع التسلية التى تدل على رجاحة العقل والتى سادت خلال القرن التاسع عشر قد حلت محل هذه السخافة .

وقد عرفت السلطات الإسرائيلية مبكرًا مدى الحماس الذى يمكن نشره بين عامة الناس عن طريق توجيه وجهة النظر القديمة بمهارة ونشاط ، وقد كانت متاحف إسرائيل الكثيرة والتى قامت بناءً على مبادرات عامة جزءًا من عملية ربط المهاجرين خاصةً القادمين من أوربا بماضيهم خاصةً فى حالة تلك المتاحف التى تسجل الاضطهادات التى حدثت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين مع العروض الخيالية التى تعرض الأصول الافتراضية للأمة اليهودية فى فلسطين .

ومن الإنصاف أن نقول : إن استغلال نتائج الأبحاث الأثرية بهذه الصورة لم يحدث دون أن يلقى الانتقادات من علماء الآثار الإسرائيليين ، فقد تأكد أن علماء الآثار الإسرائيليين لم يشعروا بالارتياح لأنهم عرفوا أنهم لا يخدمون أهدافًا علمية فقط بل أيضًا أهدافًا قومية ، (٢) وكان عدم الارتياح الذى أثاره هذا الواجب المزدوج واضحًا من خلال تعليق اثنين من رجال الآثار الإسرائيليين الذين انتقدوا هذه الازدواجية ، قائلين : "إن الدافع الدينى لكل من المسيحيين واليهود من جهة والدافع القومى من جهة أخرى يعطى أبحاث الآثار فى إسرائيل نكهة خاصة ، ويحاول علماء الآثار الإسرائيليون بهذه الدوافع تطوير هدفهم الخاص وهو البحث العلمى" (٣) .

وقد شارك علماء الآثار غير اليهود الذين عملوا فى إسرائيل فى الأيام المبكرة عندما بدا أن إسرائيل لن ترتكب أخطاء فى السلوك الإيجابى لعلماء إسرائيل بدون شك ، ودفعهم ذلك إلى قبول وجهة النظر التى تهتم بالأمور الكتابية أثناء حفائرهم ، ولذلك عرض و.ف. ألبرايت أحد رواد علم الآثار الخاصة بالشرق الأدنى فى القرن العشرين تعليقًا ، قال فيه : " كان العبرانيون وخلفاؤهم الإسرائيليون منكبين على البحث منذ أيام إبراهيم حتى العصور الحديثة " (٤) ، أما العالمة ديم كاثلين كنيون

Dame Kathleen Kenyon التى لا يستهان بها فإن أبحاثها فى أريحا كانت ذات أهمية قصوى (٥).

إن المدى الذى يصل إليه اختلاف الدولة الإسرائيلية عن غيرها من الدول عند نفس المرحلة من تطور الأبحاث الأثرية ، هو أنها ضخمت فى كذب صريح الدليل الذى ذكره علم الآثار أى أنها لم تستطع التوصل إليه فيما يتعلق بقضية إسرائيل التى كانت تريد أن تدعم به احتلالها لأراضى فلسطين ، لقد ذكرنا منذ قليل أن إسرائيل وظفت الصالح العام فى الماضى فى إقامة بنية تساند فكرة الاستمرار اليهودى لحكومة إسرائيل (٦) ، وذلك منذ الأيام الأولى لإنشاء إسرائيل ويعنى ذلك توفير المصداقية لفكرة أن المهاجرين من اليهود الأوربيين الذين يشكلون غالبية السكان قد عادوا إلى أرض أسلافهم ، ولا توجد أى أرض فى العالم قد جرى مسحها مسحاً شاملاً أو حفرت مواقعها الأثرية كما حدث بالنسبة لدولة إسرائيل ، وكما قضى الباحثون المسيحيون حوالى قرن من الزمان فى المسح الشامل للتأكد من الأحداث التاريخية التى ذكرت فى الكتاب المقدس وتحديد مواقعها فى الفهرس الجغرافى ، المعاصر فإن إسرائيل ورثت قدراً عظيماً من المعلومات التى تدور حول ماضى هذه الأرض التى أضافت إليها معلومات أخرى عن طريق جهودها الذاتية ، إن إسرائيل بلد صغير ومعظم أراضيها صحراوية ، ولا شك أن مرور قرن ونصف قرن من جهود علماء الآثار الإسرائيليين ، وزملائهم من الأوربيين ، والأمريكيين لم تؤد إلى اكتشاف شيء له قيمة أثرية لإثبات الدعوى التى ترفعها إسرائيل لإثبات أقدمية الوجود الإسرائيلى فى فلسطين .

وهناك رفض قاطع للموقف الذى لا يزال مفهوماً بوجه عام والقائل بأنه كان هناك (منذ وقت موغل فى القدم) وجود يهودى فى فلسطين، فلا شك أن ذلك يحتاج إلى فحص أبعد ، وليس من الصعب تقديم بحث نقدى لتاريخ فلسطين ومساهمة علم الآثار فى تفسير ذلك بعيداً عن الدراسات التاريخية التى تقدم المساندة لهذا الزعم ، ويبين لنا الدليل أن ما جرى قبوله لفترة طويلة ليس إلا أسطورة أخرى مرتبطة بأرض فلسطين ، ومن المؤكد عدم وجود دليل يربط عن طريق أى رابطة مادية تربط شعب إسرائيل بالعصر البرونزى المبكر والعصر البرونزى المتوسط عندما جرت الأحداث التى دونت فى الأسفار الأولى من الكتاب المقدس .

ونقول ببساطة إنه لا يوجد دليل أثرى يشير إلى داود أو سليمان [٧] ، وكذلك فإن طبقات القدس وهى أكثر المدن التى تعرضت لعمل الحفائر فى العالم كله والتى يعود تاريخها إلى وقت وجود مملكتهم لم تكشف عن أى آثار تشير إلى هذين الملكين ، أما المنطقة التى وصفت بأنها مدينة داود فقد أطلق عليها هذا الاسم علماء الآثار منذ حوالى مائة عام مضت مستخدمين الاصطلاح الذى ورد فى سجل الكتاب المقدس لبيان الجزء الذى يعتقد أن داود قد بناه من هذه المدينة .

ويدل هذا المثال على ما يحدث عادة عندما يبحث المؤمنون بإحدى العقائد عن دليل يؤيد معتقداتهم ويبدأون البحث من عند الرأى الافتراضى للوصول إلى ما يؤيده ، وعندما نقرأ الوصف السارى للمواقع التى تعود إلى العصر البرونزى المتأخر فى إسرائيل على سبيل المثال ، فسنجد أنفسنا حيال ملاحظات مثل الملاحظات التالية التى تصف القدس بأنها مكان سبط يهوذا : "إذا افترضنا أنه كانت هناك موجتان من القبائل الإسرائيلية فى القرن الثالث عشر ق .م ....فإننا نستطيع أن نرسم الصورة التالية : عندما انهزم ملك أورشليم فى الموجة الأولى لم يتم الاستيلاء على المدينة ، وفى الموجة الثانية نجح سبط يهوذا فى تدمير المدينة» . (من سوء الحظ أن الدليل المستمد من الآثار ضئيل جداً بحيث يؤيد أو ينفى ذلك .) [٨] [ما بين القوسين من وضع مؤلف الكتاب] .

إن علماء الآثار عندما يتميزون بالذكاء ، فإنهم يتفادون وضع مثل هذه النوعية من الافتراضات لأنهم يبدأون من الدليل وصولاً إلى الفرض الذى تبنى على أساسه الدراسة العلمية .

ومرة أخرى فإننا نفترض اعتماداً على نفس المصدر أن داود استولى على أورشليم مبكراً فى بداية عصره [٩] ما دام لا يوجد دليل على وجوده فى هذه المدينة ، وهذا الافتراض يقول بصيغة أخرى : يبدو أن داود قد نقل مقر كرسيه من حبرون إلى العاصمة الجديدة أورشليم بعد حوالى سبع سنوات من استيلائه على قلعة صهيون [١٠] .

لقد عمل العلماء الذين حاولوا الربط بين سجل الكتاب المقدس وبين نتائج الحفريات على الجمع بين الاثنين باستخدام الأوصاف التى وردت فى نصوص الكتاب

المقدس لتعويض البقايا القليلة والناقصة التى عثر عليها فى الأرض والتى يمكن أن تنسب إلى الفترة التى افترضوا أن نصوص الكتاب المقدس تتعامل معها ، وقد وجدوا أن الحائط الذى بناه داود فى القدس يغطى طبقات القرن السابع مما يدل على بنائه على أيام الحشمونيين فى القرن الثانى ق.م ، أما أقدم المبانى الموجودة فى القدس فهو برج الفصائل الذى بناه هيرودس سنة ٣٠ ق.م .

وكافة هذه الاكتشافات ليست بذات أهمية لأن جميع علماء الآثار غير معصومين من الخطأ ويعملون دائماً على تغيير أو تجديد تقاريرهم كلما ظهر دليل جديد ؛ ولكن فى حالة استخدام إسرائيل علم الآثار لخدمة السياسة فإن ذلك لا يمكن تجاهله بمثل هذه السهولة ، وإذا ظلت الافتراءات المتعمدة موجودة ومنها على سبيل المثال القول بأن علم الآثار قد أثبت وجود النماذج الأصلية التى يتحدث عنها الكتاب المقدس بشكل رمزى أو الافتراضات التى لا يساندها الدليل المادى الذى يدعون أنه يثبت صحتها[١١] .

ومن حين لآخر كانت الحقيقة تسطع من خلال هذه التقارير المتميزة ، وهكذا احتلت التعليقات على الفترة الإسرائيلية (١٢٠٠ - ٨٦٥ ق . م) التى تمثل إحدى الفترات الحرجة التى اعتمدت عليها الدعاية الإسرائيلية مكاناً فى كتابات محررى مجلة متاحف إسرائيل The Museums of Israel التى كتبت تقول :" مع الافتقار الكامل للبقايا فإن متحف إسرائيل لا يعرض عن هذه الفترة إلا صورة ضخمة تمثل جبل سيناء" [١٢]
أما دائرة معارف الحفائر الأثرية فى الأرض المقدسة "The Encyclopaedia of Archaeo- logical Excavations in the Holy Land" فقد كتبت وهى تستعرض تاريخ الحفائر فى القدس قائلة : "إن الدليل التاريخى المستمد من الكتابات المنقوشة والاكتشافات الأثرية فى القدس لا يعطينا قاعدة سليمة لبناء تطور وتاريخ القدس منذ إنشائها حتى قيامها كعاصمة للمملكة الإسرائيلية" [١٣] .

وفى بعض الأحيان يؤدى هذا الارتباك الناتج عن افتقاد الدليل بالرغم من الجهود الجبارة التى تبذل للعثور عليه إلى التعجيل بضياع شىء تم التوصل إليه بصورة طارئة ، وعلى ذلك فإننا ننقل عن مجلة «متاحف إسرائيل» السابق ذكرها ما يلى : " ... وأتى إبراهيم وذريته من أور فى جنوب بلاد ما بين النهر وسكن فى الجزء الجنوبى من

فلسطين ، وبينما تم شراء مقبرة الأسرة للبقاء الدائم بالقرب من حبرون إلا أنهم ظلوا منعزلين ولم يصل إليهم أى دليل محسوس أو مادى " (١٤).

ومن الجائز أن تحوز هذه القطعة البليغةُ الإعجاب أثناء النظر في الربط بين المراوغة والصفاقة وهما الصفتان اللتان تتميز بهما .

والحقيقة فإننا نقول مرة أخرى إنه لا يوجد دليل تاريخي يشير إلى إبراهيم وأسرته ، كما أنه لا يوجد دليل على خروج هجرات من جنوب بلاد ما بين النهرين عند بداية الألف الثانى ق.م. ، أما مقبرة الأسرة فى حبرون فهى محاطة بسور أقامه هيرودس فى القرن الأول ق.م ، ويقول التقليد أنها لا تبعد كثيراً عن وقت إقامة المعبد الثانى فى القرن السادس ق.م ، وهذا السور يقود إليها بوصفها المكان الذى دفن فيه إبراهيم وخلفاؤه (١٥) ، ولا يوجد دليل أثرى يساند هذا الافتراض .

كما أنه لا يوجد دليل أثرى يشير إلى موسى أو الإقامة فى مصر أو الخروج منها ، ولم نجد للأحداث الأثرية التى وصفتها أسفار العهد القديم أى أثر فى حوليات الشعوب الأخرى التى عاشت فى الشرق الأدنى القديم (١٦) .

ولدينا مثال على مسارعة الدارسين الإسرائيليين والسلطات الإسرائيلية بوجه عام للإمساك بأى قشة قديمة يمكن أن تطفو وهذا هو ما أوضحته قضية السجل الضخم للألواح التى عثر عليها فى تل مرديخ وهى موقع العاصمة القديمة المعروفة باسم إبلا ، وكانت هذه البقعة الكبيرة فى سوريا مركزاً لإمبراطورية تجارية عظيمة الأهمية وقد ازدهرت خلال الثلث الأوسط من الألف الثانى ق.م (١٧).

وقد اكتشفت آلاف الألواح المصنوعة من الصلصال المحروق فى هذه البقعة ولا يزال قسم كبير منها لم يترجم وهى سجلات تختص بالتجارة والتجار ، وقد أحدثت هذه النصوص الشفرية القديمة الكثير من الإثارة لأن عدداً كبيراً منها كان يتحدث عن الأشخاص بأسمائهم التى اتضح أنها تنتمى إلى الأسماء المعتادة مثل إبراهيم وداود وسرعان ما أعلن أن هذا هو الدليل المؤكد على أقدمية الوجود اليهودى فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

والحقيقة أنها ليست دليلاً على شىء من هذا النوع لأن الأسماء التى وردت فى ألواح إبلا تنتمى إلى المجموعة اللغوية العادية فى هذا العصر وفى هذه المنطقة ، لقد ظهر أن هذه الأسماء التى لقيت الترحيب بوصفها أسماء يهودية منذ حوالى ألفى عام قبل أن يدور الحديث عن اليهود ، عبارة عن أمثلة لأسماء سامية عادية استمر استخدامها بين عرب هذه المنطقة حتى يومنا هذا .

لقد ألصقت بعلم الآثار الإسرائيلى صفته القومية الغريبة بسبب الفرصة التى أتيحت خلال السنوات الأولى لقيام هذه الدولة على يد اثنين من القادة العسكريين البارزين الذين أفرزتهم المواجهات العديدة مع العرب ، وقد كان اهتمامهما منصباً على الآثار ، وأحدهما هو إيجال يادين الذى كان عالم آثار متخصص وهو ابن عالم آخر وهو ا . سوكينيك أحد أوائل علماء الآثار اليهود الذين عملوا فى فلسطين والآخر هو موشى دايان الذى كان مهتماً بجمع الآثار القديمة والذى لم يكن مهتما بمعرفة المصدر الحقيقى لبعض مقتنياته ، وقد ظهرت هذه الحقيقة خلال أنشطته بعد سنة ١٩٦٧ حين احتلت القوات الإسرائيلية شبه جزيرة سيناء .

وكان يادين هو الشخصية المؤثرة من بين الاثنين حيث تطور إحساسه بالزمن وتطبيق الدعاية لخدمة هذه الدولة ، وعندما اكتشفت لفائف البحر الميت هذا الاكتشاف الذى كان له صدى عالمياً فى لحظة إعلان استقلال دولة إسرائيل اعتبره يادين إعجازاً عظيماً (١٨) ، ومع ذلك فإن الأبحاث التالية أظهرت أن اللفائف لم يكن لها أى تأثير على تطور الديانة اليهودية .

وعلى كل حال ، فقد كان يادين مرتبطاً بحفائر قلعة مسعدة Masada (١٩) تلك المصطبة الصخرية النائية المكشوفة للرياح فى جبال منطقة البحر الميت والتى كانت مقراً للغيورين وهم أعضاء مذهب متطرف ظهر فى فلسطين منذ زمن قديم ، وكان يناوىء الإدارة الرومانية للبلاد وفى سنة ٦٦ للميلاد حاصر الرومان جماعة الغيورين مع نسائهم وأطفالهم ، وبدلاً من الاستسلام أمر قادة الغيورين بقتل النساء والأطفال وفى النهاية قتل الرجال الذين فى القلعة ولم يقبلوا الخضوع للسيطرة الرومانية ، ودخلت مذبحة مسعدة فى مجال الأساطير الإسرائيلية بوصفها دليلاً على تصميم

جماعة من المتطرفين السياسيين اليهود على عدم الاستسلام للاحتلال الأجنبى ، وقد سارت على نفس هذا المنوال عصابة الهاجاناة وعصابة شتيرن (ليفى) التى لم يضع نشاطهما فى خضم المعالجة الصحفية للمشاكل الحيوية ، وقد وصفت مسعدة بأنها رمز على شجاعة اليهود وأنها فى مقام النصب التذكارى الذى يقام للأبطال الوطنيين (٢٠).

والحقيقة هى أن الأحداث التى جرت فى مسعدة كانت ببساطة تمثل دخولاً مؤسفًا فى سجلات التطرف الدينى الذى لا تحده حدود ، ومن المشكوك فيه أن تكون قد حدثت مشاورة مع النساء والأطفال حول المصير الذى ألم بهم ولكن حظهم كان شبيهًا بحظ الذين ماتوا فى مذبحة جونز تاون فى غابات جويانا ، لقد كانوا هم الحبوب المعدة للطحن فى طاحونة هؤلاء الذين أرادوا توظيف الاكتشافات الأثرية لتبرير سياسة الاستغلال التى حدثت بعد ذلك بألفى عام .

وليس من المفيد محاولة تطبيق أساليب البحث الأثرى للكشف عن الأساطير ، إن الأسطورة والشخصيات الأصلية التى أحدثتها ترقد فى أعماق اللاشعور مجتمعة أو منفردة ، ولا يمكن لأكثر القائمين بالحفائر اجتهاداً العثور عليها بالرغم من إمكانية اكتشاف أثرها فى أعمال الرجال ، إنها فى النهاية وببساطة شديدة ليست إلا ظلالاً خالدة .

ولا يستطيع أى من هذه التعليقات أن يظهر سواء كمحاولة لتحقير إحدى القنوات الرئيسية التى تشارك فى مفهوم عقيدة التوحيد التى تتميز بالعمق بحيث لا يتطرق الشك إلى أثرها على العالم ولا الحط من شأن الإنجازات الكثيرة التى حققها علم الآثار الإسرائيلى ، إن طبيعة عقيدة التوحيد إذا كانت تعتمد على مادة حقيقية لا يمكن الإقلال من شأنها سواء بإساءة تطبيق العمليات التاريخية والأثرية أو حتى بما أكتبه أنا هنا ، والكتاب المقدس قبل كل شىء يدور حول العلاقة بين الله والإنسانية ، وهذه العلاقة يصعب إخضاعها للدليل الحرفى حسب طبيعة الأشياء .

وتعتبر إنجازات علماء الآثار الإسرائيليين والفرق البحثية الأجنبية التى عملت فى إسرائيل منذ إنشاء هذه الدولة إنجازات عظيمة ، أما عجزهم عن اكتشاف الدليل الذى

أرادت السلطات الإسرائيلية التوصل إليه فإن ذلك ليس خطأ علم الآثار أو علماء الآثار لأنه لم يكن موجوداً أصلاً حتى يعثر عليه أحد ، لقد ازداد حجم المعرفة إلى حد كبير كما أن علم الآثار الذى أزيح عنه الستار هو نفسه علم الآثار الفلسطينى .

وعلى ذلك فإن الإضافة البارزة فى أصول الإنسانية الحديثة قد جاءت عن طريق إسرائيل فى السنوات القليلة الماضية ، وتم التعرف على الدليل غير العادى المبكر الذى يمثل الإنسان القديم من مغارة القفزة فى الجليل السفلى ويعود تاريخه إلى فترة تتراوح بين ٩٠ - ١٠٠٠٠٠ عام قبل الآن ، (٢١) ، ويعتبر هذا التاريخ أقدم من كافة تواريخ العثور على عينات للإنسان الحديث الكامل ، وكانت أقدم هذه العينات هى التى وجدت فى كرو-ماجنون Cro-Magnon فى جنوب غرب فرنسا ويدل اسمها على أول النماذج المعروفة للإنسان الحديث وتعود هذه البقايا إلى ٤٠٠٠٠ عام قبل الآن ، ويعتبر الدليل الذى تم اكتشافه فى مغارة القفزة شديد الأهمية فى الكشف عن طول الفترة الزمنية التى شهدت ظهور الأجداد الأوائل للإنسان ، كما يرفع أيضًا من احتمالات أن يكون الإنسان الذى عاش خلال العصر الحجرى العلوى فى جنوب غرب أوربا قد أتى من الشرق الأدنى ، وربما يفسر ذلك التشابه البدنى (المورفولوجى) بين إنسان العصر الحجرى العلوى والإنسان الذى عاش فى شرق البحر الأبيض المتوسط بعد ذلك بعشرات الآلاف من السنين (٢٢) .

قدم علم الآثار الإسرائيلي الكثير لتوضيح كيفية انتقال سكان جنوب غرب أوربا وأحفادهم الذين كانوا فى شرق البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى والذين كانوا أسلافًا للفلاحين الأوائل فى شمال العراق وإيران من العصر الحجرى العلوى ومن بينهم جماعات الناطوفيين الذين عاشوا فى الأراضى المرتفعة خلف سهول فلسطين الساحلية (*).

(*) ينسب هؤلاء الناس الذين عاشوا فى نهاية العصر الحجرى العلوى (١٠٠٠٠ - ٨٠٠٠ ق . م) إلى وادى الناطوف بالقرب من القدس ، وهم أول من استزرع النباتات البرية وكانوا يعيشون فى الكهوف الصخرية إلى جانب المناطق المكشوفة ، انظر: قاموس Harper's Bible Dictionary - ص ٦٨٨ تحت كلمة : Natufian . (المترجم)

ومن ضمن الاكتشافات التى تعود إلى هذه الفترة المقبرة التى فى عين الملاحة وهى تخص أحد أصحاب النفوذ ربما كان رئيسًا أو أحد الكهنة السحرة (شامان Shaman) ، [٢٣] وكان قد دفن وعلى رأسه حلية دائرية الشكل ومعه أيضًا بضائع كثيرة من التى توضع فى القبور كما وضعت عصا أو قضيب مزركش بجانب يده اليمنى ، وكان راقدًا على ظهره وقد أسندت رأسه إلى بعض الأحجار مما جعلها ظاهرة وكان متجهًا نحو جبل حرمون وقد كان علم الآثار الإسرائيلى محظوظًا بالنظر إلى كمية الآثار التى اكتشفت من العصور المتأخرة بالرغم من أنها مبكرة جدًا بالنسبة للمصطلحات التاريخية ، وإذا رجعنا إلى الألف الرابعة ق.م ، فسنجد أمامنا اكتشافًا مهمًا بالنسبة لعلم الآثار الإسرائيلى وهو كنز ناحال مشمار Nahal Mishmar الذى وجد فى حفائر مغارة يهودية [٢٤] وهو يتكون من أدوات يزيد عددها على ٦٠٠ أداة من المصنوعات النحاسية الدقيقة وهو كشف غير مسبوق وربما جاز لنا القول بأنها " أدوات تستخدم فى الطقوس الدينية " ، وهى تشتمل على قضبان مزركشة وتماثيل صغيرة لبعض الحيوانات وعدد من الأكاليل التى ربما كانت أشياء أخرى تشبه الأكاليل لأنها تناسب رأس ملك صغير وبذلك لا نستطيع أن نحدد ماهيتها تمامًا ، ويعود هذا الكنز إلى نهاية الألف الرابعة وبداية الألف الثالثة ق.م.

وعلى مدى هذه الفترة الطويلة التى شهدت إتساع أماكن إقامة الإنسان ، والثقافة ، والإنسانية شاركت فلسطين فى تقدم وتقلبات المنطقة التى كانت جزءًا منها ، وقد شهدت النماذج التى قدمناها فى منطقة الشرق الأدنى القديم منذ حوالى ١٠٠٠٠ سنة مضت سلسلة من التحولات الاجتماعية والتطورات التى كانت مختلفة عن غيرها من تطورات الكائنات ؛ ولكن العمليات التى أدت إلى هذه التغيرات غير ، مفهومة تمامًا . وعلى كل حال ، فمن الواضح أن النفس الإنسانية التى عاشت هذه التطورات تتميز بالعمق مثل هؤلاء الذين انخرطوا فى أحداث التغيير الاجتماعى ليحققوا التقدم المادى والتكنولوچى .

ومن الطبيعى أن تنسب كل هذه التغييرات والتقدم لتدخل القوة الأعظم التى ترشد المفكرين إذا أرادوا ذلك ، وعلى كل حال ، فإن تلك هى الاستجابة التى يبذلها الإنسان ويجب التعامل معها على هذا الأساس والتعرف عليها كما هى بوصفها إحدى

الأساطير التى احتاج إليها الكائن البشرى لكى يعيش ، **ومن غير المعقول أن نتجاهل الأساطير أو نقلل من تأثيرها ومن غير المعقول كذلك أن يرتب الفرد مسار حياته كلها حسب أوامرها أو نواهيها أو أن يبحث عن حقيقتها الطبيعية والأسوأ من ذلك أن يستمر فى محاولة فرض تفسيره الشخصى للأسطورة على الآخرين .**

ونجد فى كل أنحاء فلسطين الدليل على التواصل العريض الذى استمر فيه سكان هذه الأرض على مدى تاريخهم الطويل ، ولم يعش التأثير الإسرائيلى لفترة طويلة بالرغم من أهميته الكبرى وهى الأهمية الكبرى فى الأراضى البعيدة عن فلسطين أكثر من فلسطين نفسها ، وعلم الآثار الفلسطينى غنى جداً مثل علم الآثار فى غيره من البلدان التى سارت معها . وعلينا أن ننظر إليه فى هذا السياق ولا نسلم بأن يستولى عليه جماعة من المستوطنين الذين ليست لهم حقوق فى الماضى يطالبون بها فى الحاضر ، وعند هذه النقطة تتساوى الاكتشافات الأثرية التى تنتمى إلى الأزمنة المتشابهة والتى تم التوصل إليها فى أراضى الدول المجاورة مثل الأردن لأن الأردن تاريخيًا جزءُ من فلسطين . **إن أعمال النحت التى تسترعى الانتباه والتى اكتشفت فى عين غزال** (٢٥) **وبعضها من أقدم المنحوتات التى عرفها علماء الآثار تدل على بناء اجتماعى وبينى متطور كان موجوداً فى الألف الثامنة ، وكذلك فإن الحفائر التى أجريت فى منطقة جاوة فى شمال شرق الأردن لا تقل عن ذلك روعة رغم أنها أحدث تاريخيًا** (٢٦) ، وفى تلك المنطقة استقر بعض السكان منذ وقت مبكر (الألف الرابعة) بالرغم من الظروف غير المواتية ، وتعتبر هذه الاكتشافات الأردنية وغيرها كثير انتصاراتٍ عظيمة لعلم الآثار الفلسطينى مثل تلك التى اكتشفت فى دولة إسرائيل فى الوقت الحالى .

وقد كان يحدث فى الماضى البعيد الاستفسار عن الحكمة التى تسلمناها من الماضى بسبب بعض الحكايات أو حتى إنكارها ومن ذلك على سبيل المثال الحكمة التى تتحدث عن الديانات التوحيدية العظمى الثلاثة ، وكانت سلطات الدول المسيحية خاصة الدول البروتستانتية حتى القرن التاسع عشر تمنع كافة الشجعان أو المتهورين من السؤال عن الأمثلة التاريخية التى يعتقد أنها تسبق الحقيقة المسيحية الناصعة ، وكان التأثير السياسى للصهيونية وأعوانها فى السنوات الحديثة قد أدى إلى قبول موقف

أحد فـروع الدراسـات الأكـاديميـة الذى لم يلتـزم به المفكرون فـى أى مكان آخـر وهو استبعاد التحليل العلمى والنقاش للمشاركة فى كلا الحالتين .

وعلى كل حال ، فإن الموقف يتغير الآن فإنه بالرغم من أن التساؤلات عن حرفية الحقـائق المتعلقـة بقصص الكتـاب المقدس تعـود إلى القرن الماضى إلا إنه منـذ خروج التـأثير التـحررى لبعض فروع علم النفس التحليلى من العيادات ونفـاذه إلى مكتبات المؤرخين وبالذات المؤرخين السياسيين مما يعنى توفير مدخل أكثر موضوعية والتـحرر من ضرورة إثبات مجموعة من المعتقدات المسلم بها سابقًا فإنه بدأ فى تثبيت أقدامه ، والآن فإن الدراسـات الأكاديمية الدقيقة للكتـابات القديمة التى تعرض هذه النصـوص القديمة كما هـى بوصفها إنتاجًا حرفيا لقوة أعظم ولكنها لا يعول عليـها تـاريخيًا إلا بشكل هامشى ، قد ظهرت بمعدل متزايد [٢٧] .

وقد كتب البروفيسـور كمال صليبى المؤرخ اللبنانى المعروف بمؤهلاته الأكاديمية ذات الوزن الثقيل سلسلة من الكتب المثيرة للجدل والتى تنتمى إلى هذه النوعيـة التى تسـتـرعى الانتـبـاه ، والحـقـيـقة هى أن نظريتـه تتـجاوز إعـادة بناء الهوية التـاريخيـة للشـخصـيات الرئيسـيـة التى تظهر فى أسـفار العـهد القديم بالرغم من أن ذلك يعتبر ناتجًا ثانويًا لما قـام به من فـحص للنصـوص القـديمة ، وعلى كل حـال ، فـقـد انصب اهتمامه على تطوير الفكرة التى تقول : بأن الأرضية التى جرت فوقـها قـصص العـهد القديم ليست هى فلسطين ولكن غرب الجزيرة العربية [٢٨] .

ونحن فى حـاجة لاسـتـخدام الخيـال لكى نفـهم الغضب الذى اسـتـقـبلت به كـتب الدكتور صليبى لأنه من الصعب أن نتخيل وجود أية فكرة تتـحدى العديد من مـراكز القوة والآراء المتسرعة فى ضربة واحدة ، إن دارسى الكتـاب المقدس ، وعلمـاء اللغات ، والمصالح السياسية ، واليهودية ، والعربية ، والأجيال المتعاقبة من المؤمنين الذين وجدوا العزاء فى القصص التى تنبأت بخلاص الجنس البشـرى وقد تمت وتحققت كلها على أرض فلسطين .

وقد ارتكزت مناقشة صليبى أساسيًا على تحليل وافٍ لأسماء المواقع الجغرافية التى وردت فـى العـهـد القـديم [٢٩] ، وقـد أتاح الإلمام باللغـات التى أطلقت بناء عليـهـا

أسماء الشخصيات ، التى عاشت فى الأماكن التى أطلقت عليها هذه الأسماء ، السيطرة على تحليل معانيها الداخلية ، وهى عملية ضرورية لفحص أية لغة سامية قديمة أو حديثة كما هو الحال بالنسبة للغة العربية .

ولابد أن صليبى وهو مسيحى عربى كان مثل العديد من المؤرخين الذين سبقوه على دراية بصعوبة مطابقة المعالم التاريخية التى وردت فى الكتاب المقدس على جغرافية فلسطين وذلك لعدم تناسب الزمن والمسافات أو علاقات المعالم الطبيعية مع بعضها البعض ، وكان هذا التناقض معروفًا فى الماضى ولكن جرت العادة على التغاضى عنه . وقد وضع صليبى لأول مرة طبوغرافية أراضى الكتاب المقدس كما جرى وصفها فى العهد القديم فوق خريطة غرب الجزيرة العربية (خاصة المنطقة التى تشمل عسير وجنوب الحجاز) ، وقد اتضح له وجود علاقة بين الاثنين وحكم على ذلك حسب المصطلحات التى استخدمها فى مناقشته ، مع تجميع العناصر المختلفة للموضوع بأنها علاقة إلزامية ، وقد دخل صليبى إلى مناطق تعتبر موضع خلاف شديد عندما اكتشفت على أساس المعلومات القديمة والسابقة على الإسلام فى شبه الجزيرة العربية وجود جميع الشخصيات الأساسية الواردة فى قصص الكتاب المقدس ممثلة فى آلهة ، وإلهات الجبال ، والوديان ، والمدن الصغيرة ، والأنهار ، ومناطق الغابات فى شبه الجزيرة العربية القديمة .

ولا شك أن مفاهيم العمل الذى قام به صليبى كبيرة وهى لا تدعو فقط إلى إعادة النظر فى المعتقدات الدينية التى يدين بها عدد ضخم من سكان الأرض على مدى الألفى عام الأخيرة ، ولكنها أيضًا ذات مدلولات عميقة تتعلق بظروف المسألة الفلسطينية اليوم ، ولو كان الموطن الحقيقى للأشخاص الذين ورد ذكرهم فى الكتاب المقدس هو شبه الجزيرة العربية ، إذن فإن مطالبة اليهود بأرض فلسطين تنهار تمامًا ، ولا شك أن صليبى مهتم أساسا بما يطلق عليه فى اصطلاحات الكتاب المقدس اسم فترة ما قبل السبى، وهو يؤكد أنه فى وقت ما بعد السبى حدثت هجرة ، أو إعادة توطين السكان الذين عاشوا قبل ذلك فى غرب شبه الجزيرة العربية فى فلسطين ؛ ولكن الأساس الدينى لادعاءات اليهود فى فلسطين الذى يكمن كما رأينا فى جذور مطالبة

الصهيونية وإسرائيل بشرعية احتلال الأرض يعتمد على الوعد بين مجموعات القبائل التي تتحدث السامية والتي يزعم الصهاينة بأنهم قد تناسلوا عنها وبين الله الذى وعدهم بامتلاك الأرض قبل السبى ، وإذا لم تكن الأرض المزعومة فى فلسطين ولكن فى شبه الجزيرة العربية فمن المعقول أن يسألوا أنفسهم قائلين : أين نحن ؟

وسواء قبلنا دراسة صليبى أو رفضناها (بالرغم من أن الكثير من الدارسين قد رفضوها فلن يظهر فيما بعد من يتصدى لتفنيدها) فإنها قد فتحت مجالاً جديداً للتحليل اللغوى الذى يتطلب اهتماماً أكبر ، وإذا كان الأباء الأولون ، والأبطال ، والقضاة ، والملوك وكافة شخصيات العهد القديم الباقية تحتل مكانتها باعتبارها شخصيات مقدسة ظهرت فى منطقة مجهولة تقع فى غرب شبه الجزيرة العربية حسب مصطلحات علم الآثار إذن فلن يبق هناك شىء على حاله (*) .

ومن الغباء إنكار أن النصوص القديمة لها قيمة تاريخية ، وأنها يمكن أن تقدم المعالم التى تختفى خلف التحليل التاريخى ، وتقيم علامات ذات قيمة تستطيع أن تساعد فى رسم خريطة للمعالم الظاهرة للخبرات البشرية مثلها فى ذلك مثل الالتزامات النفسية للماضى الذى تشكل جزءاً منه ، وعلى كل حال ، فلابد من السماح لها بالبقاء داخل أبعادها المحددة مع عدم توجيهها لتحقيق هدف لم تخلق له ولا تستطيع أن تتعايش معه .

لقد احتار الدارسون لعدة قرون حيال الأوصاف التى قدمها هوميروس عن حرب طروادة ، وحتى اليوم ما زالت هناك فجوة عريضة بين رؤى هوميروس الشعرية فى طبيعة الشخصيات الرئيسية فى الملحمة والفئات المتحاربة التى اشتركت فيها وبين الدليل الأثرى فى سهل سكامندر ، ولكن لا يستطيع أحد اليوم الإصرار على أن مساهمة هوميروس فى الميراث الثقافى لأوربا هى فى المقام الأول مساهمة تاريخية

(*) لم أحاول مناقشة هذه الأفكار التى أوردها المفكر صليبى اكتفاء بما أورده الأستاذ أنيس منصور فى عموده (مواقف) الذى نشر بالصفحة الأخيرة من أهرام يوم ٢٠٠٣/٣/٦ من سخرية لاذعة من أفكار صليبى. (المترجم) .

أو مساهمة ناقصة ، لأن مدينة بريام لا تمثل المستوى الأكبر أو الأغنى للبقعة التى فى منطقة هيسارليك (٣٠) .

أما ملحمة جلجاميش التى تعتبر واحدة من أقدم وأعظم الملاحم الأدبية التى كتبت أولاً فى الألف الثالثة ق.م. (منذ ألفى عام قبل معظم أسفار العهد القديم) فإنها تقص علينا قصة حياة الملك أوروك الذى عاش تاريخيًا فى جنوب بلاد ما بين النهرين والذى حكم فى الربع الأول من الألف الثالثة (٣١) ، إنها تجعل من مشاركته مع صديقه إنكيدو الذى يمثل نموذجًا أسطوريًا كاملاً للإنسان البرى القادم من سهول الاستبس ليصبح الرفيق الذى اهتدى إليه جلجاميش ، ويذهبان معًا للبحث عن جبل سيدار وإلى حافة المحيط ، ثم يذهبان إلى أرض الأحياء ، وكافة هذه المواقع لها نظيرها فى الأقدمية : جبل سيدار فى لبنان ، وحافة المحيط التى يحتمل أنها تقع فى الخليج العربى وأرض الأحياء ، وهذا هو الاسم الذى عرفت به أرض ديلمون الغامضة والتى لها شبيه حقيقى فى جزر الخليج العربى ، وإذا بذلت أية محاولة لرسم خريطة تبين رحلة جلجاميش على أساس هذه التشابهات وللبحث عن الدليل الأثرى عن وجوده فى هذه الأماكن فإن ذلك سرعان ما يؤدى إلى مغامرة يائسة .

وأنا أقول بكل تواضع (٣٢) إننى أفترض أن « متون الأهرام » وهى أقدم وثائق دينية فى تاريخ العالم قد تتضمن عناصر ذاكرة المصريين الجماعية حول أرض واقعة فى الشرق البعيد كان لهم معها بعض الصلات فى عصور ما قبل التاريخ المتأخرة ، إن متون الأهرام هى مجموعة من الطلاسم ، والتعاويذ ، والصلوات ، والترانيم ، متون التى يعود بعضها إلى عصور ما قبل الأسرات وقد نقشت على الحوائط الداخلية للأهرام الملكية على أيام الأسرة السادسة ، وتدل هذه النصوص بوضوح على المكان ، والأحوال الجوية ، والطبوغرافيا (الصورة التفصيلية لسطح الأرض) ، وإذا أراد الإنسان أن يقرأها فلابد له من ذلك بناء على هذه الطريقة ، ولذلك فإن عالم الآثار الشجاع هو من يعمل على إثبات أن هذه المتون تاريخية أو يبحث عن وجودها فى إطار أبعادها الدنيوية .

وهنا تكمن المشكلة لأن أشعار هوميروس أو ملحمة جلجاميش أو متون الأهرام لم تدخل فى إطار الدين السماوى الرسمى ، وهكذا فإن الحقيقة الأساسية التى يبحث عنها المدافعون عن المسيحية هى ما يشعرون به من الحاجة إلى الدفاع عن الحقيقة السماوية للرسائل التى أُبلغت فى العهد القديم عن طريق إمدادها بخلفية تؤكد الحقيقة التاريخية ، هو ما أدى إلى الموقف غير العادى الذى استطاع النشطاء السياسيون خلال القرنين التاسع عشر والعشرين أن يجعلوا منه أساسًا للمطالبة بأرض فلسطين .

إن صدق الكتاب المقدس بصرف النظر عن الثقافات التى استند إليها يعتبر موضوعًا عقائديًا بحتًا ولا يمكن أن يحتاج إلى دليل مادى ، ويستطيع علم الآثار أن يقول لنا الكثير عن الماضى ولكنه لا يستطيع أن يخترعه ولا يستطيع أيضًا عمل أو خلق بقايا طبيعية غير موجودة ، إن المعجزات هى مجال النشاط الإلهى وليست أداة فى يد عالم الآثار.

وهناك سخرية تسعد النفس فى حقيقة أنه بينما كانت الدولة الإسرائيلية تحكم قبضتها على فلسطين خلال عملية استغلال استعداد العالم الخارجى لقبول وضعها بصفتها الأراضى المقدسة فإن محط الآمال الدينية بالنسبة لليهود ، والمسيحيين ، والمسلمين إلى درجة محددة (لأن القدس هى ثالث أقدس الأحرام فى الإسلام) ينبثق من منافس شديد القدم وهو محاولة السيطرة على الأرض المقدسة وهو أقدم من فلسطين وأكثر غموضًا .

وإذا تخيلنا إمكانية تحقيق نوع من البناء الفيدرالى لدولة فلسطين فى المستقبل وهو ما يتخيله هذا الكتاب فإن إنشاء خدمة علم الآثار الفلسطينى قد يجعل الفرصة متاحة لإقامة مستوى معقول للتعاون بين الجماعات الرئيسية فى الكشف عن ماضى بلادها ، وقد كان المسلمون بوجه عام أقل إدراكًا لقيمة علم الآثار من هؤلاء الذين تربوا فى بيئة ثقافية مسيحية أو يهودية ، وهذه هى نتيجة الضغوط الأيديولوجية التى حدثت فى الماضى تلك التى لم تمنع نمو جيل واع من الأثريين العرب فى بلدان شمال إفريقيا ودول البحر الأبيض المتوسط مثل سوريا ولبنان ، أما الأردن فإنها هى الأخرى لديها

جهاز مكون من الإخصائيين الأثريين المؤهلين وأصحاب الخبرات الرفيعة في كافة التخصصات المتعلقة بالبيئة الصحراوية ، ويستطيع الأردنيون مع زملائهم الإسرائيليين تحقيق إنشاء خدمة أثرية متوازنة وذات مهارات رفيعة ، وربما انجرفنا مع العاطفة ونحن نظن أنه عند نقطة بعيدة نسبياً في المستقبل ربما يعمل علماء الآثار الفلسطينيين معًا بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية لكشف ماضى هذا الجزء من العالم القديم الذى يدور حوله الصراع (٣٣).

الهوامش

(1) Bettina Arnold The Past as Propaganda: Totalitarian Archaeology ın Nazi Germany'/ *Antiquity*, vol 46, no 244 , September 1990 . Also ıbıd The Past as Propaganda'/ *Archaeology*, July/August 1992

(2) Talia Shay, 'Israeli Archaeology –Ideology and Practıce', *Antiquity*, vol 63 , no. 241, December 1989 .

(3) 0 Bar Yosef and A Mazer, 'Israeli Archaeology', *World Archaeology*, vol , 13 (3) 1982 , p. 310

(4) W F Albrıght, The Phenomenon of Israel's Archaeology, in Near *Eastern Archaeology in the Twentieth Century: Essays in Honor of Nelson Glueck*, ed James A Sanders/ Doubleday, 1970

(5) Kathleen Kenyon, 'Israelite Jerusalem' in Sanders (ed) as in note 4 above

(6) An expression made notorious by ıts employment as the title of a highly contentious work by Joan Peters/ Harper &Row, 1984

(7) Two important works of impeccable scholarshıp have recently appeared which make clear this absence of hıstorical and archaeological evıdence for the princıpal episodes related in the Old Testament These are Thomas L Thompson/ *Early History of the Israelite People*, E J Brıll/ 1993, and Donald B. Redford, *Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times*, Princeton, 1992 .

(8) Jerusalem' ın *Encyclopaedia of Archaeological Excavations in the Holy Land*, vol II, ed Michael Avi-Yonah, Oxford University Press, 1976

(9) Ibid.

(10) Ibid

(11) See The Jerusalem City Museum' in *The Museums of Israel*, eds L.Y Rahman and Peter Larsen, Secker &Warburg, 1976

(12) The Israel Museum' in *The Museums of Israel*, op. dt.

(13) Jerusalem' in *The Archaeological Encyclopaedia of the Holy Land*, rev.edn, ed. Avraham Negev, Thomas Nelson Publishers, 1986

(14) The Israel Museum'/ op. dt.: note 12 above.

(15) See 'Hebron' in *The Archaeological Encyclopaedia of the Holy Land*, op cit , note 13 above.

(16) Redford, op. cit , see n. 7 above.

(17) For general surveys by the principal excavators see Paolo Matthiae, *Ebla. An Empire Rediscovered*, Hodder & Stoughton, 1977, and Giovanni Pettinato, Ebia *A New Look at History*, trans C Faith –Richard-son, Johns Hopkins University Press, 1991

(18) Y. Yadın, *The Message of the Scroll*, Grosset & Dunlop, 1957 ,

(19) Y. Yadin, *Masada*, Random House,1966

(20) Shay, op cit ,

(21) H Valladas, J L Reyss *et al*, Thermoluminescence Dating of Mousterian "Proto-Cro-Magnon" Remains from Israel and the Origins of Modem Man', *Nature*, vol 133 , 18 February 1988

(22) Ofer Bar Yosef and Francois R Valla (eds), *The Natufian Culture in the Levant*, International Monographs in Prehistory Ann Arbor, Michigan, 1991

(23) See James Mellaart, 'The Levant/ Epipalaeolithic to the Aceramic period, *in The Neolithic of the Near East*, Thames & Hudson, 1975 .

(24) See Treasure (Cave of the)' in *The Archaeological Encyclopaedia of the Holy Land, op* dt

(25) M Tubb, *Mitteilungen der devtscher Orient gesellschaft,* 1985 G. Rollefsen/ *Palaeorient*, 9 2.1983 and 12.1 1986 ,

(26) S. W Helms, *Jawa: Lost City of the Black Desert*, Methuen, 1981 .

(27) See note 7 above for two of the most important recent works.

(28) Kamal Salibi, *The Bible came from Arabia,* Jonathan Cape, 1985 .

(29) See also Kamal Salıbi, *Secrets of the Bible People,* Al Saqi Books, London, 1988 .

(30) James M Otway Jr, 'New Assault on Troy', *Archaeology*, September/ October 1991

(31) Jeffrey H Tigay, *The Evolution of the Gilgamesh Epic*, University of Pennsylvania Press, 1982

(32) Michael Rice, *Egypt's Making*, Routledge, London, 1990

(33) Michael Rice, *The Archaeology of the Arabian Gulf, Routledge, 1993*

الفصل السابع

حقيقة الأوضاع السياسية

إن الاعتقاد بأن إسرائيل تعتبر دولة ذات نوعية خاصة [١] ، وأن مواطنيها من اليهود عبارة عن نوعية خاصة من البشر ، قد أربك عملية البحث عن حل لهذه الأزمة التى تتمثل فى رفض إسرائيل المستمر للتعامل مع النماذج المقبولة من السلوك المتبع فى العالم حاليًا ، وقد كانت غطرسة إسرائيل منذ البداية تمثل حائلاً منيعًا ضد أى نوع من التفاهم مع البلدان العربية ، لقد كانت إسرائيل هى الملجأ الذى يأوى إليه اليهود الأوربيون وقد احتلت الأرض التى كانت حقًا مكتسبًا بالولادة لشعب آخر غير منظم وليس له أصدقاء ، وغير مثقف ولم تعره اهتمامها قط .

وقد قالت مسز مائير وهى رئيسة وزراء سابقة لإسرائيل أنه "لا يوجد شىء يسمَّى الفلسطينيون " ، ثم أردفت قائلة: "إنهم غير موجودين" [٢] ، ومثل هذا الكلام الأجوف الذى يحمل معنى التحدى مثل الملحوظة التى ذكرها قبل ذلك رئيس وزراء إسرائيلى آخر هو إسحاق شامير الذى قام بدور رئيسى فى إنشاء الدولة الإسرائيلية بوصفه قائدًا لعصابة شتيرن الإجرامية التى كانت مسئولة عن قتل الكونت برنادوت مفاوض الأمم المتحدة، واللورد موين وآخرين غيرهما أقل شهرة منهما ، فقد قال شامير : "من فوق قمة هذا الجبل ومن هذه النقطة التاريخية المتميزة أقول إن هؤلاء الناس (الفلسطينيين) يشبهون الجراد بالنسبة لنا." [٣] ، ويبدو أن إقامة إسرائيل قد عزلت الفلسطينيين عزلاً مثيراً للازدراء حسب مصطلحات علم الحشرات . وعلى ذلك فإن الجنرال رافاييل إيتان الذى كان فى يوم ما رئيسًا لأركان الجيش الإسرائيلى قد تحدث باحتقار عن العرب فقال : "عندما نحقق الاستقرار للبلد فإن كل

العرب القادرين على التجول فيها سينطلقون مهرولين مثل الصراصير المخدرة داخل زجاجة" [٤] ومن الصعب فعلاً إجراء حوار مع مثل هؤلاء المغرورين لأن كافة هذه التعليقات تفسر ذلك الاحتقار الذى أصبح علامة مميزة تدمغ الكثيرين من قادة إسرائيل عندما يجبرون على اعتبار الفلسطينيين ليس فقط "إرهابيين" ولكن أناسًا متمردين ، ومن الصعب تجاهل هذه العلامات التى تعبر عن العنصرية . وعلى كل حال ، فإننا نستطيع أن نفهم تجاهل الإسرائيليين للفلسطينيين الذى يتضح لنا استمراره بين الأجيال القديمة من السياسيين الإسرائيليين ، ومن أعجب معالم وجود الدولة الإسرائيلية فى فلسطين والتى ظلت موجودة لمدة تتجاوز العشرين عامًا الأولى من عمرها تتمثل فى المعارضة ضعيفة التأثير التى جرت سواء من جهة الفلسطينيين أو الدول العربية كلها ، وقد أتاحت حرب ١٩٥٦ [٥] وحرب ١٩٦٧[٦] لإسرائيل فرصًا عديدة لاحتلال المزيد من الأراضى والإقلال من تعرضها لمخاطر الهجوم الذى قد تشنه الدول العربية ، وقد زادت المواجهة التى حدثت سنة ١٩٦٧ والتى أطلق عليها اسم النكبة من نسبة المشاكل لدى العرب ، كما زاد إحساس إسرائيل بالتفوق الذى عبرت عنه فى شكل موقفها المتعجرف والانعزالى تجاه العرب ، ولم يستطع الإسرائيليون أن يتوقعوا الأخطار التى يحتفظون بها لأنفسهم بسبب احتلالهم لأراضى الضفة الغربية للأردن وقطاع غزة والتى عادت للظهور بعد عشرين عامًا لتطارد إسرائيل فى شكل غضب جارف .

لقد كان الفلسطينيون فى السنوات الأولى لقيام إسرائيل ضعفاء ، وغير منظمين ، وخاضعين لقيادة فردية معدومة الكفاءة ، وقد اختال واغتر أمام الدول العربية مهرجون من أمثال أحمد الشقيرى وكانت الدول العربية قد أحست بالحاجة لإثبات نوع من التضامن مع الفلسطينيين بصرف النظر عما أبدته من تحفظات وكذلك أمام الهيئات الدولية التى تورطت كثيراً وارتبكت بسبب عرض إسرائيل للقضية بشكل مثير ، لقد كان الموقف الإسرائيلى بالنسبة لمعظم العرب واضح الزيف حتى أن إسرائيل لم تستطع خداع أى سياسى مسئول وكذلك لم يستطع أى شخص حسن النية أن يقبله بشكل جدى ، وقد ظهر رئيس مصر جمال عبد الناصر فى دور الشرير الأعظم بواسطة الإسرائيليين الذين كانوا فى حاجة إلى عدو والذين وجدوا فيه مرشحًا جاهزًا

للقيام بهذا الدور وهو من جانبه استخدم القضية الفلسطينية كعامل مساعد فى دورانه السياسى متزايد التعقيد حول العالم ، وفى النهاية لم يحقق الكثير لنفسه أو بلده مصر أو الفلسطينيين لأنه لم يحقق شيئًا بالمرة (*)وفى نفس الوقت استمرت إسرائيل فى احتلال المزيد من المنافذ المؤثرة فى الرأى العام العالمى ونجحت فى تقديم نفسها بوصفها الدولة الأوربية الصغيرة الجسورة التى تقاوم بشجاعة الهجوم الوحشى الذى يشنه العالم العربى كله ضدها .

وقد انتهزت إسرائيل خلال هذه المدة كل فرصة سياسية أو دعائية أتيحت لها بينما انشغل خصومها بالخلافات الداخلية ، وانقادوا للقيادات التى جانبها التوفيق ، وارتبكوا بموقف القوى العالمية التى قادتهم إلى سوء الحظ ، وعندما اتضحت وحشية إسرائيل وممارساتها القمعية التى أصبح من المستحيل إنكارها أو تجاهلها كانت تبذل بعض المحاولات عن طريق أحد السياسيين المهتمين بالقضية أو مندوب إحدى وسائل الإعلام العالمية الذى لم تتم استمالته تمامًا (أو الترفيه عنه كما كان يحدث غالبًا) بمعرفة رجال الدعاية الإسرائيليين لكى يجذب الانتباه نحو محنة الفلسطينيين ، وكانت مثل هذه المحاولات تبوء بالفشل سريعًا بسبب حدوث بعض الأعمال الوحشية المرتبة بعناية بحيث تقع مسئوليتها على عاتق الفلسطينيين ، ومن المؤسف أنهم ومن يساندونهم كانوا يتباطأون فى تطويع أنفسهم مع حقائق السياسة وكيفية ممارستها ولو حسب أقل المستويات كفاءة .

وقد استمر العالم العربى لمدة لا تقل عن عشرين عاما مرتبكًا بسبب بعض القيادات التى رغم نجاحها فى تحويل العرب إلى قوة سياسية فى العالم ؛ إلا أنها أضاعت السنوات وأعمار الرجال فى الجرى وراء المزايا السياسية وأوهام الوحدة بلا طائل وطبقت السياسات الاقتصادية التى قامت على أسس الاشتراكية المريبة والمفلسة . وخلال هذه العقود الضائعة ازدهرت إسرائيل بصورة مذهلة وتدعم

(*) سيظل الإنجليز ومنهم مؤلف هذا الكتاب فى حقد دائم على جمال عبد الناصر الذى طردهم من مصر إلى الأبد . أما الإنجازات التى حققها فنحن المصريين خير من يعرفها خاصة عندما نقف على قمة السد العالى ونمر بأبصارنا عبر بحيرة ناصر حتى تصل إلى قناة السويس . (المترجم) .

اقتصادها عن طريق المنح الضخمة من أمريكا والسيل الجارف من المبالغ المرسلة بالبريد من يهود البلاد الغربية ، أما العرب فقد انقسموا بين الدول المتقدمة التى اختارت المسار الاشتراكى وبين نظم الحكم المعتدلة أو التقليدية التى رأت أن مصالحها لا تتحقق إلا بالتوافق مع مصالح دول الغرب الصناعية ، وقد وجدت الدول المحافظة نفسها فى مواجهة الموقف الصعب الذى دفعها لتحويل نفسها إلى مجرد عملاء نشيطين لتلك الدول الغربية التى كشفت عن نفسها بوصفها الأكثر قابلية للمتاعب وأفعال لإثارة الإسرائيلية ، واشتهرت البلدان العربية على مدى سنوات طويلة بالمشاجرات الشنيعة والتى كانت تتطور أحيانًا إلى مواجهات دامية ، أما إذا تذكرت البلاد العربية فلسطين فإنها تعاملها كفكرة طارئة أو عسكرى شطرنج ضمن سياسة أخرى قصيرة المدى ، وفى بعض الأحيان جذب بعض القادة ذوى الرؤى الصائبة مثل الملك فيصل ملك السعودية الانتباه نحو فلسطين ومخاطر تزايد النفوذ الصهيونى فى إسرائيل والأراضى المحتلة ليس فقط فى الشرق الأوسط بل أيضًا فى العالم كله ، ولكن بعض هؤلاء الذين يمثلون الأدوار الرئيسية بين الفلسطينيين تجاهلوا صوته والأسوأ من ذلك أنهم تناولوه بالسوء واستحقروه .

ويعتبر الدور الذى لعبته الولايات المتحدة فى هذا السجل المؤسف دورًا لا تستطيع هذه الدولة أن تفاخر به، وقد كان الصهاينة على حق فى توجيه جهودهم المكثفة نحو مراكز القوة الأمريكية فى الفترة التى تلت نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة ، وقد لقيت خطتهم لتوطين المهاجرين الغربيين أصحاب العقليات الأوربية – فى هذه المنطقة الشديدة الحساسية من مناطق العالم – استجابة سريعة من أمريكا التى بدأت فى إنشاء إمبراطورية أعظم وأكثر استقلالاً لعبت فيها إسرائيل دورًا رئيسيًا ، وكانت أمريكا مدفوعة فى ذلك بكراهيتها الجنونية للإمبراطورية البريطانية والمرحلة الاستعمارية التى عاشها تاريخ البشرية .

ولم يكن إنشاء إسرائيل إشارة إلى إضمحلال تأثير المتطرفين الإسرائيليين بعيدًا عنها ، وما دامت إسرائيل قد أصبحت حقيقة فقد حول مؤيدوها انتباههم إلى البلد الذى كان مضيفًا للأمم المتحدة ، وهكذا أصبحت الولايات المتحدة تحس بوطأة القوة الصهيونية (سرعان ما أصبح اصطلاح "إسرائيلى" يتضمن عند استخدامه

شرقًا أكثر) وأنشطتها السياسية والدعائية ، وعندئذ أصبحت السياسة الخارجية الأمريكية أسيرة لمطالب دولة أخرى تعتبر فى حد ذاتها قوة ضئيلة ، ولكن قدرتها على التدخل فيما لا يعنيها قدرة غير محدودة ، وذلك لأول مرة فى تاريخ الولايات المتحدة المفروض أنها كاملة النضج ، وقد أدى استغلال إسرائيل للمجتمع اليهودى ذى الأهمية فى أمريكا إلى استغلال مماثل للسياسة الأمريكية [٧] ، وكان الخضوع الأمريكى كاملاً فقد أساءت إسرائيل استخدام العلاقة مع الولايات المتحدة اعتماداً على تصرفات اللوبى الصهيونى النشيط والذى لا يعرف الرحمة داخل أمريكا ، وبذلك أصبحت أمريكا هى أفضل راعٍ لمصالح الدولة الصهيونية ، وهو اعتبار أصبحت له الأسبقية على سائر الاعتبارات التى يجب أن تجعلها الولايات المتحدة فى المقدمة لتحقيق مصالح شعبها السياسية أو الاقتصادية .

وأصبح من الصعب تقرير من اللعبة ؟ ومن الذى يحرك اللعبة ؟ فى هذا الصراع الغريب بين الدولة ذات القوة العظمى والدولة الصغيرة العنصرية القاصرة على أقلية استثنائية تحميها قدرات عسكرية ضخمة . والحقيقة هى أنه عند كتابة تاريخ هذه الفترة فإن الفصل الذى يعالج تاريخ دولة إسرائيل سيوقف مؤلفيه تجاه حاجز منيع من الشك ، **وبالطبع فإن أول دليل سيكون هو نجاح هذه الدولة الصغيرة فى فرض نفسها على المجتمع الدولى اعتماداً على أسطورة قبلية تعود إلى الألف الثانية ق.م ، وقد استخدمتها لاغتصاب حقوق شعب آخر فى عالم آخر وعصر آخر** ، ولكن مؤرِّخى المستقبل الذين لا نشك فى أنهم سيحترمون السياسة إذا لم يتعرفوا إلى قوة الأسطورة فإنهم سيواجهون احتمالاً أعظم وهو إنجاز إسرائيل الخاص بتوجيه قدر أكبر من السياسة الخارجية والاقتصادية فى الولايات المتحدة فى وقت كانت فيه أمريكا إحدى القوتين الأعظم وفى نفس الوقت هى الأقوى والأشد بأساً.

ولابد أن يعرف المؤرخون أن الدليل أكبر مما يبدو عليه : لقد سمحت الولايات المتحدة لنفسها ، لعقود كثيرة ، بأن تنشغل بمصلحة دولة إسرائيل دون اعتبار لمصالحها الذاتية أو مصالح الجزء الآخر من العالم الذى كانت تتصدى لقيادته ، ولم تقدم أمريكا الكثير بوصفها مسرحًا كبيراً لعرض ضخم انقادت إليه عشوائيًا حتى

أوصلها إلى حافة الحضيض عن طريق شيطان صغير الحجم امتلأ بالحقد وكشر عن أنيابه فأشاع التنافر وعدم الانسجام .

لقد تعهد مرشحو الرئاسة المتعاقبون لكلا الحزبين الكبيرين بالمساندة غير المشروطة لإسرائيل فى مقابل ميزة سياسية قصيرة المدى هى دفع التبرعات المادية لتمويل الحملات الانتخابية ، وفى مقابل ذلك سمح لإسرائيل بسلب الأراضى التى احتلتها متحدية بذلك كافة الأعراف والمواثيق الدولية ، وتوجيه سلسلة من الضربات العنيفة والقمعية ضد السكان المدنيين وتدمير جمهورية لبنان ، وفى نفس الوقت تتسلم منحًا ضخمة من الأموال والمعونات المقدمة من دافعى الضرائب الأمريكيين ، ولم تسمع كلمة احتجاج فى أمريكا . واستمر الإسرائيليون فى طريقهم فى سعادة وسخرية دون بذل أى محاولة لتبرير الأوضاع ، وتسلمت إسرائيل منذ بدايتها منحًا حكومية ومعونات تقدر بمبلغ ٤٣ مليار دولار أمريكى [٨] ، والحقيقة هى أن أمريكا قدمت أيضًا الكثير لشعوب العالم الفقيرة ولكن كرمها بالنسبة لهذه الشعوب قد تقلص فوصل إلى حد ضئيل بالمقارنة مع دفعته لإسرائيل ، ويصعب تقدير الفضل الذى كان مقدراً لها أن تناله لو أنها وظفت بعض ما أضاعته من الكنوز الضخمة على إسرائيل للتخفيف من متاعب الشعوب الأقل حظًا ولكنها أوفر كرامة .

وبالطبع فإن الإعانات الضخمة التى حصلت عليها إسرائيل هى مصدر زراعة الصحراء التى كانت تشكل عنصراً قويًا ومثيراً للعواطف فى الدعاية الإسرائيلية خلال الفترة التى أطلق عليها اسم "الفترة الوسطى" من تاريخها ، لقد جعل الاستثمار الضخم للأموال والتكنولوجيا الذى صب فى إسرائيل سطح القمر خصبًا ومنتجًا ، أما المعجزة الحقيقية فإنها تتجلى فى كرم أمريكا الحاتمى تجاه إسرائيل لأن اقتصادها سيظل مدينًا وسينهار إذا أو ربما عندما يتم سحب هذه المساندة .

لقد كان الخزى الذى لحق بأمريكا عندما رهنت قوتها العظيمة لصالح إسرائيل مركبًا واستمر مركبًا بسبب الأسلوب الحقير والساخر الذى اتبعته إسرائيل فى سلوكها تجاه الدولة التى أحسنت إليها ، ونلاحظ أن المساندة التى قدمتها أمريكا لإسرائيل لم تمنعها من إجبار بعض المسئولين الأمريكيين من بيع الأسرار

الاستراتيجية ولم تمنعها أيضًا من التدخل فى الشئون المؤثرة فى علاقات أمريكا مع الدول الأخرى التى ترى إسرائيل أنها تعوق مسار مصالحها التى تعتبرها فوق الجميع ، وفى مثل هذه الظروف فإن إسرائيل لم تتردد فى استغلال التأثير الذى تتمتع به فى الكونجرس الأمريكى لوضع العراقيل أمام السياسات التى سبق للإدارة الأمريكية نفسها أن اعتمدتها لتحقيق مصالحها القومية الخاصة بها.

لقد وقفت أمريكا خانعة وهى ترى إسرائيل تساند الإيرانيين بشدة فى الحرب مع العراق عن طريق تزويدها بالمواد الضرورية ، والأسلحة ، والخدمات التى يقدمها المخططون العسكريون الإسرائيليون بالرغم من أن هذه المساندة تتحدى القوانين الأمريكية ولو قام بها مواطنون أمريكيون فإنها ستؤدى إلى إتخاذ الإجراءات القضائية ضدهم . لقد كانت إسرائيل هى المحرض الرئيسى فى قصة الحرب الشنيعة ضد إيران ولكن الولايات المتحدة لم تظهر إلا بعض اللوم المعتدل ، وقد أعطت إسرائيل مساندة كبيرة لنظام الحكم الإيرانى المتطرف بالرغم من الخضوع الذى أعطته للولايات المتحدة عند الحجز على السفارة الأمريكية فى طهران والإساءة الشديدة التى وجهها حكام إيران للولايات المتحدة . ويبدو الآن أن كل مكان فى العالم ليس بمنجاة من التدخل الإسرائيلى ، وسواء كان التصدير غير الشرعى للسلاح إلى عصابات المخدرات فى أمريكا الجنوبية عن طريق صناعة السلاح الإسرائيلية ، أو مساندة نظام الحكم الضعيف والمثير للشكوك فى أثيوبيا عن طريق رعاة القرض الذى ناله الجيش الذى كان له دور أساسى فى الكبت الوحشى لمواطنيه ، فإننا نجد إسرائيل حاضرة فى كافة هذه المواقف [٩] .

وعلى ذلك فإنه بالرغم من مسئولية أمريكا جزئيًا فى متابعة ما كانت ترى أنه يمثل مصالحها الحيوية على المدى الطويل ونعنى به إنشاء إسرائيل ، فإن السياسة الأمريكية أصبحت أسيرة لأنانية إسرائيل التى كرست جهدها لهدف واحد . لقد كان الرئيس كارتر هو الشخصية الرئيسية التى انغمست تمامًا فى رعاية المصالح الإسرائيلية وقد كانت النزهةُ المؤسفة التى قام بها فى أرجاء السياسة الخارجية نتيجةً لاتفاقيات كامب ديفيد .

لقد وجه السادات رئيس مصر ضربة عنيفة للإسرائيليين برحلته المفاجئة إلى القدس والتي لم يكن الإسرائيليون يتوقعونها أو حتى يرحبون بها ، لقد ظنت إسرائيل دائمًا أنها لن تخفف من توتر الموقف السياسى فى الشرق الأوسط ، ولكن تخفيف الموقف إلى أبسط صورة كان يعنى أنها لم تعد قادرة على التأمل فى وضعها كدولة عدوانية ضد البلاد العربية ؛ لأن المساعدة الدولية التى تلْقاها تعتمد على قدرتها على تقديم نفسها كدولة محاصرة وفى خطر دائم ، وسرعان ما وقعت إسرائيل فى المحظور بسبب مبادرة السادات وتبدل وجه مناحم بيجين إلى شكل فسره المعلقون بأنه ابتسامة ، وقد أُجبر على المشاركة فيما أصبح معروفًا بعد ذلك باسم مبادرة السلام الإسرائيلية ، ولم يكسب العرب والفلسطينيون على وجه الخصوص شيئًا من المبادرة وعندما أفاقت إسرائيل من الصدمة المفاجئة استعادت السيطرة على الاتفاقيات سريعًا وحولتها لخدمة مصالحها .

وتم الكشف عن سخرية إسرائيل من عملية السلام والمحرضين عليها عندما بدأت عملية الهجوم على لبنان ، وبذلك عجلت بتخريب هذا البلد الصغير الذى لو كان بلا نقاط ضعف فإنه أظهر درجة من التسامح تختلف تمامًا عن نوايا إسرائيل المليئة بالحقد .

لقد قدمت اتفاقيات كامب ديفيد لإسرائيل درجة خطيرة من التشجيع لمتابعة أغراضها العسكرية فقد نتج عن هذه الاتفاقيات عزل دولة تعتبر هى الممثل الرئيسى فى الجانب العربى وهى مصر لقاء ثمن زهيد ، وأحست إسرائيل بأنها حرة فى استكمال سياستها غير المشروعة لزرع المستوطنات فوق الأراضى التى تحتلها ولذلك لم تعد فى حاجة إلى المضى فى ذلك اعتمادًا على القانون الدولى الصريح الواضح ، لقد اختارت إسرائيل مرة أخرى التصرف تحت مظلة التجاهل الفاضح والساخر من القانون والمجتمع الدوليين .

لقد أصبحت العلاقة اللصيقة التى ربطت بين إسرائيل والولايات المتحدة شديدة الضرر بالنسبة لشعبى البلدين كليهما ، لقد اقتنعت أمريكا بدفع مقادير ضخمة من

الأموال وهى سياسة أدت إلى الانعزال عن جزء كبير من الرأى العام الدولى على مدى واسع ، ولو أنه كانت هناك دولة أكثر غطرسة وأقل محاسبة للذات من الولايات المتحدة لتجاهلت مثل هذا الانعزال ، واعتبرته غير ذى أهمية ؛ لأن الولايات المتحدة التى أعلنت نفسها زعيمة لبلدان العالم الحر لا تستطيع أن تفعل ذلك بسهولة ، أما بالنسبة لشعب إسرائيل الذى انتزع من أوطانه الأصلية فى أوربا والشرق الأوسط فإن النتائج خطيرة أيضًا ، وربما كانت أشد خطورة على المستوى الفردى . إن سلوك إسرائيل بوصفها الدولة الصهيونية يعبر عن ورطتها باعتبارها عَرَضًا مرضيًا وباعتبارها أيضًا السبب الأساسى للنكبة التى ستقع على الشعب اليهودى فى إسرائيل .

وبصرف النظر عن أصول الصهيونية بوصفها خطة لإنهاء الاضطهادات الأوربية للشعب اليهودى إلا أنها تحولت سريعًا إلى شىء أكثر تشاؤمًا وحقدًا ما دامت دولة إسرائيل قد تحولت إلى حقيقة واقعة ، وتلك هى مأساة إسرائيل الحقيقية . إن الدافع الذى أدى إلى إنشائها ربما كان كامنًا فى قلوب وعقول الكثيرين من متطرفيها الأولين ، ليس لأنها فكرة تصور المثاليات الرفيعة ولكن لأنها تجاهلت حقوق وطموحات الفلسطينيين، وقد استهانت بهذه الحقوق والطموحات مقارنة بالحاجة إلى إعلان تفوق اليهود الذين أفلتوا من بين براثن الاضطهادات الأوربية وقد تضمن هذا الموقف بذور الفساد التى أصبحت هى نفسها غارقة فيه .

وهناك مجموعة من العوامل التى شاركت فى الوصول إلى هذا الوضع ، ألا وهو إضمحلال المثل الأخلاقية كما يقول الصهاينة ، وقد ازدادت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية واستمرت فى التتابع مع إعادة توزيع القوى السياسية خاصة مع انتقالها من أوربا إلى الولايات المتحدة ، وقد تأثرت السياسة الأمريكية بالقلاقل التى أدت إليها المخاطر التى ظهرت فى طموحات روسيا . إن ظهور الشرق الأوسط بوصفه مخزنًا لاحتياطات البترول التى تحتاج إليها الدول الصناعية وظهور شكل محدد من أشكال القومية يحمل فى طياته نغمات القلق من مخاوف أوربا من الغزو الإسلامى التى استمرت علـى مدى ألف عام (وهـذا عنصر مهم فى نفسية القارة بشكل جماعى منذ أيام الحروب الصليبية) ، وقد ساهم ذلك كله فى خلق موقف سياسى استطاعت

إسرائيل من خلاله متابعة مصالحها بدون عوائق ، إن وجود دولة ذات توجهات غربية في المنطقة أنشأ مفهومًا سياسيًا شديد الإقناع بالنسبة لصانعي السياسة الأمريكية وبعض حلفاء أمريكا.

قد يكون من السذاجة أن نناقش القول بأن إسرائيل استغلت السياسة الأمريكية لتحقيق مصالحها الأنانية خلال فترة ما بعد الحرب بدون موافقة أمريكا نفسها ، ومنذ البداية فإن المساندة التي أعطتها أمريكا لإسرائيل كانت وكما هو متوقع شبيهة بالمساعدة التي أعطتها عملية تعاقب الحكام الدكتاتوريين في آسيا ، وأفريقيا ، وأمريكا الجنوبية لكي تلاحق ما ظنت أنه ضروري لحماية مصالحها الحيوية ، والحقيقة هي أن إسرائيل ربما كانت هي الوحيدة بين هذه المستعمرات الأمريكية التي عاشت وازدهرت إلى درجة أن مستشارها لم يتوقع لها مثل هذا الترحيب رغم كافة الاحتمالات .

ومع مرور السنين تغيرت العلاقة بين الاثنين بشكل ملحوظ بسبب التجمع اليهودي الضخم في أمريكا وأثره الواضح على مصير كل من الحزبين السياسيين الكبيرين ، فقد كانت إسرائيل تمتلك وسائل التأثير غير المتكافئ على السياسة الأمريكية وأصبح هذا التأثير أكبر كثيراً من ذلك التأثير الذي مارسته على سبيل المثال أي جمهورية من جمهوريات ، أمريكا الجنوبية ، أو تايوان ، أو كوريا الجنوبية ، أو فيتنام الجنوبية ، أو حتى قمة انغماس أمريكا المكثف في مواجهة الشيوعية في الشرق الأقصى .

واستطاعت إسرائيل أن تسدد بعض ديونها لأمريكا عن طريق القيام بدور مورد السلاح والمعدات الاستراتيجية للدول والحركات المنشقة التي رأت أمريكا أن لا تظهر نفسها كمورد لها بشكل مباشر ، وكان هذا الوضع مناسبًا لإسرائيل ونتج عنه تقديم نفسها للتعرف إلى أشد نظم الحكم احتقاراً في العالم بما فيها جنوب أفريقيا وإيران مما أدى إلى تطوير صناعة السلاح في إسرائيل نفسها وهي الصناعة التي قام مديروها بممارسة تأثير أكثر حزمًا على سياسات الدولة ، إن صناعة السلاح الإسرائيلية الآن ليست فقط مجرد عنصر مهم في استراتيجيات إسرائيل الدفاعية والهجومية في الشرق الأوسط بل أصبحت أيضًا عنصراً أساسيًا من عناصر تمويل الاقتصاد الإسرائيلي الضعيف وهي تلقى ترحيبًا كبيراً وتمثل مساهمة ذات قيمة كبيرة

فى تشغيل عدد كبير من مواطنى إسرائيل لقاء أجور مرتفعة بما فى ذلك عدد كبير من كبار ضباطها المتقاعدين ، كما تمثل مورداً للعملات الأجنبية التى تعتبر إسرائيل فى أشد الحاجة إليها .

إن انحياز أمريكا الخطير إلى جانب إسرائيل فى مواجهة العناد السياسى وعدم الشرعية ، والاعتراضات التى لا يحصى عددها فى الأمم المتحدة، وعشرات الآلاف من الأفعال المؤيدة لقمع إسرائيل للفلسطينيين ، إلى جانب التغاضى عن اعتداءاتها على الدول الأخرى التى تدعى أنها عدوة لها قد أبطل فائدة أمريكا بوصفها قوة للوساطة أو داعية للسلام فى الشرق الأوسط ومن الصعب الاعتقاد الآن بأن أمريكا لها دور رئيسى تقوم به فى أى عملية للسلام فى المستقبل .

وفرض على الولايات المتحدة أن تدفع ثمناً باهظاً لصداقتها مع هذه الدولة الصغيرة شديدة الخطورة . وبعيداً عن خسارة التأثير السياسى والأخلاقى الذى كانت تتمتع به أمريكا فإن صناعة الدفاع (أو على الأصح الأسلحة الدفاعية) فقدت قدرتها بسبب تدخل إسرائيل واللوبى التابع لها فى الشئون الأمريكية كلما حاول الكونجرس التحكم فى بيع الأسلحة أو الأنظمة الدفاعية لإحدى الدول التى تدعى إسرائيل أنها تعادى مصالحها أو تهدد أمنها.

وأصبحت إسرائيل بالتدريج دولة عسكرية عدوانية تعتمد سياساتها على الأوامر العسكرية وتدخّل كبار الضباط المحالين للحياة المدنية فى سياسات الدولة (١٠) ، واليوم فإننا نجد أن معظم الشخصيات ذات التأثير الفعال فى إسرائيل تنتمى إلى طائفة الضباط القدامى الذين يرتدون الملابس المدنية الذين يؤكد حضورهم فى الكادر الإدارى سيادةَ الوضع العسكرى والطبقة العسكرية التى تمثل الصفوة فى إسرائيل ، ومن الصعب أن نتخيل الوضع الذى يتغير باستمرار فى مجتمع الدولة الإسرائيلية حالياً.

إن تغلغل الأوامر العسكرية والعسكريين فى المجتمع الإسرائيلى يكشف ضحالة الحديث الإسرائيلى المتكرر حول الالتزام بالسلام ، إن إسرائيل ببساطة لا تستطيع أن تقبل السلام لأنها حينذاك ستفقد حالاً المساندة المالية والاستراتيجية من الولايات

المتحدة ، والصهيونية العالمية ، والإعانات الضخمة التى يغدقها الاثنان على خزانتها ، إن إسرائيل لا تستطيع تقبل السلام لأنها ستحتاج إلى تفكيك آلتها العسكرية الضخمة التى شيدتها وصناعة الأسلحة التى تعتمد عليها ، إن تفكيك طاقة إسرائيل العسكرية سيكون إحدى الخطوات العسكرية المهمة التى يجب اتخاذها إذا خيم السلام على الشرق الأوسط .

ويحتاج قبول السلام أيضًا إلى إعلان الالتزام بحدود دولية رسمية محددة ، وقد قاومت إسرائيل ذلك دائمًا وبذلك تصل سريعًا إلى النتيجة الحتمية وهى عدم اعتبار حدودها الحالية حدودًا نهائية ، وغياب الحدود السياسية المعتمدة يقدم لها خطة إمتداد الدولة مستقبلاً ، وقد تأكد ذلك تمامًا عن طريق القسم الضخم من الناخبين الإسرائيليين الذين يتم ترشيحهم عن الأراضى المحتلة كما ورد فى التصريحات المختلفة الخاصة بإسرائيل التى حددها هرتزل بأنها تمتد من النيل إلى الفرات والتى كشف عنها الجيل الأول من الصهاينة بوصفها الإمتداد الحقيقى لطموحات إسرائيل الخاصة بالأرض ، لقد أعلنت الدولة التى طالبت بها إسرائيل كموقف أخلاقى تلتزم به فى مواقفها السياسية من خلال تصريحات كل من يصل إلى منصب رئيس الوزراء وهو أن " الحدود تحددها الأراضى التى يعيش عليها اليهود وليست تلك التى يحددها خط مرسوم على الخريطة" (١١) .

وعلى كل حال ، فإن هذا الوضع تغير مرة أخرى مع أحداث أغسطس سنة ١٩٩٠ التى أدت إلى تدخل الولايات المتحدة ومجموعة من حلفائها لحماية بلدان شبه الجزيرة العربية ، ولا يمكن النظر إلى غزو العراق للكويت فى أغسطس سنة ١٩٩٠ وما أعقبه من أحداث كخط فاصل فى تاريخ الشرق الأوسط مثلما كانت أزمة السويس سنة ١٩٥٦ أو سنة ١٩٦٧ بين إسرائيل والدول العربية أو غزو لبنان سنة ١٩٨٢ ، فقد أدى كل حادث من هذه الأحداث إلى أن تشكل كافة القطع التى تناثرت فى الهواء نظامًا مختلفًا تمامًا ، وكانت هذه هى القضية التى تتعلق بأزمة الخليج ولكن على المدى الواسع ومع الرغبة فى تحقيق الأمان للمنطقة والعالم فى المستقبل ذلك المستقبل الذى لا يستطيع أن يتصوره الخيال السياسى المحموم .

لقد غيرت حرب الخليج من علاقة الولايات المتحدة بعملائها على كلا الجانبين الإسرائيلي والعربي ، عندما بدأت الدول الشيوعية في شرق أوربا في الانهيار بمثل هذا الأسلوب غير المتوقع تركت أمريكا في عالم أصبحت له نظرة مختلفة ؛ لكي تفرض عليه هيمنتها المتوقعة ، فلم تعد البلدان العربية في الشرق الأوسط تتلقى أية مساندة من روسيا وتوابعها ولو حتى على المستوى السياسي بحيث تستطيع أن تحلم بما ينطوى عليه مستقبل المواجهة العسكرية مع إسرائيل ، وعلى هذا المنوال انكشفت الدولة الإسرائيلية بوصفها لا تمثل سوى أهمية هامشية بالنسبة للمصالح الأمريكية وأمن المنطقة في المستقبل .

لقد وضع غزو الكويت القضايا التي كانت تهدد المنطقة ، وكافة هؤلاء الذين كانوا مهتمين بها ، على قمة جدول الأعمال الدولي ، وعلاوة على ذلك فإن الوضع الذي وجدت أمريكا نفسها فيه كان يعني أن تصبح قادرة على إلزام جميع الأطراف الداخلة في المواجهة العربية الإسرائيلية بمواجهة الحقائق الجديدة التي أصبح يعيشها عالم ما بعد حرب الخليج .

والمضحك في الموقف هو أن صدام حسين الذي تفوق انكشاف موقفه السياسي على غبائه الفاحش في إدارة حرب الكويت وذلك عندما تحول الحلفاء إلى القوات العراقية سيئة الطالع مما أدى إلى هذا التغيير المأساوي ، لقد أدى إقراره المتأخر - والذي يخدم مصلحته الخاصة - بحق الفلسطينيين في إجراء مفاوضات في المستقبل لمناقشة نتائج حرب الكويت إلى وضع قضية الحقوق الفلسطينية أمام العالم عندما دفعت كافة العوامل الأخرى الأمريكيين إلى التصرف ، وحتى القيادة السياسية الفلسطينية عندما هبت لمساندة صدام حسين (بما يفوق ما تفرضه الاستجابة المحسوبة من المراوغة والأيهام) ام تنكر على الفلسطينيين فرصتهم المتاحة للقول بأن التاريخ قد سمح أخيراً بالحكم في قضيتهم .

لقد أوضحت حرب الخليج أن مركز المصالح الدولية في العالم العربي والشرق الأوسط - أو سمه كما تشاء - قد انتقل من ساحل شرق البحر الأبيض المتوسط إلى شبه الجزيرة العربية جنوباً وشرقًا ، ولن يتحول المركز مرة أخرى إلى الشمال ، ولذلك فقد استطاعت أمريكا للمرة الأولى أن تفرض سيطرة وسيط السلاح مع تجاهل

الصيحات السافرة لعميلها أو شريكها المخادع وللعاقل أن يختار الصفة المناسبة من بين الصفتين ، وإذا صدر اتفاق حقيقى وليس خياليًا من تعرف منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل أحدهما على الآخر ، فسيكون ذلك نتيجة لشروق حقيقة السياسة على الولايات المتحدة وعلى عميلها الإسرائيلى .

ومن أهم ملامح الأزمة الكويتية أنه عندما كانت الخيارات السياسية تعرض على العراقيين فإنهم كانوا يختارون دائمًا الاختيار الخاطئ ، وقد ظلت القيادة الفلسطينية لمدة طويلة ماهرة فى ممارسة هذا الشكل من سوء الاختيار السياسى ، وقد اتضح الآن أن الإسرائيليين أيضًا عندما يقعون تحت ضغط سياسى أو دبلوماسى مكثف فإنهم يفزعون ويختارون دائمًا أقل الاختيارات فائدة أو أشدها تدميرًا لمصالحهم من بين الإختيارات التى تواجههم .

والمثال الواضح لهذه القدرة على اتخاذ القرارات غير الموفقة فى أوقات الأزمات الصعبة هو إرسال ما يقدر بحوالى ألف رجل من رجال اللوبى (لجنة العمل السياسى الأمريكية الإسرائيلية AIPAC) لمهاجمة الكونجرس فى واشنطون [١٢] . لقد استهجنت المعارضة الغطرسة التى اتبعتها إسرائيل لتوجيه علاقاتها بالمجلس التشريعى الرئيسى للشعب الأمريكى ولجنة العمل AIPAC واللوبى اليهودى الأمريكى بوجه عام هؤلاء الذين اعتقدوا بأن لهم الحق فى استغلال السياسات الأمريكية والقنوات التى تتدفق منها الأموال ليس لصالح الشعب الأمريكى ولكن دائمًا لصالح إسرائيل لقد تلقت لجنة العمل وبدائلها التى اشتهرت بتأثيرها الانتهازى فى المجتمع السياسى الأمريكى أكبر إساءة عندما تدافع هذا اللوبى المكون من ألف رجل للقيام بهذا العرض المشين ، وتلت هذه القصة المؤسفة قصة أخرى عندما تباهى رئيس لجنة العمل فى أعقاب الانتخابات الأمريكية [١٣] بالتأثير الذى حققته الجماعات المؤيدة لإسرائيل فى التغلغل فى اللجان الداخلية للانتخابات الرئاسية وباءت محاولات إسرائيل لاستمالة القوى السياسية الأمريكية بالفشل الذريع ، وكانت هذه الحالة نتيجة لتاريخها الطويل فى خيانة ثقة أمريكا التى شابت معاملة إسرائيل مع أنها صديق وحليف لها على مدى سنوات عديدة مضت وهى حكاية غير جذابة جرت أحداثها خلال فترة تعيسة من فترات التاريخ ، وأشك فيما إذا كانت إسرائيل قد فكرت فى استعادة مصداقيتها فى أى وقت سواء فى الولايات المتحدة أو فى العالم على نطاق أوسع .

وبعيداً عن التغيير الذى حدث فى نظرة العالم لإسرائيل وأدى إلى تحول كبير فى المواقف التى يتخذها مختلف الشركاء فى النزاع ، فإن المهم هو نظرة إسرائيل لنفسها ، لقد تمثلت أعظم جولات إسرائيل وأنجحها فى مجال الدعاية خاصة منذ حرب ١٩٦٧ فى تطوير الفكرة التى تشكل جذور معالم الصهيونية وهى أن إسرائيل دولة تلتزم بالأخلاقيات الصارمة التى لا تلتزم بها معايير الحكم ، وربما كان ذلك يمثل ميراثاً من الفكرة التى تدعو إليها فى بعض المدارس اليهودية ، المتصوفة ، وهى أن اليهود يمثلون ضمير الإنسانية وأن الجنس البشرى سيخلص من خلال معاناتهم ، وتم الربط بين هذه الفكرة الغريبة بوجهة النظر العميقة والسامية عن أنفسهم والتى يساندها بعض المتطرفين اليهود . وترى وجهة النظر هذه أن اليهود يختلفون كيفيًا عن غيرهم ممن يعتبرهم اليهود أقل منزلة ، وقد ذكر أحد رجالهم البارزين أن الله يلزم الأمم الأخرى بالخضوع عن طريق الشرائع المعنوية المجردة والتى تدور حول العدالة والتقوى ويضيف : أن هذه القوانين لا تنطبق على اليهود (١٤) .

وهذه الفكرة الباهرة عن الدور الذى أنيط بإسرائيل واليهود القيام به لصالح الإنسانية تلْقَى قبولاً واسع النطاق على مستوى عامة الناس ، أو نوعية ادعاء التفوق التى يساندها الكثير من الناس بالرغم من كل الدلائل التى توضح مدى ضعف هذه الادعاءات ، وقد كانت ادعاءات إسرائيل فى هذا الصدد لا تنطبق إلا على جزء صغير من العالم وهذا الجزء الذى يتميز بقوة تأثيره يعيش على فكرة الطبيعة الخاصة لليهود حسب مجموعة الأساطير الصوفية التى يشتركون فى نشرها .

لقد تحطمت فكرة الاختيار هذه بشكل لا يمكن إصلاحه عن طريق الأحداث التى تلت غزو لبنان وقيام الانتفاضة ، والآن فإنه ليس فقط هؤلاء الذين عارضوا توسع الدولة الإسرائيلية لأسباب عديدة هم الذين طرحوا جانبًا ولطخوا وقللوا من قيمة الرموز الصهيونية وإسرائيل نفسها التى كانت تمثلها يومًا ما ولكن شاركهم فى ذلك العديد من اليهود فى إسرائيل وفيما وراء البحار .

وقد كانت هذه النتيجة المحبطة للآمال والتى ترتبت على ضياع المفاهيم الأخلاقية بسبب الممارسات التى قامت بها الدولة اليهودية حتى انكشفت أمام العالم فأصبحت

هى الطريقة التى بدأت بها إسرائيل ، وكذلك المواطنون الإسرائيليون ، فى إعادة فحص العديد من الخصائص التى أصبحت صوراً نمطية لليهود واليهودية ، إنها ليست صوراً نمطية للحماس، والرحمة، والفهم، والاحترام العميق والثابت للقيم الإنسانية التى يمكن تقديمها دليلاً على مميزات اليهود فى أفضل صورهم الإيجابية ، ولكنها صور نمطية للجشع ، والنفاق ، والغدر والعنصرية المتعجرفة التى تتعالى على كل من يعترض طريقها أو يعارض أهدافها ، ومنذ حرب ١٩٦٧ أصبح من السهل على إسرائيل أن تلجأ إلى نوعية النقد التى ترفع صيحة "المعاداة للسامية" وهى فى حقيقة الأمر تقصد "المعاداة لإسرائيل".

وهكذا فإن إسرائيل إحدى ضحايا حرب الخليج وقد أصبح وضعها الهامشى بأى مفهوم سياسى أو استراتيجى واضحًا فى المواجهة مع العراق ، وأصبح موقفها المعتدل بالنسبة لحرب الخليج من حيث عدم دخولها فى المواجهة نتيجة لما كانت تعرفه أمريكا عن النتائج الرهيبة التى تنشأ عن ذلك ، على الأقل بالنسبة للحلفاء إذا سمح لإسرائيل بالمشاركة فى الحرب ، والآن تركت إسرائيل كدولة صغيرة عاجزة اقتصادياً فى شرق البحر الأبيض المتوسط ومعرضة لضغوط مماثلة مع نفس أخطار التفكك التى تهدد بعض جيرانها . وما دامت إسرائيل قد استراحت من نهضة التطرف الإسلامى ، وانهيار الشيوعية وآثار انحسار المد العالمى عن الدول العربية المجاورة لها فإنها تستطيع أن تصبح أقلها تعرضاً للهجوم حاليًا ، ولم يكن الإسرائيليون هم فقط الذين تغيروا بهذا القدر الواضح خلال الأربعين سنة التى مضت على إنشاء إسرائيل فقد عاين السكان العرب أيضًا عملية أليمة وفاصلة من عمليات النضوج ، وكانت الأغلبية الكبيرة للعرب الذين يعيشون فى الشرقين الأدنى والأوسط تتكون من الفلاحين ، وقاطنى المدن الصغيرة والبدو أو أشباه البدو ، وكانت غالبية سكان فلسطين الأصليين تتكون من الناس البسطاء، باستثناء القليل من العائلات القيادية فى المدن ، وبعض المهنيين، وكبار أصحاب الأراضى الزراعية .

أما الآن فإن العالم العربى وسواء كان بقية العالم يحبه أم لا ، فقد انطلق من عقال خمسمائة عام من النوم وأصبح قوة فاعلة على المسرح العالمى . وقد حدث ذلك نتيجة للفرصة التى جعلت العرب يتحكمون فى معظم مخزون الهايدروكربون العالمى

(البترول) وأيضاً بسبب التطور الصناعى والتجارى السريع الذى حدث فى بعض الدول العربية ذات الأهمية ، خاصة تلك التى تقع فى شبه الجزيرة العربية وفى شمال أفريقيا بدرجة أقل . وقد يكون هذا التغيير نتيجة لإعادة انتعاش الإسلام ، أو ربما انبعاث الإسلام كقوة ذات معنى ملحوظ نتيجة لصحوة العالم العربى ، وقد يرى البعض مظهر الإسلام المجاهد إنذاراً بالشر ولكن قبل كل شىء فإن العالم العربى قد تغير نتيجة لزرع إسرائيل فى وسطه .

إن الدول العربية (وبالتحديد الدول الناطقة بالعربية والتى تمتد من المغرب إلى الخليج العربى) تعيش أولى فترات النمو والازدهار منذ أيام الإمبراطوريات الإسلامية العظيمة . وفى سنة ٢٠٠٠ يقدر عدد سكان الدول العربية بحوالى ٤٠٠ مليون نسمة ، وهذا الانفجار السكانى سيكون له عدد من النتائج المهمة بالنسبة لإسرائيل وفلسطين .

وسيضع هذا المعدل المرتفع من النمو ضغوطًا اجتماعية وسياسية ملحوظة على دول العالم العربى وعلى الأنظمة التى تحكمها ، إن دلائل المستقبل بالنسبة للدول التى تماثل مصر والسودان تعتبر من وجهة نظر بعض المراقبين عميقة وبالنسبة للجزائر غير مشجعة ، بينما نجد أن بلداً مثل الأردن تأمل أن تحقق اقتصاداً مستقلاً ولكن بصعوبة شديدة .

وبينما تتحرك هذه الدول خلال الفترة الحرجة من تاريخها فسيصبح من الصعب على حكامها مقاومة الإشارة إلى وجود إسرائيل فى وسطها كسبب لسوء حظها ، وإذا حدث ذلك فسيرتفع مستوى الصراع بين إسرائيل والدول العربية ليصل إلى الحد المحموم أو المُهلك .

ومن السهل أن يصبح هذا الناتج خطيراً بالنسبة للسكان اليهود فى إسرائيل ، ويجب أن يكون واضحًا الآن أن الولايات المتحدة لن تستمر فى أداء دورها كمدافع كريم لا ينتقده أحد وممول عالمى يساندها بنفس الدرجة التى لم تلقَ مثلها على مدى السنوات التى مرت منذ إنشائها ، وستتضح علامات التهديد التى ستؤرق أمن إسرائيل ألا وهى تضاؤل المساندة العسكرية ، والمالية ، وانخفاض مستوى الاستجابة السياسية فى الكونجرس والهيئات الدولية التى تتوقعها إسرائيل من أمريكا .

ومع انسحاب تأثير الولايات المتحدة فستصبح إسرائيل مكشوفة بشكل مفجع ، يتواكب مع الانهيار الحتمى للاقتصاد الإسرائيلى ، وسيصبح الاقتصاد العالمى خاصة اقتصاد الشرق الأوسط واقعًا تحت ضغوط متزايدة خلال السنوات الأخيرة للقرن العشرين وما بعدها ، أما مخصصات الدول الصناعية المالية المخصصة للاستثمار فيما وراء البحار فستوجه لإعادة بناء اقتصاديات أوربا الشرقية ، وقد بدأ حاليًا ظهور انخفاض التوتر بين الشرق والغرب نتيجة لخفض ميزانية الدفاع ، وستعانى صناعة السلاح الإسرائيلية وهى تمثل أحد العناصر المهمة فى اقتصادها تبعًا لذلك ، ولا شك أن ، ذلك سيؤدى إلى قيام إسرائيل برحلات إلى عالم المرتزقة وتسليح احتكارات المخدرات وهو أمر مؤسف حقًا .

الأحداث التى تمت فى الخليج عندما قامت العراق بغزو الكويت ورد فعل الدول الصناعية فى العالم على هذا الغزو قد وضعت إسرائيل فى حالة توقع لما سيأتى به المستقبل ، وقد يكون دافع الولايات المتحدة لهذه الاستجابة العنيفة للتهديد العراقى بسبب تهديدات صدام ضد إسرائيل خلال الأسابيع التى سبقت غزو الكويت ، ولو صدق هذا التخمين فستكون هذه هى الفرصة الأخيرة التى تتأثر فيها السياسة الأمريكية بضرورة رعايتها لأمن إسرائيل ، ولا تستطيع إسرائيل أن تفعل شيئًا لحماية الإمدادات البترولية الحيوية بالنسبة لأمريكا أو الغرب ، وكانت قيمتها فى تلك الأيام التى اتضح فيها أن القومية العربية على وشك أن تصبح قوة حقيقية لابد من عمل حساب لها بتقديم شخصيات معارضة للقيادة الجماهيرية من أمثال عبد الناصر أو التهديد القادم من الدول المخالفة مثل سوريا التى تساندها الحكومة الروسية التى رضيت بالسماح لأتباعها بالمحافظة على غليان القدْر فى الشرق الأوسط ، مثل أمريكا (وبعض الدول الأوربية بدرجة أقل) التى سمحت لقدرات إسرائيل غير المحدودة على التدخل فيما لا يعنيها بأن تتحول لمعارضة الطموحات السوفيتية فى المنطقة ؛ ولكن هذه الطموحات أيضًا ولت وانقضت ، ولم تعد إسرائيل يعول عليها فى القيام بالمهام السياسية الكبرى .

وقد أظهر العرب خلال العقود الأخيرة علامات تدل على أنهم أصبحوا أكثر حنكة سياسية ومع هذه الحنكة السياسية تأتى الثقة ، وظهر العالم العربى بما فيه القيادة

الفلسطينية مستعداً للتجاوب مع المبادرات التى تهدف إلى حل الأزمة الطاحنة التى أحاطت بالشرق الأوسط فترة طويلة .

أتيحت للتغيير الحقيقى فرصة الحلول بمجىء حكم جديد إلى البيت الأبيض بدا أنه أقل ارتباطاً بإسرائيل وذلك للمرة الأولى منذ عشرات السنين ، ودخل الأمريكيون فى محادثات ثنائية حذرة مع الفلسطينيين ، وفى النهاية ظهر أن السياسيين الحكماء فى صفوف القيادة الفلسطينية والذين كانوا يبحثون من خلال محادثاتهم عن التواصل لا المواجهة يتجهون نحو تحقيق نقلة حقيقية فى السياسة الفلسطينية لمواكبة التغيير فى السياسة الأمريكية.

ولكن ما كان يحدث فى الماضى تكرر هنا أيضاً حيث أدى عمل غير مسئول قامت به إحدى الجماعات الفلسطينية المنشقة إلى انهيار التحرك الهادئ نحو التواصل الدبلوماسى وتراجع التبادل الذى أوشك أن يعمل ، ومرة أخرى وليس للمرة الأولى نجد دليلاً على أن الإسرائيليين قد تسللوا إلى داخل الجماعة الفلسطينية المذكورة ، ومن الواضح أنهم عرفوا الخطة التى تتمثل فى إرساء قارب على ساحل إسرائيلى قبل التنفيذ بعدة شهور ، وقد سمحوا للخطة بالاستمرار دون أن يتصدوا لها وقد استغلوا هذه الفرصة وهم يعرفون أنهم سيقدرون على إثناء الأمريكيين عن اتصالاتهم مع الفلسطينيين وفى ضوء عمل إرهابى جديد ، وبذلك جرى تنفيذ هذا الإجراء بدون علم قيادة حركة التحرير الفلسطينية .

وتوقفت المحادثات الثنائية مع الأمريكيين نتيجة لذلك ، وعندما حدث غزو الكويت دفعت هذه القضية هؤلاء الذين كانوا ينفذون سياسة معادية لأمريكا من بين القيادة الفلسطينية إلى مساندة العراقيين على أساس أن تصادم قيادة هذا البلد مع القوات التى تقودها أمريكا سيجعلها تعارض احتلالها غير الشرعى لبلد عربى مجاور .

إن استمرار بقاء دولة إسرائيل فى فلسطين يهدد ليس فقط سلام الشرق الأوسط (وكذلك استقرار العالم الغربى) ولكن أيضاً سكان إسرائيل من اليهود الذين قامت الدولة الإسرائيلية للحفاظ على سلامتهم، وإذا لم يتغير موقف إسرائيل جذرياً فإن شعبها سيواجه دائماً احتمال مجىء اليوم الذى يخشى اليهود مجيئه (يقول البعض إنه

لابد من مجيئه حتمًا) عندما ينجح العرب فى إبادة ما يصرون على أنه يمثل إهانة لحقهم التاريخى الذى يمثل استمرار وجود إسرائيل كدولة يهودية عنصرية عدوانًا عليه .

ونقول شيئًا واحدًا وهو أن إسرائيل لن تظل تعتمد إلى الأبد على المساندة المطلقة من الولايات المتحدة التى لن تستطيع البقاء اقتصاديًا أو عسكريًا بدونها وكذلك المساندة اليهودية العلمانية المتزايدة فيما وراء البحار ، وهناك ما هو أكثر من ذلك وهو أن الإسرائيليين يواجهون الانتقاد بسبب تأثيرات العوامل النفسية المعاكسة التى تنشأ فى داخل نفسيتهم الجماعية والتى تمضى فى طريقها لتدمير السلوك الأخلاقى لليهود الإسرائيليين أنفسهم إذا لم يكن هذا السلوك قد تقوض تمامًا ، وتفسر رؤية شباب الجنود الإسرائيليين وهم يحطمون أذرع الفلسطينيين المسلحين بالحجارة والأطفال الذين يقتلون بالرصاص ما حدث بالفعل لنفسية إسرائيل الجماعية بشكل هائل .

وقد ظهر لنا خلال هذا القرن بوضوح أن كافة الناس والمجتمعات يتحملون جميعًا مسئولية الأفعال الشريرة كأفراد ، وأنهم لا يستطيعون التهرب من تهمة التربية الخاطئة حينما يجعلون المسئولية قاصرة على العسكريين أو القيادة السياسية . لقد أوضحت المناقشات أن الشعب الألمانى بأسره كان متهمًا باقتراف الشر الذى ارتبط النازيون باسمه ، وليس فى الإمكان مناقشة القول بأن أفعال الحكومة أو النخبة الحاكمة مختلفة عن الشعب الذى تحكمه أو الذى يذعن لفكر هذه النخبة . وبذلك لا يمكن التغاضى عن المسئولية الجماعية تجاه الأفعال الخاطئة ، كما أن الذنب الجماعى يمثل ظاهرة شبيهة بالذنب الفردى عن الأفعال الخاطئة التى تقترف أو يتم الصفح عنها . ويمكن القول بأن إسرائيل قد أوضحت هذا المبدأ بشكل صارخ فى تطبيقها العقوبة الجماعية ضد القرى الفلسطينية ردًا على الأعمال التى ينفذها الأفراد الذين يكون أفراد عائلاتهم وجيرانهم أعضاء فى القرية موضع الاتهام بمعرفة سلطة الاحتلال التى تقترف هى نفسها أفعالاً غير مشروعة مثل الحجز على الأراضى ، وزرع المستوطنات . ويعتبر الخط الفاصل بين مثل هذه الأفعال وأفعال العنف النازية التى ارتكبها جنود فرقة الانقضاض النازية لتدمير الممتلكات اليهودية فى سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية خطأ واهيًا .

إن كل إسرائيلي يعيش في إسرائيل وكل شخص يهودي أو غير يهودي يعيش خارج دولة إسرائيل ويقترف أفعال دولة إسرائيل إنما يشارك في الذنب الذي يعرف الآن أنه يمثل جزءًا بارزًا من ميراث الصهيونية ، وهذه الحقيقة مؤكدة تمامًا مثل الحقيقة الموجودة في حوليات التاريخ الألماني وهي أن كل ألماني تغاضى عن استمرار الحكم النازي يشترك في المسئولية عن اضطهادات اليهود وكافة الضحايا الآخرين مثل الغجر، والسلافيين ، والشواذ، والأوكرانيين الذين سقطوا ضحايا للنازية ، ومن الأمور المرعبة أن ترفع قضايا مشابهة ضد إسرائيل ، لها سوابق شريرة مماثلة ولكنه أمر لا مفر منه .

وليس من السهل تجاهل مظهر المجتمع السياسي الإسرائيلي المكون من الجماعات الفاشستية المتطرفة مثل حزب ساش ، وبعض الأجنحة المتطرفة من حزب الليكود وأتباعها ، والحقيقة هي أن السياسات العنصرية للمتطرفين الذين يكرهون العرب في السنوات الأخيرة أصبحت راسخة في الضمير السياسي الإسرائيلي وليس من السهل استئصالها هذا إذا كان استئصالها ممكنًا أصلاً .

ويتميز المتطرفون على الأقل بصفة الأمانة لأنهم يعلنون في ثقة زائدة الحقيقة التي يؤمن بها الكثيرون من مؤيدي الدولة الإسرائيلية المتحفظين والحذرين في أعماق قلوبهم ؛ ولكنهم يعرفون أنه من غير المناسب الحديث عنها بالتفصيل ، ألا وهي الزعم بعدم وجود الفلسطينيين عن طريق ترديد شعارات مثل " أرض بدون شعب... " وهذه كلها تكشف عن حقيقة الحلم بأن تصبح إسرائيل أرضًا خالية من العرب ، وهو شعار أُعلن مرة بما يفيد أن سكان دولة إسرائيل هم فقط اليهود .

وتتزايد داخل إسرائيل المطالبة باستبعاد غير اليهود أو بتعبير أدق السكان العرب إلى خارج إسرائيل ليقيموا في الأراضي العربية المحيطة بها ، وبناء على ذلك حدثت بالفعل عمليات نفي المتطرفين الفلسطينيين بما يخالف القانون الدولي وشروط معاهدة جنيف سنة ١٩٤٩ التي وقعت عليها إسرائيل .

ويعتبر إستخدام إصطلاح الاستبعاد Transfer بالنسبة للسكان الذين ينتزعون بلا رحمة من جنورهم المتوغلة في أرض أسلافهم اصطلاحًا مشئومًا ، لأنه يفسر مرة

أخرى - إذا استدعى الأمر وجود تفسير - كيف تعلمت إسرائيل بشكل جيد الدروس التى تلقنها اليهود عن مضطهديهم الذين استخدموا تعبير "الحل النهائى" بينما هم يقصدون الإبادة .

ويعتبر مفهوم " استبعاد السكان " مفهومًا عميق الجذور لدى عناصر الجناح اليمينى المسيطر على السياسات الإسرائيلية وحتى قبل تكوين الدولة اليهودية كان إصطلاح استبعاد السكان العرب يدور على الألسنة بوصفه إحدى وسائل تأكيد الصفة اليهودية الخالصة بالنسبة لأى دولة تنشأ فى فلسطين . وهذه السياسة لقيت الترحيب لدى حزب ليفى الذى سبق عصابة شتيرن التى تمسك قادتها دائمًا بهذه الفكرة ، ولم ينكر إسحاق شامير أحد قادة عصابة شتيرن الناجحين فى موقعه الأخير ، مثلما كان فى بداية ظهوره ، هذا المبدأ الجوهرى للعقيدة الصهيونية والذى تردد ذكره كثيرًا فى الكنيست وبين جماعات المستوطنين الأكثر إصرارًا . ولكن من الخطأ الشنيع القول بأن الجناح اليمينى هو الوحيد فى إسرائيل الذى يلتزم بسياسة استبعاد السكان العرب ، فقد كتب ديفيد بن جوريون - أول رئيس لوزراء إسرائيل - منذ أكثر من خمسين عامًا إلى ابنه قائلاً : "علينا طرد العرب والاستيلاء على أماكنهم ... وإذا إضطررنا لاستخدام القوة فلن يكون ذلك لتجريد العرب من ممتلكاتهم فى النقب وغور الأردن ؛ ولكن لضمان حقنا فى الاستقرار فى تلك الأماكن - ومن ثم تكون القوة تحت تصرفنا." (١٥) .

ويوحى التشدد فى السياسات الصهيونية على مدى الأعوام بهذه الفكرة بالرغم من أنها غير مكشوفة ولكنها ما زالت حية وقادرة على الظهور فى كل وقت ، وقد طور زابوتنسكى الفكرة نفسها عندما اقترح خلال إحدى شطحاته الخيالية ضرورة استبعاد السكان العرب من فلسطين إلى الدول العربية المجاورة عن طريق دفع أموال لهذه الدول لتسهيل استيعابها للفلسطينيين (١٦) .

وعندما نفحص أصول الدولة الإسرائيلية ومبعثها الصهيونى سنلاحظ وجود أمثلة من أساليب الوحشية أو الإرهاب المنظم الموجهة ضد ما يوصف بأنه " أهداف رقيقة" ، إن التحريض المتعمد على الأفعال السياسية المتطرفة كما حدث فى حالة بعض الأفراد

البسطاء الذين كانوا يعيشون فى التجمعات اليهودية فى الأراضى العربية ، ما زال مستخدمًا ، لقد وجِّهت الضربات المستمرة نحو الأهداف المدنية فى فلسطين أثناء الانتداب وقد أصبحت الآن نماذج تحاكيها أساليب الإرهاب المدنى التى طبقتها مؤخراً الجماعات السياسية فى سائر أنحاء العالم .

إن الهدف الصهيونى المعلن والذى لا يخفى على أحد وهو "إخلاء الأرض" من سكانها العرب كان له صدى سيئًا بالنسبة للأحداث التى تجرى اليوم فى جنوب شرق أوربا ، بحيث إن الطرد الجماعى للعرب الفلسطينيين فى الأيام الأولى لقيام إسرائيل ذلك الذى استنكره الإسرائيليون ومساندوهم ، صار الآن مسجلاً وموثقًا بما يعنى أن الإتهامات الموجهة لإسرائيل بسبب سلوكها غير الشرعى لا تلقى اليوم سوى هز الكتفين ، أى اللامبالاة لأنها لا تختلف كثيراً ، لقد طرد ثلاثة أرباع مليون من الفلسطينيين من منازلهم . أما الإشاعات التى تقول بأن الدول العربية أمرت بقيام هجرة جماعية للفلسطينيين من أراضى أجدادهم فقد لقيت رواجًا واسعًا حتى إتضح أنها كانت اختراعًا كاذبًا ، وقد أكدت بعض الأحداث مثل المذبحة التى قام بها الإسرائيليون ضد النساء والأطفال فى « دير ياسين » استمرار وفاعلية سياسة إسرائيل الخاصة باستبعاد السكان العرب .

أما أن تصبح هذه العملية هى السياسة التى تتبعها إسرائيل فهذا هو الأمر الذى يعجب له الجميع ، وذلك لأن الصهاينة لم يحاولوا منذ أيام الانتداب أن يخفوا نواياهم لطرد العرب ، وقد عمل هرتزل، ووايزمان ، وبن جوريون جميعًا على إعلان أن السكان الأصليين لابد وأن يقتنعوا بضرورة إخلاء الأرض وتركها للمهاجرين ، بصرف النظر عن وسيلة هذا الإقناع ، وقد أقيمت هيئة صهيونية لتنظيم هذه العملية أطلق عليها اسم مباشر هو: لجنة استبعاد السكان The Population Transfer Committee.

وأصبح مصطلح " إخلاء الأرض " هو المصطلح الذى استخدمه وايزمان ووصفه بأنه "خارق للطبيعة" (١٧) ، وهناك مصطلح آخر موضوع على رأس قائمة التعبيرات الرقيقة المستخدمة لوصف الإنكار الشديد لحقوق السكان الذين يعتبرون من غير الأصدقاء ، هو مصطلح : "التطهير العرقى Ethnic Cleansing " بوصفه المصطلح المفضل

فى الاستخدامات المتداولة ، أما " استبعاد السكان " فهو مثال صهيونى لوصف الكلام السياسى الخبيث الذى يحتمل معنيين . ويقف على رأس القائمة إلى الأبد مصطلح "الحل النهائى"، وليس هناك اختلاف كيفى بين المضمون الفلسفى لهذه القائمة التى تصنف القسوة أو قدرتها على تدمير هؤلاء الذين تُوجَّه نحوهم مثل هذه اللغة التى لا تعرف الرحمة وفى نفس الوقت تكشف عن حقيقة هذه القسوة .

وتعتبر فكرة طرد العرب من إسرائيل التى ما زالت مستمرة عميقة الجذور فى وعى هؤلاء الذين كانوا مسئولين عن حكومة إسرائيل أثناء قيام هذه الدولة ، بالرغم من أن هؤلاء المطرودين أفراد معدودون فى الحالات الفردية أو يعدون بالمئات فى الحالات الأخيرة . ولابد أن نتذكر عند الحكم على إسرائيل فى ضوء هذه الأمور أن الدولة من بين الدول الموقعة على اتفاقية جنيف التى تتضمن المادة ٤٩ التى تقول : " **يحظر الإستبعاد الفردى أو الجماعى للسكان ، وكذلك نفى الأشخاص الذين تحت الحماية من الأراضى المحتلة إلى أراضى دولة الإحتلال أو أراضى أية دولة أخرى محتلة أو غير محتلة بصرف النظر عن الدافع** ".

ومن الصعب ابتكارُ حظرٍ دقيقٍ الكلمات من نوعية السلوك الذى مارسته إسرائيل ، وقد تأكد بمعرفة أن حاميها الرئيسى سيقف دائمًا بينها وبين نوعية العقاب الذى سيوقع عليها بسبب مثل هذا التجاهل للمعاهدات الدولية التى تعتبر هى نفسها طرفًا فيها .

وفى الوقت الذى نشأت فيه الدولة الإسرائيلية وأثناء الحرب التى حدثت بعد ذلك تم طرد مئات الآلاف من الفلسطينيين من منازلهم أو بسبب الإرهاب والتهديدات التى قامت بها السلطات الإسرائيلية فيما بعد مما دفعهم إلى الهروب ، ولا ننسى أن إسرائيل لها تجربة ضخمة فى إدارة عمليات استبعاد السكان أو نفى الأبرياء من مواطنهم . ولا ننسى أيضًا حقيقة أنه بينما كان المستبعدون الأوائل قد تشردوا على يد قادة حزب الليكود فإن حزب العمل هو الذى ظل مسيطرًا على السياسات الإسرائيلية فترة طويلة أدت إلى إشاعة الدمار الشديد بين الجماعات الفلسطينية .

وتعتبر الطبيعة الغريبة وغير المستقرة للسياسة الإسرائيلية هى الميراث المباشر لتاريخها المعقد وغير المتوازن ، فقد سيطر حزبان فقط على شئون الدولة منذ إنشائها وهما يمثلان التيارين الرئيسين للسياسات الإسرائيلية ، أما حزب العمل المعتدل ذو الأفكار اليسارية فهو شديد الالتزام بالصفة الصهيونية ، أما حزب الليكود فهو ائتلاف لعناصر الجناح اليمينى التى انحدرت من أنصار زابوتنسكى ، وكلا الحزبين الرئيسين يتلقى المساندة من مجموعة متغيرة من الأحزاب الصغيرة التى تتراوح ما بين الماركسية من جهة والمتطرفين الدينيين من الجهة الأخرى . وكان لحزب العمل فى السنوات الأخيرة حكومة احتكارية فى إسرائيل وعلى سبيل المثال ، فإن تأثير حركة الكيبوتزات التى كان لها ثقل ملحوظ على المواقف الاجتماعية والسياسية للعديد من المهاجرين وعلى الجيل الأول من اليهود الذين ولدوا فى إسرائيل قد أدت إلى الاتجاه نحو تكوين سلسلة من الحكومات المعتدلة التى تميل نحو اليسار خلال السنوات الأولى لقيام دولة إسرائيل ، وكانت سياسات تلك الحكومات متشابهة فى العديد من جوانبها مع الحركات الاشتراكية الأوربية التى أخذت عنها الكثير من سياساتها الاجتماعية والاقتصادية ؛ ولكن بصرف النظر عن ولائها للتيار الفكرى لدول غرب أوربا فقد بقيت الحقيقة المهمة والمحيرة المتعلقة بالمواجهة مع السكان الأصليين التى ظلت تلون كافة معالم الحكومة والإدارة فى إسرائيل نفسها ، وبعد ذلك فى الأراضى المحتلة أيضًا ، ولم تحل هذه المشكلة بل إنها حتى لم تلق اهتمامًا من الصهاينة الأوائل كما أن حاجتها للحسم لم تلق أيضًا إلا اهتمامًا صوريًا من أدعياء الاشتراكية التى تظاهر بها الصهاينة ، ولو كانوا صادقين فى انتمائهم إلى ما دعت إليه المبادئ الاشتراكية لعملوا على معالجة تردى الأحوال السياسية والاقتصادية للعرب بحيث تصبح ظاهرة فى تخطيطهم ، ومع ذلك فإن حزب العمل الإسرائيلى الذى ينتمى أساسًا إلى الجذور الفكرية القادمة من شرق أوربا ظل يحتفظ بعلاقات ودية مع الحركات الاشتراكية فى الغرب .

وقد أفادت هذه العلاقات فى تطوير صورة الاشتراكية الإنسانية المعتدلة بوصفها إحدى الصور النمطية للمهاجر الإسرائيلى ، ومنذ البداية كان هناك عنصر قوى آخر فى نظام الحكم الإسرائيلى ، وهو أن اليمين منذ الأيام الأولى كان له أبطاله

المتحمسون ، وقيادته التى تخرجت من العصابات الإرهابية مثل عصابة الهاجاناه ، وعصابة لوشاميدى وعصابة حيروت يزرائيل التى كانت مشهورة باسم عائلة قائدها إبراهام شتيرن ، وعصابة إرجون التى اندمجت فى جيش الدفاع الإسرائيلى بعد الاستقلال والتى كان أفرادها يحملون أسماء مزدوجة ويمثلون أهدافًا مزدوجة ، وكانوا منذ الأيام الأولى يسببون تأثيراً سيئًا فى السياسات الإسرائيلية ، وقد حصلوا على الكثير من أفكارهم وفلسفتهم السياسية من شخصيات مثل زابوتنسكى (الذى وصفه بن جوريون بأنه يشبه فلاديمير هتلر) وغيره من نشطاء ما قبل الحرب الذين هم كما ذكرنا من قبل لم يكونوا معروفين لدى قادة الحركات الفاشستية الأوربية المعاصرة ، وكان زابوتنسكى هو الذى دعا إلى ما كان معروفًا لدى دعاة القومية الألمانية خلال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين ، ألا وهو الكشف الكريه الخاص بالحماس القومى والذى ازدهرت نتائجه لفترة طويلة ولم يتظاهر بالقول بأن الصهيونية كانت تختلف عن الحركات الاستعمارية وأصر على أن يصبح عرب فلسطين أقلية فى أرض إسرائيل ، واعتقد أنه لا يمكن تحقيق شىء أو الاستمرار فى الحصول على أى مكسب بدون الاستعداد لاستخدامه والاستمرار فى استخدامه باستعمال القوة ، وما زالت دعوته منتشرة حتى اليوم وقد تحولت إلى عسكرية عدوانية على يد الدولة الإسرائيلية وإلى نظرة استعلاء وحشية كما عبر عنها الجناح اليمينى المتطرف وبعض الأحزاب الدينية فى الكنيست ، (١٨) .

يعتبر الخط الممتد من زابوتنسكى إلى كاهان وحركة ساش التابعة له ومن الفاشية إلى أخلص أشكال الصهيونية ، خطًا مباشراً وغير متقطع ولكنه يمر عبر قيادة الليكود مسجلاً بمعرفة أمثال شامير وبيجين ، وقد كان غزو جنوب لبنان تحقيقًا لفلسفة زابوتنسكى الخاصة بالضربة التى تدعو إلى التملك حسب حق الشفعة والحاجة الدائمة لتحقيق قيام الدولة الصهيونية بدرجة عالية من الاستعداد العسكرى والحماس الملتهب وهذا أيضًا يمثل عقبة كئوداً لأن إسرائيل لا تحاول تغيير القضية (١٩) .

إن علاقة إسرائيل التى تبدو طبيعية بالنسبة للناس سواء كان الإقناع السياسى الذى تهدف إليه مرتديًا ثوب الجناح اليسارى أو اليمينى ، فإن الناس يعتبرون أن أفكارها السياسية المؤسفة قد فسرت تفسيراً جيداً على يد حكومة الليكود التى كان

يرأسها مناحم بيجين عندما عقدت تحالفها غير المقدس مع الكتائب المسيحية فى لبنان بعد أن اجتاحته إسرائيل سنة ١٩٨٢ وفيما بعد عندما تهوروا وتقدموا نحو بيروت ، وكانت الكتائب واحدة من الجماعات المسيحية الرئيسية فى لبنان ضمن الجماعات العديدة التى يظهر كل منها أكثر فساداً أو ميلاً للقتل من الجماعة الأخيرة التى تلقى تأييد الطائفة المارونية تحت قيادة عائلة الجميل ، وكان الزعيم بيير الجميل قد تأثر بالحركة القومية الاشتراكية وجناحها من الشباب الذى تحرك أثناء دورة الألعاب الأولمبية فى برلين سنة ١٩٣٦ ، وعندما عاد إلى لبنان أنشأ حزب الكتائب الذى استمر بصفته كياناً سياسياً فترة طويلة بعد اختفاء نظرائه من الأحزاب الألمانية ، والإيطالية ، والأسبانية ليس لكى يتحدث بأسلوب الحركات الفاشية المماثلة التى انتشرت فى العديد من الدول الأوربية فى السنوات التى سبقت الحرب والسنوات التالية لها ، وقد انتقلت قيادة الكتائب أولاً إلى أبن بيير المدعو بشير وهو مقاتل ثورى ينضوى تحت قيادته قوات وحشية ثم آلت بعد ذلك إلى أخيه أمين الجميل الذى أصبح رئيساً للجمهورية اللبنانية بعد اغتيال بشير .

لقد كان حزب الكتائب معارضاً للتفاهم مع المسلمين ونجح فى تحويل تحيز أتباعه للصراع مع الفلسطينيين وبذلك فإن كراهية المسلمين التى تمثل شعوراً قوياً فى لبنان على خلاف معظم بلاد الشرق الأوسط التى تعيش فيها التجمعات الإسلامية والمسيحية فى توافق وانسجام ، قد رعاها المسيحيون اللبنانيون الذين وجدوا أن امتيازاتهم المنصوص عليها فى الدستور اللبنانى قد تقلصت ، والآن أصبح فى الإمكان استغلال هذه الكراهية لتدمير الفلسطينيين ، لقد كانت دورة عجلة التاريخ هنا ساخرة حيث جعلت سادة المسيحيين هم اليهود الذين لقوا الاضطهادات فى مجتمعات أوربا المسيحية وقد جاء دورهم الآن لممارسة الاضطهاد كما يشاءون .

لقد سجلت استعدادات إسرائيل للسماح للكتائب ومسانديهم فى جنوب لبنان لتنفيذ أشد الأعمال الوحشية ضد المدنيين اللبنانيين والأهداف الفلسطينية ، وسجلت أيضاً عمليات قتل قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة تحت أنظار إسرائيل ومعرفتها ، وكذلك أيضاً المذبحة المخربة ضد المدنيين فى مخيمات «صابرا وشاتيلا»

التى لعب فيها أرييل شارون الذى أصبح فيما بعد وزيراً للدفاع فى الحكومة الإسرائيلية دوراً مخزيًا .

إن اليمين فى إسرائيل الذى سيطرت عليه جماعة الليكود نهائيًا كان تأثيره واضحًا فى رفضها عمل تسوية مع العرب واتّباعها السياسة التى عبر عنها زابوتنسكى ، وهى تعتبر فى هذا الصدد أكثر وضوحًا من معارضيها فى حزب العمل الذين يفتقرون إلى مساندة الجماعات الليبرالية فى أوربا وأمريكا وقد استحسنوا إظهار الابتسامة على وجوههم أى أنهم يتحدثون عن السلام بينما هم يضربون الفلسطينيين وأهالى الأراضى المحتلة بالمطارق ، لقد رتب الليكود وهو أكبر أحزاب الجناح اليمينى والذى يمثل الحكومة البديلة بالنسبة لحكومة حزب العمل عن إعلان كراهيته الصريحة للعرب عندما أصبح فى موضع القوة وقد جعل ذلك وحده مبادرة السادات شديدة الوقع عندما وضع نفسه فى موقف المشاركة مع مناحم بيجين .

وعندما بدأ بناء المجتمع الإسرائيلى فى التغيير بشكل ملحوظ . عندما أصبح فى موقع الأغلبية بالنسبة لليهود الذين ينتمون إلى الأصل الشرقى وهم اليهود العرب إذا شئت هذا القول ، بدأ حزب الليكود الذى فى المعارضة يمد مساندته بين نفس هؤلاء الشرقيين الذين وجدوا أنفسهم فى وضع ليس فى صالحهم بشكل ملحوظ عند مقارنتهم بمجموع اليهود الأشكيناز ، وبذلك تحولوا إلى حزب يعبر عن الازدراء والكراهية للعرب وهو حزب أشد ضرراً منهم ، لقد أشير إلى العرب بأنهم مصدر كافة أمراض اليهود الشرقيين وتعاستهم ، لقد كانوا نموذجًا كلاسيكيًا لسياسات ركن الشارع التى كانت تمارسها الأحزاب الفاشية والشيوعية عندما تظهر علامات الحسد والكراهية نحو الطبقة المذكورة ، وقد رد معلقو الأشكيناز فى الصحافة الإسرائيلية مدفوعين بطبيعتهم العنصرية لكى يصفوا هؤلاء الشرقيين الذين ساندوا الجناح اليمينى بأنهم " قرود البابون " .

وفى هذه الأيام ومع التكهن بالمستقبل بدأ اليمين الإسرائيلى يكشف عن موقفين نموذجيين لحكم البروليتاريا من النوع الذى نجده فى أجزاء أخرى عديدة من العالم وهما نظام التطرف الدينى الشديد ، والتطابق الملحوظ مع المستوطنين المحاصرين ،

وبالنسبة لحالة إسرائيل فإن النوع الثانى يعلن عن نفسه بين هؤلاء المستوطنين الذين نشأوا فى الأراضى المحتلة بشكل غير قانونى التى يطلق عليها اليمين الفاشستى الاسم الذى ورد فى الكتاب المقدس وهو اليهودية والسامرة . وقد اتجه المتشددون الدينيون لتجميع أنفسهم داخل سلسلة من الأحزاب الصغيرة ذات الصوت الصاخب وذات النظرة الداخلية المكثفة غالبًا ، ولكن ليس دائمًا تحت قيادة مدرسى الفكر الأرثوذكسى الصارم الذين تتساوى كراهيتهم للعرب أو تتفوق على كراهيتهم لبعضهم البعض ، ويتعمد المستوطنون مثل غيرهم الذين ينتمون إلى نفس النوعية أن يعبروا عن عزمهم على التمسك بأرضهم بالعنف الذى يعبرون عنه مباشرة فى العلاقة العكسية التى تربط بين اسمهم الشرعى وبين احتلالهم لهذه الأرض .

ومن الإنصاف القول بأن اتجاه حالة إسرائيل الداخلية السياسية والاقتصادية نحو التدهور كما هى حالتها اليوم فلاشك فى أن هذه هى الحالة المتوقعة وستصبح أحزاب الجناح اليمينى أشد تطرفًا وأقل التزامًا بالحوار وأكثر اعتمادًا على التهديد أو ممارسة العنف ، وسيكون ذلك مواكبًا ليس فقط للتقدم التقليدى لهذه الحركات البروليتارية الفاشستية بل أيضًا للفكر التاريخى لليمين الإسرائيلى ، إن تحالف الجناح اليمينى لحزب الليكود وحلفائه كان دائمًا أكثر ولاء لجذوره التى تعود إلى أفكار زابوتنسكى ومتوافقة معه فى رفضه لعقد أية تسوية مع الفلسطينيين .

ونذكر لقيادة الليكود ماضيها المفعم بالعنف السياسى ، ومازال هذا الحزب ملتزمًا بالماضى ويكفينا المثال الذى سنذكره الآن : عندما سئل شامير بوصفه الرئيس السابق حتى الانتخابات الأخيرة ، عن النصيحة التى يقدمها إلى المستوطنين الذين استطاعوا بتشجيع الحكومة التى كان يرأسها أن يثبتوا أنفسهم فوق الأراضى المحتلة (يسميها بيجين "الأراضى المحررة ") بالمخالفة الواضحة للقانون الدولى أجاب قائلاً: "كونوا أشداء" أما عن الفلسطينيين فقد قال باحتقار يدل على ما تكنه أحزاب الجناح اليمينى من ازدراء لهم:" اصمتوا " (٢٠) .

لقد أوضح شامير أنه لم يوافق على قرارات كامب ديفيد بالرغم من أنه كان وزيراً للخارجية فى وقت إعلانها ؛ ولكنه لم يصوت فى الكنيست على قبولها ، وبينما تعتبر

القرارات أداة لا جدوى منها إلا أن الولايات المتحدة ومصر وشطر كبير من الرأى العام يلتزمون بالمبادىء التى تمثلها إلا أن شامير تجاهلها ، وقد فسر رفضه هذا مدى ضآلة القيمة التى يعول عليها بالنسبة لكلمة إسرائيل أو جدارة مثل هذه القطعة من النصوص غير المتوقعة .

وظل شامير متمسكًا بفكرة إسرائيل الكبرى مثل غالبية أعضاء حزبه ، ولا يوجد أمل فى السلام حتى تستبعد مثل هذه الأفكار العدوانية من المضمون السياسى الإسرائيلى ، إن هذين العنصرين اللذين ترتكز عليهما دولة إسرائيل كما هى اليوم سيضعان من يحاولون تحقيق حل للأزمة التى تمثلها إسرائيل فى المنطقة أمام عاملين من أهم العوامل الصعبة التى لابد من مواجهتها وحلها ، أما المستوطنون الذين يضمون بين صفوفهم عدداً من المهاجرين القادمين إلى إسرائيل حديثًا من أوربا ، والكومنولث ، والولايات المتحدة ، والذين عندهم شىء من حماس الرواد - ونعنى بذلك تلك الخاصية التى أخذت الآن فى الانكماش داخل إسرائيل - لابد وأنهم سيمثلون أصعب مشكلة إنسانية ، إنهم لا يستطيعون حسب طبيعة الأشياء أن يعملوا فى هدوء على جمع متعلقاتهم والرحيل بعيداً ، إلا أن بعض المتحدثين المتطرفين من بينهم سيعتبرون من أتباع مذهب الشك ، ولابد أن بينهم العديد ممن سيتجهزون للقتال من أجل الإبقاء على وضعهم بوصفهم مُلاَّكًا للأرض التى أقاموا عليها أو التى أعطيت لهم على يد الحكومة الرقيقة المعشر .

ومن الأمور التى تثير الدهشة أنه لا يوجد إسرائيلى واحد من هؤلاء الذين استقروا فى الأراضى المحتلة لا يشعر بالرغبة فى أن يرى العرب الفلسطينيين وقد رحلوا ، إن جميع المستوطنين يحتقرون ويخشون السكان الأصليين الذين حلوا محلهم وهذه حقيقة مهمة فى جميع الأحوال ، سواء كانوا من الأوربيين البيض الذين استقروا فى إفريقيا ، والبريطانيين الذين استعمروا أستراليا ، وفى أسوا الحالات فرق الصيد من سكان أستراليا الأصليين المعرضين للإبادة - أو الأمريكيين فى قتلهم للهنود ، ونجد أن التاريخ يمتلئ بمثل هذه الأمثلة المشابهة ، والإسرائيليون أيضًا مستعمرون وهذه هى حقيقة حظهم السيئ لأنهم من المحتمل أن يكونوا المثل الأخير للمحتلين الذين يستقرون فى أرض الآخرين نتيجة للهجرة التى لقيت تشجيعًا سياسيًا والتى تعتبر

تعبيراً عن حالة الاستعمار الوحيدة التى يسجلها التاريخ خلال القرن التاسع عشر . إن الصهيونية شكل خاص ومعدل من الطرد الذى دعا الأوربيين لزرع المستعمرات عبر أنحاء العالم ، ولن تنكر كافة الوقائع التاريخية المستخدمة فى المرافعات أو التى تعتمد على الحجج المعقولة ظاهرياً بينما هى باطلة هذه الحقيقة .

وعلى ذلك فإن فكرة "استبعاد السكان" (التى يقصد بها طبعًا الطرد الإجبارى للسكان العرب فى فلسطين) هى فكرة أصلية فى المذهب الصهيونى ، ويظهر ذلك بوضوح من خلال المقابلات العديدة، والخطابات ، والخطب ، وافتتاحيات الصحف ، والكتب التى وضعها القادة الصهاينة ، وكما رأينا فإنه خلال فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية لم تكن القضية مجهولة ، وإذا كان الصهاينة يهتمون بالمستمعين من غير اليهود فإنهم يعرفون أن القليل من هؤلاء الذين كان رأيهم يستحق الاعتبار والذين يعتمدون على إرادتهم السياسية لن ينظروا شزراً نحو خطط إسكان السكان الأصليين الفقراء والذين ليست لهم أهمية بوجه عام . ولم يكن فى حسبان القوى الاستعمارية أن تشعر بالحزن العميق إزاء مثل هذه الأمور على أية حال ، وكذلك فى حالة فلسطين فإن التصريحات الصهيونية حول إبعاد العرب لم تلق الاهتمام ؛ لأن مصالح الصهاينة كانت ذات أهمية للدول الاستعمارية بينما لم تكن مصالح الفلسطينيين الأصليين تلقى مثل ذلك الاهتمام .

وهناك اعتبار آخر تحدث عنه السياسيون فى ذلك الوقت وهو العرض الخاص بتوطين السكان غير المطلوبين ونقلهم من الموقع الذى يسبب وجودهم فيه بعض المشاكل إلى موقع آخر تصبح فيه المشكلة خاصة بآخرين وقد اعتبرت هذه السياسة عملية تمامًا ، ونتيجة لذلك استمر الصهاينة فى سياستهم الخاصة بالتعبير عن ضرورة استبعاد السكان بطريقة ساذجة لأنهم كانوا يطبقون شكلاً من أشكال الانتهازية السياسية المعروفة لدى القوى الاستعمارية التى طبقوا سياستها بحماس شديد والتى استخدموا أيضاً لغتها الغنية بالتعبيرات الرقيقة ، ولم تلق الصهيونية وربيبتها إسرائيل التوفيق لأنها وصلت إلى نهاية التتابع التاريخى وأصبحت آخر المفسرين لفكرة الاستعمار الأوربى ، وقد ظهر استبعاد مئات الألوف من العرب ضمن هذا السياق كبرنامج يستحق التطبيق .

ومرة أخرى لم يتعامل مسار التاريخ معاملة رحيمة مع إسرائيل لأن الصهيونية ظاهرة أوربية بالضرورة ، وهى نقطة لا يستطيع قارئ هذه الصفحات أن يتجاهلها ولكن سكان إسرائيل الآن قد تحولوا كلية عن المفهوم الذى تصوره المؤسسون الصهاينة ، والآن فإن أغلبية السكان من السفرديم ذوى الأصول الشرقية فما الذى يؤمن به غالبية اليهود الشرقيين بخصوص استبعاد السكان ؟ إن معرفتهم بهذا المبدأ قليلة ولكنهم قد يرون أنفسهم يتذكرون فى أعماقهم المعاملة التى عوملوا بها من رفقائهم الأشكيناز الإسرائيليين بوصفهم مرشحين للاستبعاد فى المستقبل .

وكان فلاديمير زابوتنسكى بالإضافة إلى أنه أهم أصحاب الأيديولوجيات التى ساهمت فى تطوير استمرار الفكرة الصهيونية كأسلوب للحياة أخلص المتحدثين عن الأهداف الصهيونية ، حيث أوضح ضرورة الأخذ بوجهة النظر الاستعمارية التى تمسكت بها فلسفة الحركة الصهيونية فى تعاملها مع الفلسطينيين " إننا نصر على القول بالإجماع بأن الموقف الاقتصادى للعرب الفلسطينيين تحت الاستعمار اليهودى قد أصبح هدفًا يحسدهم عليه العرب فى كافة البلدان العربية المجاورة [٢١] . وقد أكد زابوتنسكى بنفس الصراحة : "الذى لا يمكن إنكاره هو أن عرب فلسطين بهذه العملية سيصبحون أقلية فى فلسطين" [٢٢] .

وفى ضوء هذه التصريحات الصادرة عن الرجل ، الذى ما زال يقوم بدور الملهم لأحد روافد السياسة التى تطبقها إسرائيل ، يصبح من السهل أن نفهم إدراك الفلسطينيين حتى اليوم ، وكان زابوتنسكى صريحًا عندما تحدث عن "الاستعمار الصهيونى" كما تحدث أيضًا بروح بعيدة النظر عما ، سيصبح عليه اليمين الإسرائيلى فى المستقبل ، عندما قال : "إننا لا نستطيع أن نقبل شيئًا"[٢٣] .

الهوامش

(1) For one aspect of this issue see A Special Kind of State Israel and the London 'Times', Hennon Books/ Beirut, 1970

(2) Golda Meir, 15 June 1969

(3) Independent, April 1988 , from Router, Tel Aviv

(4) General Raphael Eitan, New York Times, 14 April 1983

(5) See Kennett Love, Suez The Twice-Fought War, Longman, 1969 .

(6) A Nutting, Nasser, Constable, 1972 , for a partisan but perceptive view.

(7) See Steven L Spiegal, The Other Arab-Israeli Conflict. Making America's Middle East Policy, from Truman to Reagan, University of Chicago Press, 1985

(8) Middle East Report, May-August 1990 .

(9) Benjamin Beit-Hallahmi, The Israeli Connection Whom Israel Arns and Why, I B Tauris, 1987

(10) Ibid.

(11) Golda Meir, 1972

(12) Middle East International, 20 November 1992 also quoted in Malise Ruthven, Times Literary Supplement, 11 - 17 March 1988

(13) Middle East International, 20 November 1992, recounts 'the resignation of David Steiner, President of AIPAC after he had bragged about Zionist influences on Clinton

(14) Rabbi Shlomo Aviner quoted in Ian S Lustick, 'Gush Emunim The Meaning and Impact of Jewish Fundamentalism in Israel', in Democracy in the Middle 'East, Proceedings of the 1992 Annual Conference, British Society for Middle Eastern Studies, University of St Andrews,

(15) David-Ben-Gurion to his son, 5 , October 1937, S Flapan, The Birth of Israel: Myths and Realities, Pantheon Books, 1987 gives a thorough review of the origins of Zionist attempts to 'clear the land'. A more recent study by N Masalha, Expulsions of the Palestinians: The Concept of 'Transfer' in Zionist Political Thought 1882 - 1948, Institute for Palestine Studies,Washington, 1992, gives the most complete account of Zionist aspirations and actions in this matter.

(16) J C Jabotinsky. letter written in November 1939, quoted in Robert I. Friedman, New York Review 29 March 1990 .

(17) James McDonald, My Mission to Israel, Simon &Schuster, New York, 1952

(18) Lenni Brenner, Zionism in the Age of the Dictators: A Reappraisal, Lawrence Hill, 1983 .

(19) For a damning review of the consequences of the invasion of Lebanon see, Israel in Lebanon: The Report of the international Commission to Enquire into Reported Violations of International law by Israel during its Invasion of the Lebanon, Chairman Sean MacBride, Ithaca Press, London, 1983 ,

(20) Quoted in 'Profile of Yitzhak Shamir' by Ian Murray, The Times, 7 April 1988 .

(21) V Jabotinsky, A Jewish State Now, evidence submitted to the Palestine Royal Commission, House of Lords, 11 February 1937 .

(22) Ibid.

(23) Ibid.

الفصل الثامن

الدين والأخلاقيات وتدهور إسرائيل

كان من بين معالم المجتمعات الأوربية منذ قيام الثورة الفرنسية ، ومع اضمحلال العقيدة الدينية ، وضعف الروابط الاجتماعية التى يفرضها الدين ظهور ميل ملحوظ نحو استثمار الحركات السياسية مع العديد من عناصر العقيدة الدينية ، وكانت المطالب التى ترتبت على قبول أتباع الأديان للفاشستية ، والاشتراكية القومية، وخاصة الماركسية اللينينية فى مختلف نوعيات الإدارة الاجتماعية التى تمثلها ، مختلفةً عن مطالب العقيدة التى فرضتها الكنيسة فى العصور الوسطى .

ونفس الكلام يقال عن الصهيونية فإن تزايد تحول المجتمعات اليهودية الأوربية إلى العلمانية نتيجة لتحرير اليهود وميلهم نحو الاستيعاب واكبه – كما ذكرنا من قبل – الاستجابة للأفكار القومية التى انتشرت أواخر القرن التاسع عشر ، وقد انعكست الطبيعة العلمانية لمعتقدات مؤسسى الصهيونية السياسية على السياسات التى أعلنوها التى مهدت لتطوير البرنامج والمبادئ التى تطورت الحركة بناء عليها . وعلى كل حال ، فإن اختصار العقيدة الدينية اليهودية التقليدية بين قادة الصهيونية قد أدى إلى نفس رد الفعل الذى حدث بين سائر الحركات السياسية المشابهة ، وبدأت الأيديولوجية فى إعداد المكان لنوع من العقائد الزائفة، وإشاعة عقيدة علمانية ازدوجت من خلالها تناقضات العلمانية والدين مع بعضها البعض وتعتبر الصهيونية نموذجًا صارخًا لهذه الظاهرة .

وكان لانتشار وسائل الاتصال حول العالم تأثير ملحوظ على المعتقدات الدينية لدى كافة نوعيات المجتمعات خاصة تلك التى تشعر بأنها مهضومة الحقوق ، وقد

استثارت مشاعر عدم الثقة بتطور نشر الأنباء خاصة تلك المحزنة القادمة من كافة أرجاء المعمورة ، وقد فشلت العقيدة الصحيحة في التأثير على الأجيال الجديدة من أتباعها مما أدى إلى ظهور كافة نوعيات المذاهب الكارزمية (*) التى يعزى نجاحها إلى زيادة الاستخدام الماهر لوسائل الاتصال وانقياد أتباعها إلى العلمانية .

لقد قيل الكثير عن التهديد الذى تمثله مراكز القوة التقليدية بظهور ما اصطلح على تسميته باسم "التطرف الإسلامى" واستخدام هذا الاصطلاح يعنى عدم فهم طبيعة الإسلام ، من حيث علاقته بالمجتمعات التى تريد أن تحكم حسب مبدأ التسليم لقوة الله الذى تؤمن به وعمومًا ، فإن العقيدة الإسلامية وتطبيقاتها هى الأساس وليست هناك فرصة أمام المسلم للعودة إلى أصول الإسلام لأن الإسلام لم يحد عنها ، ولم يكن هناك أبدًا إصلاح فى الإسلام ولن يكون بنفس المفهوم الذى قصد إليه الإصلاح المسيحى الذى يعتبر رفضًا لما ظنه الإصلاحيون إفسادًا لرسالة الإنجيل الأصلية ، ليست الرسالة نفسها بل فساد الكنيسة التى تتحمل مسئولية نشر هذه الرسالة .

أما ذلك الذى حدث فى الإسلام فى الأزمنة الأخيرة فهو بعده السياسى وهو فى الحقيقة لا ينفصل عن أوامره التى تدور حول علاقة الإنسان بالله ، وقد أعطى ذلك أهمية عظيمة فى عالم يفصل بين البعدين السياسى والدينى للتجربة الإنسانية وقد أدى ذلك إلى تأكيد بعض المتدينين المسلمين على الحاجة إلى قبول رسالة القرآن كاملة حتى تنصلح أخطاء العالم وتتحول إلى الإصلاح . ويرى المسلمون القضية الفلسطينية فى هذا السياق ، ونتيجة لذلك فإن البعض يقول عن اختلاف السياسات العالمية أنها تعود إلى المتطرفين الإسلاميين الذين لم يكونوا على استعداد لإعطائها مثل هذه الأهمية فى أحوال مختلفة .

إن اشتراك الجماعات الإسلامية المتطرفة فى معركة فلسطين كان له صداه فى اشتراك جماعات دينية أخرى من السهل تصنيفها ضمن المتطرفين ، لأنها تريد العودة

(*) المذاهب الكارزمية : هى التى تكرس الشخصية الكارزمية وهى شخصية الزعيم الذى يتمتع بالقدرة على اجتذاب الجماهير نحوه حتى تقدسه إلى درجة تقترب من العبادة . (المترجم) .

إلى التفسير الحرفي للنصوص الدينية ، ويختلف كل من اليهود والمسيحيين عن العرب المسلمين في نقطة مهمة وهي عدم رجوع المسلمين إلى النصوص الأصلية لكتبهم المقدسة نظراً لأن القرآن مكتوب باللغة العربية التي يتكلم بها أتباعه حتى اليوم .

وقد غطت الطبيعة العلمانية للصهيونية منذ نشأتها على استخدام النصوص الدينية في حملتها لإنشاء الدولة اليهودية ، وكما ذكرنا من قبل فقد كان ذلك عملاً مقصوداً لأن مؤسسي الصهيونية اعتقدوا أن المدخل العلماني وليس الديني سيلقى قبولاً من الرأي العام العالمي الذي حاولوا استمالته إليهم أكثر من الرسالة الدينية الصريحة ، وقد كان البعد الديني حاضراً دائماً ومن السهل الالتجاء إليه إذا استدعى الأمر ذلك ، حتى إذا أنشئت دولة إسرائيل نفسها بدأ التطرف اليهودي في الظهور كعامل قوي في التكوين السياسي للدولة اليهودية الذي يزداد تعقيداً مع مرور الوقت .

إن الكثير من التأثير العلني لليهود الذين يبحثون عن التفسير الحرفي لأسفار التوراة التاريخية – يتخذون منها مبرراً لاحتلال الأراضي التي أنشئت بها المستوطنات ضد القرارات الكثيرة التي اتخذها المجتمع الدولي وفي تحد سافر للقانون الدولي ، قد جاء من المستوطنين الجدد القادمين من أمريكا وبدرجة أقل من المملكة المتحدة ، لقد كان هؤلاء الناس هم الأكثر ضجة في طردهم للعرب تأكيداً لمطالبتهم بإسرائيل الكبرى وأيضاً في رفضهم الاستقرار مع الفلسطينيين حتى لا يؤدي ذلك إلى التنازل عن أي جزء من الأرض التي يقيمون عليها في الوقت الحالي .

إن مفهوم إسرائيل الكبرى يعني حسب الاصطلاحات السياسية الحديثة أن تضم إسرائيل ليس فقط فلسطين بل أيضاً معظم سوريا، والأردن كلها ، ولبنان ، وأجزاء من مصر وهذه الأجزاء كلها كانت دائماً ذات أهمية جوهرية بالنسبة للجماعات اليهودية المتطرفة دينياً التي تساند إنشاء دولة إسرائيل والتي تعتبر أن قضية الأرض ليست مجرد موضوع سياسي ولكنها عقيدة ضرورية وأن التمسك بها واجب دعاهم الله إليه منذ أربعة آلاف عام مضت ، وعلى ذلك فإن الانسحاب بالنسبة لهؤلاء الناس ، أو الخضوع ، أو تفكيك المستعمرات التي أقيمت في الأراضي المحتلة يعتبر خيانة لأهم مبادئ عقيدتهم . ويعبر عن هذا المفهوم السياسي لهذه العقلية عدد من الأحزاب

الصغيرة ذات الصوت العالى والتى لا تتورع عن استخدام الشتائم والتى يقودها فى الكثير من الحالات بعض الخامات ذوى الشخصية الكارزمية الذين أصبحوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم سماسرة قادرون على إقامة أو عدم إقامة الحكومات الإسرائيلية المتتابعة علماً بأن الأصوات القليلة التى يمتلكونها فى الكنيست تحدد غالبًا حكومة الأغلبية .

ويعتبر حزب الليكود هو أكثر الأحزاب حاجة للمساندة التى تقدمها هذه الأحزاب الدينية الصغيرة مما يعكس مشاكل تأمين الأغلبية فى الكنيست وتعاطفها الطبيعى مع المراكز المتطرفة التى تتخذها الأحزاب الدينية ، وقد اعتاد قادة الليكود أحيانًا اتخاذ إجراءات غير عادية لتأمين تعاطف هذه الأحزاب . ومن هؤلاء القادة مناحم بيجين الذى ورد عنه أنه كان يركع أمام أحد قادة الأحزاب الدينية المتطرفة وهو حزب تزرى يهودا [١]، ولا تسرى هذه المغالاة فى الاحترام حتى بالنسبة للقيادات الدينية الكبرى فى الديانة اليهودية ؛ لأن الركوع أو السجود ليس له وجود فى الطقوس اليهودية على عكس المسيحية والإسلام .

ويمثل حزب جويش إمونيم [٢] أقوى أحزاب اليمين الدينية (معنى اسمه «جماعة المؤمنين ») الذى يحرك فى سياساته - كما هو الحال فى اسمه - عواطف بعض الجماعات الإسلامية التى يحمل أتباعها نفس الاسم تقريبًا ، وقد نجح حزب جويش فى تقديم المساندة للمستوطنات عن طريق المهاجرين من غير الأوربيين الذين وصلوا حديثًا ومن اليهود الشرقيين الذين يمثلون تناقضًا ظاهريًا ، وفى هذا الموقف الأخير نجحوا فى الوصول إلى مشاعر الإحباط والتفرقة التى يشعر بها الإسرائيليون الذين ينتمون إلى أصول قادمة من الشرق الأوسط بالمقارنة مع هؤلاء الذين ينتمون إلى أصول أوربية هؤلاء الذين يمثلون العمود الفقرى لمساندة حزب العمل والذين يتم توجيه شئون دولة إسرائيل لصالحهم .

وتحقق جويش إمونيم مع بقية الأحزاب المتطرفة وحدة إسرائيل التى تعلو فوق كل الاعتبارات الأخرى ، ولا يوجد أى عنصر آخر من عناصر السياسة الإسرائيلية يعادل هذا العنصر فى الأهمية ، ولذلك فإن موقف أى حكومة إسرائيلية فى مناقشة عمل

تسوية مع الفلسطنيين يجب النظر إليه من خلال هذه الفرضية البديهية ، وإذا لم يتحقق إحتواء المتطرفين الدينيين بطريقة إعجازية ، فإن تدخلهم فى نظام الحكم الإسرائيلى يمثل سببًا آخر لعدم الثقة فى أية مشاريع السلام تبنى على أساس استمرار بقاء الدولة اليهودية .

إن كل علامة تشير إلى الحلول الوسط مع الفلسطنيين تعتبر بالنسبة لهؤلاء الناس بغيضة وأن كل علامة تشير إلى الاعتدال من جهة الفلسطنيين تمثل خطراً داهمًا لابد من مواجهته بشراسة والحط من شأنه بكافة الوسائل الممكنة .

وتعود مصادر معظم الصيحات التى تطالب باستبعاد السكان العرب إلى نوعية الأحزاب التى يمثلها حزب جويش إمونيم ، ويعبر عن مثل هذه الاقتراحات لغويًا من خلال المشاركين المزعجين والذين لابد منهم وذلك فى شكل تعبيرات مثل : التطهير العرقى ، والحل النهائى للمشكلة اليهودية . وسيزداد عدد هذه التعبيرات كأسلوب للضغط يمنع إسرائيل من اتخاذ أى إجراء لإزالة المظالم التى ارتكبت ضد الفلسطنيين ، وسيتم احتواء أية اقتراحات تؤدى إلى عودة الأراضى المحتلة بناء على طلب المستوطنين المتطرفين لتخليص إسرائيل الكبرى من الغرباء (لأن السكان العرب الأصليين تطلق عليهم هذه الصفة حسب بلاغة المستوطنين فى التعبير) الذين يعيشون فى البلد الذى كان يطلق عليه سابقًا اسم فلسطين .

ولذلك فإننا لا نشعر بالغرابة عندما تنوى العديد من الأفكار والنظم التى تتذرع بها الصهيونية السياسية ، مما أدى إلى نمو هذه النوعية من الإرهاب المتطرف الذى يدعو إلى التفسير الحرفى والأخذ بالأساطير القديمة ، ولاشك أن معظم الخطر الواضح على الاستقرار الداخلى لإسرائيل الذى تثيره أية اتفاقية تعقد مع منظمة التحرير الفلسطينية سيأتى من ناحية هذه الأحزاب الدينية المتطرفة ومن ناحية ساسة الجناح اليمينى الفاشستيين والعنصريين .

وينطبق هذا الكلام أيضًا على الجماعات الأخرى المزدهرة المتطرفة التى تنمو على شجرة العقيدة شبيهة بالتطرف المسيحى وهو أنسب الأسماء التى أطلقت على الأشكال الثلاثة للعقيدة التى خرجت عن المسار العادى والتى ينطبق عليها هذا الاصطلاح ؛ لأن

هذه الجماعات تمثل حالة نشيطة من النمو وذات صلة وثيقة بمضمون بقاء دولة إسرائيل كدولة يهودية .

وتعتبر المسيحية الكارزمية فى العديد من مظاهرها متطرفة من حيث إنها تعتقد بوجود عقيدة بسيطة غير معقدة ويمكن تجديدها من الأناجيل ؛ لأن تعقيداتها جاءت على مدى القرون بسبب التفاسير التى أدخلها القادة الدينيون الذين اهتموا بخدمة المجتمع والدولة أكثر من اهتمامهم بفهم رسالة السيد المسيح الأصلية ، وهو وضع انتقده آباء الكنيسة الذين واجههم المتطرفون المسيحيون بأشد ردود الفعل قسوة بما أشاعوه من بدع ظنوا أنها علامات تميزت بها الجماعات المسيحية المبكرة مثل الغناء ، والرقص ، والتحدث بألسنة غريبة .

ولما كان هؤلاء المتطرفون قد استلهموا مفاهيمهم مما افترضوا أنه يمثل الجماعات المسيحية الأصلية فى أورشليم ، فقد أصبح دور الأرض المقدسة (وبالمناسبة فإن هذا الاصطلاح مسيحى) فى غاية الأهمية وبالتالى أصبح هذا الدور والاتجاه السياسى من الأمور العظيمة التى تعطيهم الأهمية .

وقد كانت المساندة التى لقيتها إسرائيل من الكنائس المسيحية الكارزمية أو المتطرفة ذات أهمية عظيمة خاصة فى الولايات المتحدة ، ويعتبر الإيمان بالحقيقة الحرفية للكتاب المقدس كما هو مكتوب (وبالرغم من أن تلك اللغة لم يحلم بها الذين دونوا لنا نصوص الكتاب المقدس) هى الصخرة الصلبة التى يقف فوقها هذا الفرع من فروع المسيحية الذى يزداد قوة بينما اضمحلت أجنحة الكنيسة التقليدية من حيث المساندة ، والتأثير . وأعضاء هذه الكنائس يساندون فكرة اليهود القائلة إنهم شعب الله المختار ، وشعب الأرض الموعودة ، وأيضًا الفكرة الأكثر أهمية عن تجميع اليهود فى إسرائيل دليلاً على اقتراب المجىء الثانى للسيد المسيح ونهاية الأيام ، وتتواكب مع هذه المفاهيم الفكرة التى تقول بها أيضًا بعض الجماعات اليهودية الأرثوذكسية وهى أن خلاص العالم يعتمد على عودة الشعب اليهودى إلى وطنه الأصلى.

وبالطبع فإن هذه الأفكار ذات قيمة بالنسبة للسياسيين الذين يريدون تحريك الرأى العام لمساندة إسرائيل بصرف النظر عن مدى شذوذ أو تطرف أصولها ، خاصة

فى الولايات المتحدة حيث يقدمون الناخبين ذوى الإمكانيات والأعداد الضخمة ، وفى مقابل ذلك نرى حتمية نشر وجهات النظر الغربية التى تؤدى إلى ظهور العدوانية الشديدة التى تمارسها الجماعات اليهودية الأرثوذكسية المتطرفة التى تؤمن بأن الدولة الإسرائيلية مكروهة وتمثل إهانة علنية للذات الإلهية ، وليس من المتوقع أن تساهم مثل هذه الديانة التى مهما كانت تسميتها فى تحقيق حل عادل للمشكلة أو اندماج السكان اليهود القادمين من شرق البحر الأبيض المتوسط فى دولة علمانية مسالمة .

وكما تتجه الصهيونية نحو الانهيار كمؤثر سياسى مع انخفاض مساندة اليهودية العالمية وزيادة نسبة اليهود الشرقيين فى إسرائيل نفسها ، فإن طبيعة الصهيونية كعقيدة مؤثرة ستضعف ، وسيتم ذلك سريعًا بسبب التأثير الذى تؤدى إليه حتمية انزلاق السياسة الإسرائيلية نحو دورة غير محدودة من الكبت والظلم يرى الكثير من اليهود أنفسهم أنها صفة يهودية ضرورية لإثارة الشفقة والاهتمام بالفرد وتخفيض المعاناة ، وسواء كانت هذه المفاهيم صحيحة أو أن الأغلبية من غير اليهود تعتبرها خارج الموضوع ، فإن مفاهيم اليهود أنفسهم قد تكون غير قابلة للنقض بشكل خطير، إلا أنها تتعرض للانهيار بسبب ممارسات الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة ، وتمثل هذه الممارسات الآن شطرًا راسخًا من سلوك دولة إسرائيل غير قابل للتغيير.

إن حاجة المجتمع الدولى لمعرفة أوضاع الأخلاقيات الصهيونية المنهارة تكشف عن مدى تخلفها ، لقد أفسدت الصهيونية المثل العليا اليهودية ، التى ساهمت بقدر كبير فى ثقافة العالم الغربى ، كما أثارت الجدل حول الفضائل اليهودية التقليدية التى كانت المجتمعات الغربية المتقدمة تعجب بها، كما كانت تطبق ما يناسبها منها، مثل احترام الفرد ، وحكم القانون ، تلك التى كانت تعتبر مفاهيم يهودية ، لقد نُبِذت هذه الفضائل عمدًا على يد إسرائيل حتى خلال السنوات القليلة التى كانت موجودة أثناءها ، إن ابتعاد الشعب اليهودى عن طبائعه المميزة التقليدية يعرضه لخطر عظيم ويتنكر للطابع التاريخى الذى يتميز به اليهود واليهودية ، ويقال إن حاييم وايزمان أحد مؤسسى إسرائيل وأول رئيس لها كان مدركًا لما سيحدث فيما بعد فقد كان يحلم بإسرائيل كحضارة رفيعة ترتكز على نماذج الأخلاقيات الصهيونية الصارمة (٣) ، ومن الصعب علينا اليوم أن نفسر بأسلوب شديد الإقناع صرامة الأخلاقيات الصهيونية

أو تتحدث عن وجودها حتى أن وايزمان نفسه استدرك قائلاً: "إننى متأكد أن العالم سيحكم على الدولة اليهودية حسب ما ستفعله مع العرب" (٤) وربما كان من سوء القصد الإشارة إلى التباس مفهوم الاقتباس الأخير ولكن لاشك فى أن وايزمان كان يقصد أن العالم كان يتوقع أن تتعامل الدولة اليهودية مع العرب بشرف ، ولكن حسب حقائق الأشياء فإن الاعتقاد قد ساد بأن العرب "سيكونون هم قاطعو الأخشاب وجالبو المياه" لسكان فلسطين من اليهود .

إن معاملة الإسرائيليين مع سكان فلسطين من العرب تختلف عن العديد من المفاهيم التى يتشدق بها اليهود حيال أنفسهم ، وأبسط هذه المفاهيم الأسطورة الخالدة التى تربطهم بإسرائيل واليهود بوجه عام وهى التأكيد على أن هناك نوع من السمو الأخلاقى تتميز به اليهودية وينسحب منها على الدولة اليهودية نفسها (لا يخجل اليهود من القول بذلك) ، وتعود جذور هذه الفكرة إلى ادعاءات قديمة ينسبونها إلى الكتاب المقدس حيث ينشرون فكرة أن العبرانيين أمة كهنوتية وشعب مقدس "وأنهم نور للأمم" إن الصهاينة الأوائل أو على الأقل من يشبهون زابوتنسكى اعتبروا أنفسهم مهتمين بالأخلاقيات بالرغم من أن الدولة الصهيونية تحتاج إلى إلزام نفسها بالمثل العليا للأخلاقيات السياسية أكثر من الأمم الأخرى ، وقد قيل أن إسرائيل لا يمكن أن تحكمها نماذج الأخلاقيات العادية التى تطبق أو على الأصح يتم تجاهلها بمعرفة الدول ذات المبادئ الأخلاقية الأقل سمواً .

وهذا الافتراض الخاص بالسمو الأخلاقى بوصفه أحد مميزات الدولة الإسرائيلية قد أعلنه قادتها وأيضًا أنصارها من الأجانب على مر السنين ، وقد أثبت دائمًا أنه ميزة قيمة ضرورية لتحسين موقف إسرائيل الدولى وإثبات القبول إذا كان ذلك فى حاجة إلى إثبات ؛ لأن التأكيد بصرف النظر عن مدى وقاحته سيرتفع صوته عاليًا وينتشر بما يكفى لفرض الإيمان به على العالم كله .

وبالطبع فالحقيقة هى أن إسرائيل لا تسمو فى تعاملاتها الأخلاقية على وضعها كعضو فى المجتمع الدولى ولا تختلف عن غيرها من الأعضاء وهى فى الحقيقة أقل كثيراً فى المستوى الأخلاقى من دول كثيرة ، إن اليهود ليسوا أرفع أخلاقيًا ، ولا أقل

فساداً عن أى دولة أخرى ، ولكن هناك أصواتاً عديدة ذات تأثير كبير خاصة تلك الأصوات التى تعتبر شبيهاً بأصوات اليمين المسيحى ، والمتطرفين ، وأيضاً الذين يطورون الأشكال الكارزمية للعبادات الدينية ، هذه الأصوات تقبل وتطور مثل هذه التصريحات وتكررها تكراراً يضلل السذج وغير العارفين (سواء فى الأماكن المرتفعة أو المنخفضة) عندما تنكشف أساليب التضليل والكبت التى تطبقها إسرائيل أمام العالم .

إن الصدمات النفسية التى يتميز بها تاريخ الدولة الإسرائيلية ومعاملتها للفلسطينيين أصبحت الآن عميقة الجذور ، ويعزى إليها بقية التأثيرات اليهودية التى نتجت عن الاضطهاد الذى لاقوه فى أوربا ، والدمار الذى أحدثته هذه الأحداث فى السلوك الأوربى .

ومما هو جدير بالذكر أن ميل أوربا لاضطهاد الأقليات المنشقة إنما هو تعبير عن دور شياطين أوربا التى أحاطت بها ، إنه من سوء حظ أوربا أن تنكب فى الفترة التى ازدهرت فيها ثقافتها الرفيعة بالوقوع فى براثن الحركات الدينية المشئومة والاستبدادية التى فرضت انتشار سلوكيات تقليدية على عقول الأوربيين .

وقد لوحظ أيضاً أن الذين اضطهدوا هم الذين يمارسون الاضطهاد الآن ، إن الشياطين التى انطلقت من اللاشعور الأوربى هى التى تحرك اليهود فى إسرائيل وهؤلاء الذين يساندونهم فى العالم الخارجى قد سقطوا ضحايا لنفس هؤلاء الشياطين ، الذين وجدوا فى إسرائيل أرضاً خصبة لسكناهم ، إن شباب الإسرائيليين الآن يضربون عجائز العرب وأطفالهم كما كان شباب فرقة الانقضاض النازية يضربون عجائز اليهود أو يسوقون الأطفال اليهود إلى معسكرات الاعتقال .

إن المعتدين اليهود يحتقرون القانون الدولى ويسخرون منه مثلما يفعلون بالقانون الأخلاقى ، ولابد من إضافة عمليات استبعاد سكان القرى والمدن العربية ، واستخدام العقوبات الجماعية ، وتدمير الممتلكات الخاصة بالطرف الثالث أى الأفراد الداخلين فى النزاع ولكنهم ليسوا ضمن الطرف المعتدى عليه ، كل ذلك بالرغم من حقيقة أن المستوطنين بالأراضى المحتلة ممنوعون من التجنيد ضمن قوات الاحتلال .

وقد أدينت إسرائيل بسبب رفضها الالتزام بمعاهدة جنيف التي وقعت عليها حسب شروط تصريح سنه ١٩٤٩ :

- يحظر استبعاد سكان الأراضى المحتلة .

- يحظر إقامة المستوطنات التى تضم مواطنى قوات الإحتلال .

- يحظر العقوبات الجماعية وما يشبه ذلك من إجراءات التهديد أو الإرهاب .

وتلخص هذه الفقرات الثلاث جرائم إسرائيل التى ترتكبها فى حق فلسطين وشعبها .

وقد مارست إسرائيل نزع الملكية وتهديد التجمعات المدنية بشكل مكثف ضد السكان العرب فى دولة إسرائيل ، ومازالت تمارسها ضد سكان الأراضى المحتلة وهذه كلها مخالفة للقانون الدولى . أما عن الاحتلال الإسرائيلى لما يسمي باليهودية والسامرة الذى يطلق عليه اسم "تحرير" هذه الأراضى ، فإنه يذكر كل من عنده خلفية تاريخية بتحرير النازى لإقليم السوديت فى الثلاثينيات من القرن العشرين وما تلا ذلك من تحرير معظم القارة الأوربية ، وبالطبع فإن ذلك لا يمثل لنا مفاجأة عندما نجد أن إصطلاح "تحرير" قد استخدم بهذا المعنى بمعرفة مناحم بيجين الذى وعى الدرس عندما انخرط أثناء شبابه فى صفوف عصابة بيتاى [٥] .

إن وصف فساد سكان إسرائيل بمثل هذه الأفعال ليس مجرد خيال لأن نفس هذه الخيالات الشيطانية قد لوحظت فى أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين فى العقلية الألمانية التى مهدت لظهور الاشتراكية القومية بعد ذلك بحوالى عشر سنوات ، ونلاحظ أن لها مثيلاً فى انعكاس العقائد والعادات اليهودية التى نشاهدها الآن لخدمة متطلبات العسكرية العنيفة والصارمة .

لا محل الآن للتسويات ، إن حل مشكلة إسرائيل والفلسطينيين ليس فى مجرد قبول وجود دولة فلسطينية وهو المفهوم الذى يرفضه أحد الطرفين المسيطرين على السياسة الإسرائيلية فى الوقت الحالى ، ولكن الحل يتطلب إنشاء دولة فلسطينية

علمانية وليس أكثر من ذلك . إن التخلص من الصهيونية فى إسرائيل سيمهد الأحوال التى تتيح السلام لتلك الأرض الصغيرة المضطربة فى الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط . وما زالت هذه القضية ساخنة بصرف النظر عن مدى معرفة كلا الطرفين الإسرائيلى ومنظمة التحرير الفلسطينية لدرجة أهمية السلام لكل منهما .

الهوامش

(1) Ian S Lustick, For *the Land and the Lord: Jewish Fundamentalism in Israel*, Council on Foreign Relations, New York1, 1988 .

(2) Ian S. Lustick, "Gush Emunim: The Meaning and Impact of Jewish Fundamentalism in Israel', in *Democracy in the Middle East*, Proceedings of the 1992, Annual Conference, British Society for Middle Eastern Studies, University of St Andrews

(3) Chaım Weizmann, *Trial and Error: The Autobiography of Chaim Weizmann*. New York, 1966

(4) Ibid

(5) Lennı Brenner, *Zionism in the Age of the Dictators*
A Reappraisal,Lawrence Hill, 1983 .

الفصل التاسع

اليهود الشرقيون
وزوال الصهيونية من إسرائيل

منذ إنشاء دولة إسرائيل وشئونها تحت سيطرة اليهود ذوى الأصل الأوربى أصحاب الشخصية الجماعية، كذلك فإن الدساتير المميزة التى صدرت فى إسرائيل أوربية فى مصدرها ووظيفتها ، وإسرائيل نفسها دولة أوربية فى مقاصدها ، وأهدافها ، وقد زرعت فى تربة شرق البحر الأبيض المتوسط.

وكان مثل هذا الطابع الإسرائيلى ذى الميول الأوربية حتميًا لا مفر منه ، وكان يهود شرق أوربا الأشكيناز هم مؤسسو الدولة ، وبذلك فإن الصهيونية تعتبر ظاهرة أوربية شاذة كما أن الدولة الإسرائيلية هى أعظم مصنوعات الصهيونية ؛ ولكن هناك عنصرًا آخر أعظم أهمية إن كان غير معروف بشكل كاف وهو سكان إسرائيل اليوم ، ويمثلهم اليهود الشرقيون الذين يطلق عليهم أحيانًا اسم السفرديم للتمييز بينهم وبين الأشكيناز ، وهم المعروفون فى إسرائيل باسم إيدوت حاميزرات أو ميزراشيم أى الشرقيين (١) .

وهؤلاء هم اليهود الذين عاشوا فى اليمن ، وشمال أفريقيا ، وسوريا ، وشرق البحر الأبيض المتوسط ، والعراق ، وينضم إليهم تاريخيًا اليهود الأسبان والإيطاليون ، وتعتبر خبرتهم حسب تاريخهم وعلاقتهم بإسرائيل مختلفة عن زملائهم من اليهود الأوربيين .

لم يلق اليهود الشرقيون نفس درجة الاهتمام الذى حظى به الأوربيون سواء من الدارسين أو المعلقين السياسيين من اليهود أو غير اليهود ، إلا أنهم يمثلون القسم

الأكبر من المحفلين العظيمين اللذين تنقسم إليهما الديانة اليهودية . لقد أنشئت التجمعات اليهودية فى العصر الهلينستى حول كافة سواحل البحر الأبيض المتوسط ، وامتدت هذه التجمعات فى العصر الرومانى بشكل ملحوظ ، وخلال تلك الفترة الغريبة التى أندفع فيها إلى العالم الرومانى خليط من العقائد الغامضة والديانات الأجنبية التى تركت بصمتها على الكنيسة المسيحية فى صورة الجماعات المنحرفة ، المبكرة ازدهرت التجمعات اليهودية بشكل استثنائى [٢] .

وقد تحمل يهود العالم الهلينستى – على غير عادتهم – برامج تغيير المعتقدات وتأمين العديد من الأفراد الذين تم تحويلهم عن عبادات العالم القديم بنشاط كبير مما أدى إلى نمو الجماعات و ازدهارها [٣] . وقد حدث ذلك على أيام يوحنا هيركانوس (١٣٤ – ١٠٤ ق.م.) الذى أدى حكمه الفردى الذى تلطخ بالدماء إلى التحول القسرى إلى اليهودية على نطاق واسع [٤] ، ويقال إن ذلك قد حدث على أيام الحشمونيين [*] الذين يعتبر يوحنا أكثرهم شهرة من حيث سوء السمعة وحينذاك تكونت دولة يهودية فى فلسطين استغرقت الفترة من ٢٥١ إلى ٧٣ ق.م .

ومن بين الأقوام الذين تحولوا إلى اليهودية باستخدام العنف على أيام يوحنا الإدوميون الذين عاشوا فى الركن الشمالى الغربى من شبه الجزيرة العربية ، ولابد أن هذه القصة وغيرها مما تلاها تدل على ما حدث من زرع السكان اليهود فى شمال وغرب شبه الجزيرة العربية والذين كانوا موجودين على أيام البعثة النبوية . ولاشك أن استبعاد الذين لم يقبلوا الإسلام أضاف أعداداً أكثر إلى التجمعات اليهودية فى مناطق البحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا التى اندمجوا فيها ، وهم ليست لهم علاقات تاريخية أو وراثية بسكان شرق البحر الأبيض المتوسط الأصليين .

(*) الحشمونيون Hasmoneans ينتسبون إلى الاسم العبرى « حشمون » أى أنهم أحفاد حشمون ، وهو اسم لأسرة يهودية من بين فروعها المكابيون . وينتسب إليها رؤساء الكهنة والملوك الذين حكموا إقليم اليهودية فى فلسطين من سنة ٢٤١ إلى سنة ٣٦ ق.م. حيث قضى الرومان على دولتهم كما فعلوا بدولة الأنباط شمال الجزيرة العربية و دولة ليديا التى كانت قائمة فى آسيا الصغرى (المترجم) .

كان التحول إلى اليهودية بالقوة أكثر وضوحاً فى المنطقة التى سيطر عليها ابن يوحنا الذى يدعى أليكساندر جنايوس حيث تحول إلى اليهودية على أيامه سكان المدن الإغريقية فى وادى الأردن أو قتلوا بالسيف (٥) حتى أن مدينة بترا عاصمة الأنباط التى تعتبر إحدى العناصر ذات الأهمية فى سلسلة أنساب العرب المحدثين قد سقطت فى قبضته. أما دولة الحشمونيين التى تمثل الأسرة التى كان كان ينتمى إليها يوحنا وأليكساندر فقد اكتسحت مناطق واسعة من الأرض فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وسوريا ، وأخذت تهاجم السكان غير اليهود الذين فى طريقها وأنقصت أعدادهم عن طريق المذابح ، أو التحويل القسرى إلى اليهودية ، أو طردهم (نذير شؤم يهدد المستقبل).

إن هذا الإعلان الوحشى عن هوية الدولة اليهودية الذى قد ينكره الكثير من اليهود بوصفه دليلاً على دورهم التاريخى فى العالم ، قد رفع من نسبة سكان العالم الذين دانوا باليهودية إلى درجة لم تتحقق من قبل ، وفى وقت تدمير أورشليم على يد القائد الرومانى تيتوس سنة ٦٧ للميلاد قدر عدد السكان اليهود بحوالى ٤,٥ مليون نسمة (٦) ، ولاشك أن هذا الرقم المرتفع يعود إلى تحويل الناس إلى اليهودية بكافة الوسائل الممكنة ، وبصرف النظر عن الوحدة العنصرية للقبائل التى تحدثت بالعبرية أثناء القرون الأولى فى العصر المسيحى فقد استبدلت هذه الوحدة العنصرية بالتنوع اليهودى نتيجة للخروج على العقائد القديمة ، والزواج المختلط ، واعتناق العقائد الأخرى بالقوة .

ويلاحظ أنه فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام وبعد ذيوع قصة الحشمونيين لم يكن هناك دليل على وجود عداء متواصل بين الموالين للديانة اليهودية وأتباع الوثنية أو المسيحيين من العرب ،

وعلى كل حال ، فإن هذه الجماعات ازداد حجمها فى ذلك الوقت ، وكانت الجماعات اليهودية الغنية والمسالمة منتشرة فى العالم خلال الفترة المتأخرة التى تعتبر بلا شك إحدى فترات ازدهار التجربة اليهودية التاريخية . وقد واكب مدى النمو الذى

أحرزته الديانة اليهودية فى كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية الرفاهية الاستثنائية التى تمتعت بها فلسطين فى تلك الفترة (٧).

وفى العصر الرومانى لم تكن اليهودية تمثل فى حد ذاتها نشاطًا غير شرعى بالإضافة إلى أن آلهة روما لها سيادتها الرسمية ، ولذلك أحس الكثير من اليهود بقدرتهم على استخدام معارضتهم الخصوصية التى تسمح لليهود بالتحول إلى الإسلام ، والمسيحية فى أسبانيا ، وعلى سبيل المثال ، فإنهم سايروا الممارسات الدينية للمجتمع الذى يعيشون فيه مع ممارسة طقوسهم اليهودية بشكل خاص ، وكان ذلك هو الوضع فى روما و فى بعض الأحيان لم يوافق بعض الأباطرة على وجود اليهود أو اعتبروهم نصابين ، وعلى ذلك يبدو أن هادريان الذى يكرس الهلينية كان يكره الختان – وهو أمر كان يكن له مشاعر عدائية قوية مما جعله يعتبر الممارسات اليهودية خروجًا على القانون .

لقد تأثر يهود مدن البحر الأبيض المتوسط تأثرًا شديدًا بسبب تدمير الهيكل فى أورشليم سنة ٧٠ للميلاد بخلاف تأثرهم بسبب تدفق الأعداد الكبيرة من يهود شرق البحر الأبيض المتوسط للمعيشة فى وسطهم ، أما هؤلاء الذين طردهم الرومان فقد تحركوا جنوبًا وإنضموا إلى أقرانهم فى شمال إفريقيا ، بينما تحرك آخرون من غرب فلسطين إلى آسيا الصغرى حيث شكلوا تلك الخلايا اليهودية التى اتصلت بالتجمعات التى على شواطئ البحر الأبيض المتوسط والتى استطاعت أن تحوز إعجاب الخزر خلال القرنين التاسع والعاشر . وكان ظهور الإسلام فى القرن السابع يمثل وقتًا حرجًا بالنسبة لليهود الذين فى تلك الأرضى التى انتشر فيها القرآن الكريم بسرعة ، كانت هناك جماعات كبيرة من اليهود فى غرب وجنوب شبه الجزيرة العربية وكانوا يعيشون جنبًا إلى جنب الوثنيين العرب الذين خرجوا من بينهم ، وقد عمل الرسول (صلى الله عليه وسلم) على تحويلهم إلى الإسلام ولاشك أن الكثيرين منهم دخلوا الإسلام ولكن البعض الآخر عاند ورفض رسالة الإسلام ، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يصر على أن اليهود والمسيحيين يجب أن يعاملوا معاملة طيبة وألا يُكْرَهوا على قبول رسالته (٨).

ويمثل وضع يهود شبه الجزيرة العربية حالة خاصة ، استطاعت الإرساليات - خلال قرون الحماس لتحويل الأشخاص عن عقائدهم القديمة إلى عقائد جديدة والتى نشطت بين يهود العالم الهلينستى - تحويل عدد كبير من رجال القبائل وسكان المدن فى شبه الجزيرة العربية ، مما يعنى أن سكان شبه الجزيرة العربية حتى عندما كانوا يدينون بالوثنية كان لديهم استعداد لقبول العقيدة القائلة بوجود إله واحد . وعلى كل حال ، فقد تأسست جماعات ضخمة فى المدن العربية خلال الفترة السابقة على الإسلام ، وعندما أعلن النبى (صلى الله عليه وسلم) رسالته إلى أهالى شبه الجزيرة العربية وجد يهود شبه الجزيرة العربية أنفسهم فى موقف مراوغ لأنهم بوصفهم أهل كتاب يلقون التسامح فى المعاملة ولكن بوصفهم أعضاء فى جماعات ضخمة مزدهرة وجدوا أنفسهم يفقدون امتيازاتهم سريعًا عند مقارنتهم بمواطنيهم من المسلمين . لقد تحول الكثير منهم إلى الإسلام ولكن هاجر عدد كبير منهم إلى خارج شبه الجزيرة العربية ليضاف إلى التجمعات اليهودية التى تأسست من قبل على سواحل البحر الأبيض المتوسط ومن هـناك تحركوا إلى الأرض الأوربية ، ومن ثم وجدوا أنفسهم وقد وقعوا فى بعض الحالات بين مطرقة الإسلام وسندان المسيحية ، وعمومًا فإنهم فضلوا أن يعيشوا تحت الحكم الإسلامى الذى أصبح أكثر تسامحًا بعد مرور سنواته الأولى المفعمة بالحماس .

وكانت المجتمعات اليهودية والمسيحية فى موقف غير متميز اجتماعيًا عند مقارنتها بالمسلمين ، ولم يمنع ذلك بعض الأفراد المسيحيين واليهود من الوصول إلى أعلى الوظائف فى العديد من بلدان الإمبراطورية الإسلامية التى وصلت إلى درجات غير عادية من حيث الغنى المادى والثقافى خلال القرون التى تلت وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكان اليهود والمسيحيون فى كافة الدول التى تصارعت وناورت للسيطرة على المجتمع الإسلامى كله هم دعامة البيروقراطية كما كانوا يشكلوا غالبية طبقة أهل المهن والحرف ، كما كانوا هم المستشارون الموثوق بهم لدى الحكام الذين اعتمدوا على حسن نواياهم ، وكانوا هم الداعون إلى تحقيق العديد من الإنجازات الفكرية والعلمية التى اشتهرت بها الإمبراطوريات الإسلامية .

وإذا قارنا بين الأقليات التى عاشت تحت حكم الإسلام والأقليات التى عاشت فى أوربا فسنجد أن الأولى تمتعت بحياة مثمرة ومنتجة إلى جانب المسلمين الذين عاشوا معهم فى المجتمع الذى يمثلون جميعهم جزءًا منه.

وكانت هناك ظروف قام خلالها الغوغاء بإثارة العنف ضد المحلات والمنازل اليهودية والمسيحية فى المدن الإسلامية ولكن خلال القرون التى تلت انتشار الإسلام أصبحت مثل هذه الظروف استثنائية ، وتفسر ندرتها بأنه عند ظهور الانتفاضات كما حدث فى غرناطة سنة ١٠٦٦ كانت تدرس مشاكلهم كما ذكر المؤرخون المسلمون بل أيضًا المؤرخون اليهود أنفسهم (٩) ، ولم تحدث مهاجمة اليهود فى المدن العربية إلا بعد ازدياد النفوذ الأوربى فى الشرق الأوسط خاصة خلال القرن التاسع عشر ، ولم يكن نتيجة المصادفات أكثر منه نتيجة لمحاولة بعض المسيحيين أو اليهود التحالف مع ممثلى القوى أو المصالح الخاصة لتحقيق مكاسب شخصية (١٠) .

لقد تعرض غير المسلمين لبعض التشريعات الخاصة بالملابس أو ركوب الخيل أو حجم وارتفاع منازلهم، و مع ذلك فإن اليهود بوجه خاص بلغوا أو استمروا فى بلوغ المراكز الرفيعة فى كل أنحاء الأراضى الإسلامية وتحقق لهم ذلك أيضًا رغم أنهم ظلوا يهودًا فى ممارساتهم الاعتيادية والدينية .

وقد سجلت العديد من حالات التحول إلى الإسلام خلال فترة ازدهار الإمبراطوريات الإسلامية سواء من جهة المسيحيين أو اليهود ، إلا أن المسلمين مثل المسيحيين كان لهم موقف متكافئ نحو اليهودية واليهود .

إن ظاهرة الاستشراق التى ظهرت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر والتى ازدهرت فى العديد من المجتمعات الأوربية على الأقل حتى نشوب الحرب العالمية العظمى قد جذبت الانتباه نحو التجمعات اليهودية التى فى الشرق الأدنى ، واعتبرتها جزءًا من الخليط البشرى المتعدد الألوان والأشكال الذى استفادت منه وجهة النظر الأوربية تجاه الشرق (١١) ، فى بعض الأحيان كان يقوم أحد الرسامين الزائرين برسم صورة نصفية لأحد الحاخامات أو عرس يهودى أو الموكب المتجه إلى معبد اليهود أو الخارج منه ، ولكن لم يحاول أحد الانتباه إلى انعزال اليهود فى مجتمعات الشرق

الأوسط لأنه لم يكن هناك برهان على مثل هذا الانعزال. وحتى دزرائيلي الذى عندما شعر بأهميته التى بنيت على أساس أصوله اليهودية (مما أثار غضب بعض أصدقائه المحافظين الذين أرادوا ألا يبدو كذلك) عندما كان مسافراً فى أرجاء شرق البحر الأبيض المتوسط ومصر متباهياً بسحر ملابسه وحركاته كفتى فى ريعان الشباب لم يعر الكثير من الانتباه لليهود الذين يعيشون هناك ، وفضل أن يشاهده صديقه المقرب صيدونيا وهو يرى نفسه سليل العنصر البدوى المنعزل وغير المختلط(١٢) .

إن تعبير دزرائيلي المتطور عن اهتمامه بتاريخ اليهود فى الأراضى العربية ينعكس بشكل خاص على البطل الرومانى والمفعم بالأسرار الذى تمثله شخصية "أمير السبى" فى روايته Alroy (١٣) ، حيث يعرض دزرائيلي الفرح الغامر بإعادة إنشاء مجتمع إسلامي من العصور الوسطى ، وقد تجمع أفراده حول الخليفة فى بغداد كما يقدم قصة جميلة عن قائد السكان اليهود فى المدينة الإمبراطورية ، لقد كان اليهود المقيمون فى الإمبراطورية ينتظمون تحت سيطرة حكومتهم الخاصة بهم التى يمثلها ناسى الموظف الذى منحه دزرائيلي العنوان الرقيق والمثير للعواطف "أمير السبى"، والحقيقة هى أن هناك أساساً تاريخياً لقصته هذه يتمثل فى أن المجتمع اليهودى فى بغداد كان كبيراً ، وغنياً ، وقوياً ، وجريئاً ، وموهوباً خاصة فى مجالات الفنون ، والمجوهرات ، والبنوك وما شابه ذلك وكان حريصاً على خدمة الإمبراطورية وكان المجتمع اليهودى يدار بمعرفة شيوخه تحت سيطرة الخليفة .

ومن الطبيعى أن يضيف دزرائيلي القول بأنه ينتسب إلى هذا الشخص الجذاب بالرغم من أن عائلته كانت من السفرديم ولكن لا يوجد دليل يؤكد هذا الافتراض .

والصهيونية مثل دزرائيلي لا تعير الاهتمام لليهود الشرقيين على مدى عشرات السنين التى استغرقتها فى نموها فقد كان اهتمامها قاصراً على اليهود الأوربيين ، وقد أشار الكثير من الكتاب اليهود فى القرن التاسع عشر - عند وصفهم لأحوال الشرق الأوسط - إلى التفرقة بين اليهود والعرب الذين كانوا يعيشون بينهم وهم يرون اليهود العرب ، مثلما يقال عن المسيحيين فى سوريا وشرق البحر الأبيض المتوسط إنهم

المسيحيون العرب ، وعلى هذا النسق كانت نظرة دزرائيلى إلى أجداد اليهود – الذين يعتقد أنه انحدر عنهم – بأنهم بدو الصحارى السورية والمصرية .

وأثناء اضطهاد يهود أوربا على يد النازى لم يتعرض أحد ليهود شمال أفريقيا وحيث حاولت حكومة فيشى فى فرنسا سن قوانين معادية لليهود لكى تطبق على شمال أفريقيا الفرنسية فإن الإدارة المحلية كانت تتجاهل هذه القوانين ، أما يهود مصر ، والعراق ، والمغرب على وجه الخصوص فقد كانوا موافقين وسالمين ، وكان ملك المغرب محمد الخامس يحمى اليهود الذين تحت سيادته (١٤) .

وكان اليهود فى العديد من دول الشرق الأوسط يتبعون الإحتلال بشكل تقليدى وهو الذى كان يعرضهم فى أوقات الأزمات لكراهية غير اليهود ، وكانوا يعملون غالباً بجمع الضرائب أو الديون كموظفين لدى الدولة أو لدى أصحاب الأراضى الخاصة والرأسماليين لجمع المدفوعات التى تخصهم ، وكان الشعور الواضح يشير إلى أنهم أقل من غيرهم ممن كانوا يتمتعون بالعطف المعتاد . وعلى سبيل المثال فإن ظهور جامع الديون فى القرية التى تقع فى مصر السفلى كان يعتبر نذيراً بالخطر أو المعارضة أو المقاومة . وكان اليهود أيضًا هم المرابون وهى وظيفة كانوا يقومون بها فى البلاد المسلمة وكذلك البلاد المسيحية فى أوربا العصور الوسطى ، وقد اعتقد المسلمون والمسيحيون معًا أن اليهود ممنوعون من الإقراض مقابل فائدة ولم يعرفوا أن هذا الحظر لا ينطبق على القروض التى تمنح لغير اليهود ؛ ولكن على العكس كان اليهود ينالون الاحترام فى المهن المختلفة كمثقفين ومدرسين صالحين .

ولم يكن هناك أبداً اضطهاد منظم ومتواصل لليهود فى الأراضى المسلمة مثلما كان يحدث فى أوربا المسيحية كثيراً ، ويصدق هذا الكلام على المناطق التى يسود فيها أغلبية مسلمة من المذهب السنى ، وينطبق ذلك على كافة الدول الإسلامية فيما عدا الأراضى الإيرانية والأراضى الملاصقة لها مباشرة تلك التى تتبع المذهب الشيعى ، والحقيقة هى أن اليهود كانوا أقل حظًا فى الأراضى الشيعية حيث وصل اضطهادهم إلى نفس مستوى الكثافة فى أوربا وإن كان أقل حدوثًا .

وقد استمر سوء حظ اليهود فى إيران حتى الإطاحة بأسرة قاجار ١٩٢٦ ، ومع مجىء حكم بهلوى الأكثر توجهًا نحو الغرب وانفتاحًا على العالم تحسن وضع اليهود بشكل لا يقارن ، و فى أيام الشاه السابق أصبحت إسرائيل شريكًا خفيًا لإيران، تشترى منها البترول وتمدها بالنصيحة فى الشئون العسكرية حتى أصبحت ضمن كبار المصدرين لإسرائيل بما فى ذلك العناصر التخريبية والاستخبارات السياسية (١٥) . ومن الأمور التى تزيد من السخرية فى شئون السياسة المعاصرة أنه حتى حكم آيات الله وبينما هم يشتمون إسرائيل ويسبونها إلا أنهم استمروا فى استخدام خبراء إسرائيل العسكريين كمرتزقة وذلك أثناء حرب إيران مع العراق ، وقد فطنت إسرائيل سريعًا إلى كفاءة المثل العربى القائل : "عدو عدوى يعد صديقى" .

وإذا كان لنا أن نتحدث عن التسامح إزاء اليهود فى دول الشرق الأوسط فإنه أكثر وضوحًا فى المجتمعات المسيحية العربية فى شرق البحر الأبيض المتوسط و مصر إلا أنه أصبح موضوعًا للنزاع مع عامة الشعب خلال القرن التاسع عشر ، أى فى الوقت الذى بدأت فيه المحاباة الأوربية تلوث الأراضى الإسلامية ، إن المسلمين يتخذون موقف التسامح العمومى وإن كان بعضهم يهمل فى ذلك (ربما اعتبرنا اللامبالاة هى الوصف الأكثر دقة) نحو التجمعات اليهودية التى بينهم ، وعلى كل حال ، فإن هذا الموقف تغير بشكل صارم ومثير للدهشة نتيجة لظهور دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨، حيث زرعت دولة دخيلة وبشكل فجائى فى الأرض التى ظلت عربية على مدى الزمن الذى يستطيع الإنسان أن يتذكر مداه ، والأسوأ من ذلك هو أن الدولة الجديدة أصرت على أن يكون ولاء كل شخص يهودى متجهًا نحوها بصرف النظر عن الوطن الذى يعيش فيه ، وربما كانت إسرائيل هى الدولة الوحيدة فى العالم التى جعلت من عدم الإخلاص للأرض التى يعيش فيها الإنسان فضيلة ، ولم يفت على العرب إدراك هذه النقطة وقت قيام إسرائيل .

وعندما وصلت الرحلة الطويلة الخاصة بتحقيق قيام الدولة اليهودية العنصرية إلى مداها فى أحداث سنة ١٩٤٧ وسنة ١٩٤٨ فى الجمعية العامة للأمم المتحدة انقسم العرب لأن الكثير منهم كان لا يزال محتلاً بقوات من الدول الاستعمارية بالرغم من أن هذا التأثير كان آخذًا فى التضاؤل ، ومن الأهمية بمكان أن نفهم أن إسرائيل وهى

تحقق وجودها نتيجة لقيامها بمناوشة إحدى القوى الاستعمارية لم تفهم أنها هى نفسها غرس استعمارى على مثال المستوطنين البيض فى روديسيا أو المستعمرات الفرنسية فى فيتنام أو الجزائر .

وفى سنة ١٩٤٨ كانت الكثير من الدول العربية مازالت تعتمد على مساندة أوربا السياسية و المادية ونتيجة لذلك فقد حيل بين الكثير من هذه الدول العربية وبين أن تحيا حياتها الطبيعية ، ولم يعارض هذا الموقف الدولى الخاص بإنشاء إسرائيل بشدة وإصرار إلا قائد عربى واحد ربما كان من أعظم رجالات عصره هو الملك عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل سعود ملك المملكة العربية السعودية[١٦] ، فقد كان يرفض دائمًا مبدأ إقامة دولة يهودية عنصرية فوق الأرض العربية وحذر أى شخص ينصت إليه (وكثيرون لم ينصتوا) من سياسة السماح لليهود الأوربيين بالهجرة إلى فلسطين ؛ ولكن صوته كان هو الصوت الوحيد فى الوقت الذى لم تكن فيه المملكة العربية السعودية تمارس تأثيرها السياسى والمالى الذى أصبح طوع أمرها فيما بعد.

وبعد إنشاء إسرائيل عندما استطاع الرجال الذين قادوا عصابتى شتيرن وإرجون أن يبدأوا مهام وظيفتهم كخدام للدولة الجديدة حان الوقت بالنسبة لهم ولجميع من أقاموا ما يمكن أن يطلق عليه اسم أكبر انقلاب سياسى شهده القرن العشرون ، أن ينظروا إلى أنفسهم ويبحثوا الموقف من كافة جوانبه ، وكان هناك شىء واضح تمامًا وهو حاجة إسرائيل إلى كل شيكل(*) لإعانتها وإلى كافة المنح التى تستطيع الحصول عليها حتى يمكن للدولة أن تستمر فى البقاء ، واستخدمت اليهودية العالمية أو كما وصفت فى اللغة الخيالية استخدمت بمعرفة رجال الدعاية الصهاينة "يهود الشتات "Diaspor " الذين كانوا يمثلون الهدف الأول ، وقيل لهم إنه لا يوجد يهودى واحد يعيش خارج إسرائيل يمكن أن يعتبر يهوديًا بحق إذا لم يهاجر إلى إسرائيل ، ولكن هذا الحكم الصارم يمكن تخفيفه بتحويل كل ما يستطيع تحويله من أموال لصالح دولة إسرائيل ، وقيل أيضًا لليهود الذين فى خارج إسرائيل إنه من الضرورى عدم

(*) الشيكل : عملة النقد الإسرائيلية . (المترجم) .

توجيه ولائهم للدولة التى يتمتع اليهودى بحقوق المواطنة فيها ولا حتى للدولة التى ولد بها ولكن الولاء لإسرائيل وحدها ، وبذلك سنت الصهيونية مبدأ عدم الولاء كجزء من برنامج الدولة الجديدة بالنسبة لمن يعيشون خارج حدودها ، وعند هذه النقطة قرر مخططو نظام الحكم الإسرائيلى فى لمحة خاطفة من الإدراك الملحوظ أن إسرائيل فى حاجة إلى عدو لدود واضح والأفضل ألا يكون عدواً خطيراً ؛ ولكن يمكن القول بأن عدوانه يتطلب المساندة الأمريكية والأوربية لصالح ما يسمى "إسرائيل الصغيرة الشجاعة" وكان العرب فى متناول اليد لأنهم بلا قيادة ومتحيرون إزاء العالم الذى لم يفهموا عنه إلا القليل وهذا هو العدو .

وكانت ثورة ١٩٥٢ فى مصر هى المعونة التى هبطت على إسرائيل من السماء ، وجاء جمال عبد الناصر إلى السلطة فى القاهرة و كان شاباً ذا شخصية كارزمية وتنقصه الحنكة السياسية [١٧] ، وبذلك لم يكن من الصعب إيجاد الموقف الذى يصبح فيه جمال عبد الناصر رمزاً لرفض العرب لإسرائيل والإحباط الذى عانوا منه. والحقيقة إنه مع اللامبالاة التى أبداها العالم فإن قيادة جمال عبد الناصر للعرب لم تكن ذات أهمية كبيرة فيما عدا ما أدت إليه من ضياع حياة شباب مصر من الجنود فى سلسلة من الاشتباكات الحربية التى ظهر فيها الإسرائيليون بمثابة المنتصرين دائماً ؛ ولكن الآن فأن العالم العربى الذى يبلغ تعداده مائة مليون شخص يمكن تقديمه للرأى العام فى الولايات المتحدة الأمريكية بوجه خاص ووسائل الاتصال العالمية بوجه عام على أنه يقف ضد دولة إسرائيل الصغيرة ، وهكذا يظهر الإسرائيلى الصغير «داود» وهو يهزم الجبار العربى «جوليات» فى معركة الشرق الأوسط المرهقة والتى هى محل الجدل .

وعلى الرغم من هذا فقد بقى الشذوذ الأخرق الوحيد الكامن بعد إنشاء إسرائيل وهو الذى لو أتيح له الاستمرار فإنه قد يجعل معظم الجدل الذى أثارته إسرائيل حول الأخطار التى واجهتها من عدوها العربى المتوحش لغواً سخيفاً بلا معنى ، **وهذا هو الوجود المستمر الوديع للجماعات اليهودية الضخمة فى عدد من البلاد العربية** [١٨] **ويوجد العديد من هذه الجماعات فى القاهرة ، والإسكندرية ، وبغداد** التى تعيش فى رفاهية وتتزايد درايتها بشئون الحياة وتلعب دوراً كاملاً ومهماً فى الكثير من مظاهر الحياة فى الدول التى ينتمون إليها كمواطنين والتى كان أجدادهم ضمن مواطنيها

لفترة طويلة وكان من الضرورى أن يقتنع أعضاء هذه الجماعات بضرورة الهجرة إلى إسرائيل بكافة الوسائل الممكنة ، وإذا لم يكن من المستطاع إقناعهم فإن قضية إسرائيل بوصفها القبلة التى يتجه نحوها جميع يهود العالم ستصبح باطلة وتصبح الطبيعة الكاملة والغرض من إنشاء دولة إسرائيل مجالاً للاستفهام ، وعلى ذلك فإن مثل هذه الهجرات ستوضح أنها ضرورية نتيجة للاضطهاد المألوف الذى تعرض له يهود العالم العربى على يد سادتهم العرب ، وبذلك يظهرون بأنهم يعانون من الاضطهاد على الأقل حينما تتم مقارنة هذا بمثيله الذى عانى منه اليهود مؤخراً فى وسط وشرق أوربا .

أن هذا الجانب من السياسة الإسرائيلية لم يلقَ بعد ما يستحقه من اهتمام بالرغم من أنه مسجل بشكل ممتاز ، (١٩) وستظهر لنا دراسة الوثائق المدونة كيف تغلغل عملاء إسرائيل فى التجمعات اليهودية المسالمة فى العديد من العواصم العربية (٢٠) ، لإثارة الاختلافات فى الرأى وخلال هذه العمليات سقط كثير من الشهداء ، وهذه الخلافات كثيراً ما أضرت بالأشخاص الذين اقتنعوا بضرورة القيام بأفعال إجرامية أو إرهابية ضد البلاد التى كانوا حتى ذلك الوقت يعيشون فيها بسلام مما جعلهم يصبحون بعد ذلك عرضة للمثول أمام المحاكم التى كانت تصدر عليهم أحكام الإعدام ، لم تتوقف وسائل الإتصال الإسرائيلية عن صب اللعنات على الدول العربية (بشكل تفوق على السباب الذى يصبه العرب أيضًا على إسرائيل) وقد جرى الانتباه نحو ما اختاروه من قطع العهد على أنفسهم بأن يكونوا هم الممثلون للمجتمعات اليهودية فى المدن العربية.

ونتيجة لهذه الحملة الجائرة اعتبر العرب اليهود الذين يعيشون فى وسطهم أجانب للمرة الأولى فى تاريخهم و أنهم مصدر لكافة الأنشطة الهدامة المحتمل حدوثها ، وقد أشرنا منذ قليل إلى أن الدعاية الصهيونية كان لها دائمًا من يستمع إليها بين العرب أنفسهم ، وبالتدريج اقتنع يهود العالم العربى بترك أوطانهم والرحيل إلى فلسطين التى لا يعرفون عنها إلا القليل وذلك رغمًا عن ميولهم الشخصية واندفعوا إلى ذلك مع غيرهم من اليهود الذين لم يكونوا نحوهم إلا قليلاً من شعور المشاركة الاجتماعية .

وعندما وصل إلى إسرائيل التجار الأثرياء من بغداد ، والأطباء ، والمدرسون من القاهرة ، والإسكندرية ، والفلاحون ، وصغار أصحاب المحلات من الجزائر ، والمغرب ، والفلاحون الأميون الحفاة من اليمن وحشد غفير من صغار الناس من كافة هذه الأماكن، لم تثبت إسرائيل عطفها عليهم ، وسرعان ما أحيل اليهود الشرقيون إلى المرتبة الثانية ، وأطلق المستوطنون الأوربيون صفات الازدراء والسباب عليهم وعلى طريقتهم فى الحياة ، وحتى اليوم فإن التجمعات الشرقية يصفها الأشقاء الأشكيناز بأنها (السوداء) وليس ذلك من باب المديح (٢١) .

وقد انطلق معظم السباب الموجه إليهم عندما كان اليهود الأوربيون فى موطنهم فى ألمانيا خلال الأربعينيات من القرن العشرين عندما كان الهدف هو اليهود الأوربيون الذين يتفاخرون الآن بتفوقهم على اليهود الشرقيين المحتقَرين ، وقد اكتشف هؤلاء الشرقيون مثلما اكتشف العرب – رغم ما يشاع عن الديمقراطية فى إسرائيل – أنها لم تطبق تمامًا على اليهود الذين من أصل شرقى مثلما حدث مع السكان العرب الأصليين عندما منعت عنهم الحقوق المدنية . ولم يكن اشمئزاز اليهود الغربيين من الشرقيين ظاهرة جديدة ذلك أنه حتى على أيام العثمانيين كان اليهود الأوربيون الذين يعيشون فى أراضى الإمبراطورية يطالبون بفصل الأحياء التى يعيشون فيها، وطعامهم، وعبادتهم عن أشقائهم اليهود الشرقيين . وسرعان ما وجد اليهود الشرقيون فى إسرائيل أنفسهم يتدنون إلى مرتبة العمال الكادحين ، وقد اعتاد اليهود الأشكيناز على النظر إلى أنفسهم على أنهم المستوطنون الإسرائيليون الحقيقيون مع الحط من مستوى الشرقيين إلى درجة لا تعلو كثيراً على درجة العرب الأصليين ، كما اعتادوا على صعوبة الحصول على مؤهلات علمية عالية لكى تتم ترقيتهم إلى مستويات الإدارة فى الصناعة أو الحصول على رتب الضباط فى القوات المسلحة (٢٢) .

وأصبح الفصل بين اليهود الشرقيين والأشكيناز دائمًا عن طريق توزيع التجمعات التى يعيش فيها كل طرف، وهذا الفصل بينهما إذا قدم عنه تبرير عادى كالقول بأنهم يريدون أن يعيشوا بهذا الشكل ، فإن يفتح باب الانقسام فى المجتمع الإسرائيلى الذى قد يستمر بدون اتصال ، وهذا الوضع يكشف عن وجود عنصرية فى أسلوب الحديث الإسرائيلى عندما يطبق على التقسيمات الاجتماعية ، والموسيقى ، والمسرح، وما يشبه

ذلك ، بما يعنى وجود جماعتين شرقية وإسرائيلية ، ومن الناحية الأخرى فإنه يعنى اختيار الأشكيناز عند الاختبار للوظائف ، لقد وجد الأشكيناز حتى أصحاب النيات الحسنة نحو جيرانهم الشرقيين أنفسهم يطبقون بدقة مواقف الحماية (التى تفسر بأنها عنصرية بالنسبة لهؤلاء الذين لم يكونوا مساندين لإسرائيل) نحو الذين ينتمون إلى أصول شرقية ، ومن المرجح أن الطراز الأوربى فى الثقافة والأخلاقيات سيكون هو المعتاد فى المجتمع الإسرائيلى حتى أن الإسرائيليين الذين لا ينتمون إلى الأشكيناز سيطمحون للوقوع فى فخ نموذج الحياة الأوربية ، ولن تحتاج المواقف الطبقية والعنصرية التى يمليها هذا الوضع إلى تعديل ولكن الشخصيات الإسرائيلية الرئيسية ستصر على أن إسرائيل لا تمثل مجتمعًا طبقيًا أو عنصريًا .

ويميل اليهود من أصول أوربية وقد انضم إليهم الآن اليهود المتحمسون من أمريكا (وهم غالبًا الأكثر عدوانية اعتداداً بالنفس بين كافة المهاجرين خاصة هؤلاء الذين استقروا فى الأراضى المحتلة بعد حرب ١٩٦٧) ويهود الكومنولث البريطانى إلى استبعاد اليهود الشرقيين من مجتمعهم مفضلين رؤيتهم وهم يحتلون ما لا يتجاوز أوضاع سكان الجيتو الذين لا يتمتعون بأية امتيازات فى المجتمع الإسرائيلى الأوسع ، وللأسف فإن هذه الجيتو كانت من النوع الذى رفض الأشكيناز تطبيقه عليهم فى أوربا بعنف وإصرار ؛ ولكن اليهود الشرقيين لديهم سلاح سرى سيؤدى إلى تغيير سلوك إسرائيل سريعًا وهو القوة التى تكمن فى أحقاء الرجال وأرحام النساء .

ومن الواضح أن اليهود الذين لا ينتمون إلى الأصول الأوربية ستكون لهم الأغلبية فى إسرائيل مع نهاية القرن العشرين ، وستزداد هذه النسبة بحيث تصبح نسبة اليهود ذوى الأصول الأمريكية أو الأوربية حوالى ٣٠٪ من تعداد السكان وذلك عند حلول سنة ٢٠١٥ ثم تصبح هذه النسبة ٢٢٪ إذا وضعنا الأراضى المحتلة فى الاعتبار ، ويمثل العرب الإسرائيليون حاليًا نسبة ٤٠٪ من النمو السكانى ، وستصبح نسبة السكان اليهود فى إسرائيل والأراضى المحتلة معًا حوالى ٥٢ ٪ خلال فترة ثلاثين عامًا أى حوالى نصف سكان الدولة اليهودية [٢٣] .

ويضاف إلى هذا الخلل فى الميزان أثر الهجرة السلبية التى تحدث فى إسرائيل منذ أوائل التسعينيات من القرن العشرين ، حيث فقدت الدولة بسببها أعداداً من المهاجرين ومنهم على سبيل المثال المهاجرون الروس لأنهم يفضلون الاستقرار فى أمريكا أو فى دول الغرب ، وذلك بالإضافة إلى الإسرائيليين الذين استقروا فى إسرائيل فترة طويلة ولكنهم رحلوا أيضاً مما أدى إلى تقليص الأعداد الاحتياطية من اليهود الغربيين الذين كانوا السبب الجوهرى لوجود هذه الدولة و قد أعطوها صفتها الإسرائيلية ، وقد ارتفعت نسبة اليهود الذين تركوا روسيا إلى ٨٠٪ من الذين لهم حق الهجرة وهؤلاء هم أصحاب الصوت العالى فى المعارضة ، وقد ازداد عددهم بسبب المتطرفين وهم الآن يرغبون فى السفر إلى الدول الغربية ، وقد اتخذت معارضة اليهود الروس للبقاء فى إسرائيل شكلاً دراميًا حتى أن أمريكا اقتنعت بأن تقلل أعداد الداخلين من اليهود الروس إلى الولايات المتحدة وأن تبذل جهوداً شاقة لنقل اليهود من روسيا إلى إسرائيل مباشرة ، أما هؤلاء الذين يسافرون من خلال الطرق الأوربية فإنهم يظهرون ميلاً مثيراً للقلق نحو البقاء فى أوربا أو الرحيل إلى الموانىء الأمريكية عندما يكون ذلك فى مقدورهم .

وعلى ذلك فإن نسبة هؤلاء اليهود الذين أقنعتهم إسرائيل بأن تحميهم من الاضطهاد الأوربى قد تناقص عددهم سريعًا إلى درجة أنهم سيصبحون سريعًا أقلية واضحة بالنسبة لشركائهم فى الدين المحتقرين ، وهم اليهود الشرقيون الذين لم يرغبوا فى الذهاب إلى هناك منذ البداية ، ولقد أصبحت إسرائيل بسبب حركة السكان الداخلية دولة مختلفة تمامًا عن تلك التى اقتنع بها الصهاينة الذين أنشأوها ، وقد تعقد الميزان الديموجرافى الإسرائيلى بسبب الانهيار السكانى لليهودية العالمية وهذا هو ما حدث بالنسبة لتجمعات الأشكيناز نتيجة لانخفاض معدل المواليد ومعدل الاندماج .

وبينما يتحول اليهود الشرقيون فى طريقهم لكى يصبحوا هم القوة السياسية السائدة فى إسرائيل فمن المتوقع بالنسبة لهم أن يطبقوا سياسات متطرفة أكثر ولاشك أنهم لن يقبلوا الخضوع للإقناع بأسلوب مهذب أو محاورات رجال الدولة المنظمة ، وسيتضاعف الغضب من اليهود الشرقيين عند إسقاط المنح الواردة من الصهيونية العالمية عنهم ، لأنه مادامت الأغلبية للأشكيناز فإنهم سينظرون باشمئزاز إلى نوعية

المجتمع الذى تتحول إليه إسرائيل تدريجيًا أو ربما بدون تدرج ، إن تيار الهجر- الخالصة من إسرائيل سيمضى سريعًا بين هؤلاء اليهود الذين لهم علاقات مع غرب أوربا أو أمريكا .

لقد بذلت إسرائيل الكثير لتسهيل هجرة اليهود من روسيا واستقرارهم فى إسرائيل ، أما حاجة الولايات المتحدة الماسة لوقف هجرة اليهود من روسيا فقد أوجدت ما يشبه الحاجة للحماس من جهة الروس للبحث عن حياة جديدة فى إسرائيل ولابد وأن يرغب الكثيرون منهم فى المعيشة فى أوربا أو الولايات المتحدة ، والآن فأن الألوف العديدة من اليهود يغادرون روسيا أو أنهم غادروها بالفعل .

ولا يثير دهشتنا ما نعرفه من أن الدول العربية قد أعطت اهتمامًا ملحوظًا لهذا التطور واعتبرت أنه يمثل الافتقار إلى الحليف الوحيد وفرصة أكبر لاستقرار يهود أوربا على أرض فلسطين ولكن لابد لإسرائيل نفسها أن تعلم أن تهجير عدد أكبر من اليهود الذين جاءوا من خلفيات مهنية يجعل من ذلك غرسًا خطيرًا ؛ لأن معظم المهاجرين الروس الجدد صهاينة والقليل منهم يرتبط بإسرائيل فكريًا بطريقة ما ، وسيكون من الصعب عليهم إيجاد نوعية الحياة التى تتلاءم مع أوضاعهم المهنية والصفات التى عرفوا بها فى روسيا وثارت الإتهامات بالاستفزاز المتطرف ضد اليهود من جانب المعارضة السياسية التى برزت فى روسيا والتى لا يمكن تجاهلها بما يثبت أنها ليست بالدرجة التى قيلت عنها ، ولذلك فإن الإسرائيليين الجدد سيكتشفون أنهم قد رحلوا للمعيشة فى أرض لم يستعدوا لها الاستعداد الكافى ، وربما وجدت إسرائيل أنها عندما تمتص هؤلاء المهاجرين فسيكون الناتج هو تكوين أقلية يهودية مختلفة لمنافسة الأقلية العربية المختلفة الموجودة حاليًا فى المجتمع وعندما نجد أنه من الصعب قيام الروس بانتفاضة خاصة بهم فإنهم قد يشاركون فى هلاك إسرائيل الحتمى .

وبالرغم من المشاكل التى تثور بسبب فرض المهاجرين الروس على البنية السياسية الإسرائيلية ، فإن سكان إسرائيل من العرب سيستمرون فى التزايد وكذلك أيضًا السكان من اليهود الشرقيين ، وبذلك قد نلاحظ ومضة الأمل فى اقتراب دلائل المستقبل الموحش .

من المحتمل ألا يقدر اليهود ذوو الأصول الأوربية على توفيق أنفسهم لقبول دولة علمانية غير صهيونية محل الدولة اليهودية وبذلك يستطيع فريقان من الناس الشرقيين ، أو على الأدق جماعتان من نفس الأصل الشرقى تنتميان إلى هويتين دينيتين مختلفتين أن تجدا مسكنًا مشتركًا ، بحيث إنهما بعد كل ما جرى من قبل مع الأوربيين تتعايشان معهم ، ولابد للفلسطينيين المسلمين والمسيحيين أن يعرفا معًا أن اليهود الشرقيين هم أنفسهم الذين كانوا يعرفونهم من قبل باسم اليهود العرب ، وهم الذين جاءوا من الأراضى العربية ، وجرت العادة على إطلاق اسم العرب عليهم بنفس المفهوم الثقافى الذى يطلق به هذا الاسم على المسيحى اللبنانى أو البربرى المغربى أو القبطى الذى من مصر العليا ، وعلى اليهود الشرقيين أن يعرفوا هم أيضًا أنهم يشكلون مع العرب شعبًا واحدًا مختلفًا تمامًا فى خصائصه وأكثر تقاربًا عن الأوربيين الذين يعيشون الآن فى وسطهم .

ويصبح هذا الاختيار أكثر حدة عندما يحدث نوع من الحوار بين الفلسطينيين والإسرائيليين ومن العدل أن تكون أية سياسات تطبقها حكومة إسرائيل فى صالح العنصر الأشكينازى فى المجتمع الإسرائيلى ، لأن حزب العمل الأشكينازى هو الذى قدم تأييده دائمًا والذى جعل لمصالحه الأولوية ، ولن يحصل اليهود الشرقيون على شىء أكثر من مراعاتهم بشكل سطحى خلال أى تنسيق قد ينتج عن الموقف السابق ، لقد كان انتخاب حزب العمل للوصول إلى السلطة فى إسرائيل فى غير صالح السفرديم كما أنهم لم ينالوا شيئًا على مدى مسار حكومات حزب العمل السابقة خلال الفترة المتوسطة بحيث يشعرون بالتفاؤل.

وبالرغم من الفروق المثيرة للسخرية فإنه من الممكن أن يحدث الحوار بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية قريبًا وليس بعيدًا ، ويؤدى إلى التقارب بين الفلسطينيين واليهود الشرقيين للتعرف على الهوية العمومية لمصالحهم ، ومن المحتمل ألا يكون ذلك قد خطر على بال الأمريكيين أو الحكومات الإسرائيلية عندما بدأت هذه العملية ، وربما كان ذلك هو الأفضل والأكثر دوامًا بناء على فهم هذه الحقيقة .

الهوامش

(1) For a general discussion of the Jews in Islamic countries see Bernard Lewis, The Jews of Islam, Routledge &Kegan Paul/1984 The anomalous position of the Oriental Jews in Israel is graphically documented by Shlomo Swirski/ Israel· The Oriental Majority, Zed Books, 1989 .

(2) Paul Johnson, A History of the Jews,-Weidenfeld-&.Nicolson,-1987.

(3) R Pataı and J. Patai, The Myth of the Jewish Race, rev edn, Wayne State University Press, Detroit, 1989 for what is by far the most comprehensive survey of Jewish proselytism in late antiquity.

(4) Johnson, op. cit.

(5) Ibid.

(6) Patai and Patai/ op. cit.

(7) Johnson/ op. cit

(8) Lewis, op cit

(9) Ibid

(10) It is in thıs light that the outbreaks of anti-Jewish feeling in North African towns in the nineteenth century/ for example, must be judged.

(11) See Edward W Said/ Orientalism, Routledge &Kegan Paul, 1978 .

(12) For Dısraeli's fascınation with a highly romanticised Orient see, in particular, Alroy and Tancred. For his sense of his own Jewısh identity see his speech on the admission of Baron Rothschild to the House of Commons in 1847 Robert Blake, Disraeli, Eyre &Spottiswoode, 1966

(13) Benjamın Dısraeli, The Wondrous Tale of Alroy and the Rise of Iskander, 3 vols, Saunders &Otley, 1833 .

(14) See Marion Wolfson, Jews in the Arab World, Faber and Faber, 1980 , Citing Jewısh Chronicle, 10 June 1977 .

(15) See Benjamin Beit-Hallahmi, The Israeli Connection: Whom Israel Arms and Why, I. B Tauris, 1987

(16) David Holden and Richard Johns/ The House of Saud, Sidgwick &Jackson, 1981 .

(17) See, inter alia, Erskine Childers, The Road to Suez, MacGibbon &Kee, 1962, Sir Anthony Nutting, Nasser, Constable, 1972 .

(18) A revealing study of one important Sephardic community, that of Baghdad/ its transmission to Israel and its subsequent experience, is related in Chaim Raphael, The Road from Babylon, "Weidenfeld &Nicolson, 1985

(19) In particular, Marion Wolfson/ op cit

(20) For example, Abbas Shiblak, The Lure of Zion The Case of the Iraqi Jews, Al Saqi Books, 1986 .

(21) See Swirski, op dt

(22) G N. Giladi/ Discord in Zion, Scorpion Publishing, London, 1990

(23) Swirski/ op. cit.

الفصل العاشر

مستقبل فلسطين

راقبَ العرب عجلة الحظ وهى تدور على مدار ألف عام لأنهم شعب قديم وصبور، وهم يعرفون أن الظروف ستعيد فلسطين إليهم يومًا ما إلا إذا حدثت كارثة ذات أبعاد لا يقبلها العقل .

ولابد للمجتمع الدولى الذى أثار هذه المشكلة أن يتحد لحلها ، وليس من المتوقع أن تقبل إسرائيل بمحض إرادتها أن تتخلص من الصهيونية ، ولكن لابد أن يكون ذلك هو أول حل تتاح له فرصة البقاء وبدون مثل هذا الحل ستخيم الفوضى والليل البهيم .

وإذا عرض هذا الاقتراح مع بعض التأكيد على أهميته ، فذلك لأن تخلُّص إسرائيل من الصهيونية له أهمية قصوى كشرط مسبق لتحقيق حل دائم ، ولم يكن إنشاء دولة إسرائيلية قاصرة على اليهود وحدهم هو ما قصد إليه هؤلاء الذين ساندوا فكرة إقامة وطن قومي لليهود فى فلسطين لأن تلك الفكرة ليست معقولة أو عادلة فى ضوء التاريخ ، ولكنها لا تتضمن مقدار الظلم الشامل الذى تتضمنه فكرة طرد الفلسطينيين من أرض أجدادهم .

ومن غير المقبول فى عالم اليوم أن تؤدى رغبة إحدى الدول فى البقاء أن تصادر هوية مذهب دينى خاص وتمنح لأتباع هذا المذهب حقوقًا مطلقة للإقامة والمواطنة على حساب المواطنين الأصليين ، ولا يوجد فى العالم كله سابقة تؤيد هذا البناء ، ولا يستطيع اليهود كجماعة أن يكونوا مختلفين تمامًا عن كافة الجماعات والمذاهب الأخرى حتى أنهم يستحقون مثل هذا التصريح الخاص الذى يقوم على إنتقاص حقوق الآخرين .

أما الاعتراض المقدم فيتضمن أن الدول الإسلامية على سبيل المثال تعيش فى خلافات مذهبية حادة ، بمعنى أنها توصف بأنها إسلامية أو أنها تتبع تعاليم الإسلام فى شئونها الاجتماعية و القانونية بينما هى ذات أصل تاريخى واحد ثابت ومستمر ، إن شعوبها أصيلة وتشكل الأغلبية فى تعداد السكان على مدى قرون طويلة مضت وتعيش تحت سيادة مختلف أشكال الحكم الإسلامى ، أما حقيقة الأصل الأوربى وطبيعة السياسات والناس فى دولة إسرائيل فإنها تجعل الوضع فى هذه الدولة مختلفاً تماماً .

إن السياسيين الغربيين الذين شاركوا فى كل تسوية كانت تبدو فى صالح حل النتائج المفجعة لتدخلاتهم السابقة سيدعون إلى التروى ، والتراضى ، وقبول الحقائق السياسية ، ويتخذ ذلك فى البداية شكل المطالبة باحترام حق إسرائيل فى البقاء كدولة ذات سيادة رضخت يوماً ما للصهيونية فإنها لن تستجيب للأسئلة الخاصة بالتخلى عن الصهيونية ولكن هذا الشرط ضرورى بالرغم من أنه قد يعتبر دعوة للتطرف ، والابتعاد عن الحقيقة ، ولا يمكن الدفاع عنه ، ولكن لابد من الإصرار عليه إذا أردنا أن يحل السلام فى هذه المنطقة التى عانت كثيراً من تدخل هؤلاء الذين تجاهلوا حقائق التاريخ وإذا لم تتحول إسرائيل إلى دولة علمانية ستظل دائماً بؤرة للتطرف ، والنعرة الإقليمية التى ترتكز على الأسطورة ، والتحريض على التعصب تجاه أغلبية الناس الذين يحيطون بها ، وستكون بؤرة أيضاً لإثارة الاضطرابات بمعرفة أى متحدث مهيج للجماهير سواء كان ذلك فى إسرائيل أو فى الشرق الأوسط أو فى أى كتلة سياسية تظهر فيما بعد .

وسوف يقال إن محاولة فرض مثل هذه الحالة من البداية ستفسد أى فرصة لوضع إطار فكرى قادر على تحقيق التسوية فى إسرائيل ، وسيقال فى المحل الأول إن هناك حلاً يتمثل فى إقامة دولتين - دولة فلسطينية تمتد جنباً إلى جنب الدولة اليهودية ، وفى المستقبل يمكن التفكير فى تحويل إسرائيل إلى دولة علمانية ، وستناقش الاقتراحات الخاصة بهذه العملية القول بأن الإصرار على تحويل إسرائيل إلى دولة علمانية سيدمر آمال المستقبل لإقامة أى نوع من الهوية الفلسطينية حتى إذا توقعنا لها الافتقار إلى المثالية .

وهناك مخاطر كثيرة تكتنف مثل هذا الوضع ، ففى المحل الأول نقول إنه من الخطأ المساواة بين الاصطلاحين "يهودى" و"فلسطينى" مثلما يفعل الكثير من المعلقين بمن فيهم هؤلاء الذين كتبوا مشروع تقسيم فلسطين ، عند الحديث عن الدولتين اللتين نأمل ظهورهما بناء على التسوية . ولذلك فإن المشروع سيتجاهل المغامرة الأساسية الماثلة فى تثبيت الوضع الخاص بإقامة الدولتين اللتين لن تكونا متكاملتين بأى حال من الأحوال ، واللتين ستصبحان مختلفتى الاتجاه دائمًا حيث تمثل إحداهما العرب بينما الأخرى اليهود من حيث الطباع المميزة لكل منهما ، وقد تمت مناقشة كيف أن هذين الاصطلاحين لا يمكن المقارنة بينهما وأن القرارات السياسية التى تترتب على قبولهما بوصفهما دولتين متساويتين فى الوزن ستنهار مباشرة .

وبعد ذلك فإن إنشاء دولة فلسطينية ضعيفة اقتصاديًا وعاجزة عسكريًا سيمثل إغراء دائمًا للدولة الإسرائيلية التى ستظل متماسكة بمعداتها العسكرية وستكون قادرة على الإصرار على تلقى مساندة الولايات المتحدة وغير ذلك من المساعدات الدولية ولو حتى بقدر محدود ، وحسب طبيعة الأشياء فإن وضعها سيكون هو الأقوى بالنسبة لجارتها الفلسطينية ، ومثل هذا الوضع سيرسى أساس الخصومات التى تولدت فى الشرق الأوسط خلال العقود الأربعة الماضية مثيرة للحرمان والتجريد من الممتلكات اللذين فُرضا على العرب ومواقف الهيمنة التى كثيرًا ما أوجدتها المؤسسة الحاكمة الإسرائيلية .

ومع ملاحظة ذلك لابد من القول بأن التسويق الجائر للسلاح المتزايد التعقيد وأنظمة التسليح لمعظم الدول يعتبر من بين أخطر المؤثرات فى سياسات المنطقة على مدى الأربعين عامًا التى مضت وعلى وجه الخصوص خلال العشرين عامًا الأخيرة ، وفى هذا الصدد فإن الأمريكيين ، والروس ، والإنجليز، والفرنسيين ، والألمان وربما ثلث دول العالم التى لم تتردد فى تسلق عربة الفرقة الموسيقية قد جنت كلها الأرباح الكثيرة بسبب عدم الاستقرار الذى فرضه وجود إسرائيل فى المنطقة ، ولذلك لابد أن تتضمن أية تسوية يراد لها البقاء اتفاقًا نهائيًا لنزع السلاح على مراحل مع وضع ترتيبات متفق عليها للتفتيش والتحكم ، وإذا استطاعت أوربا أن تقبل ضرورة نزع السلاح بعد

نصف قرن من الصراع الكثيف المتبادل بين القوى العالمية فحينذاك يصبح فى الإمكان تحقيق نتائج متشابهة فى الشرق الأوسط .

وعلى كل حال ، فإن التجربة الحاسمة ستحدث عندما لا تشعر فلسطين بأنها قد وضعت في موقف الضعيف منذ البداية بإجبارها على نبذ القوة العسكرية كشرط مسبق ، ولابد لها أن تبدأ على أساس التكافؤ مع إسرائيل حتى إذا قبل كلاهما احتمال التنازل عن قدرته على شن الحرب .

وإذا كانت الصفحات السابقة من هذه الدراسة تعنى شيئًا للجميع فلابد أن يكون واضحًا أنه إذا ساد مفهوم العدالة فى الإدارة والعلاقات المتبادلة بين المجتمعات الإنسانية فإن العدالة ستتطلب أن يسترجع الفلسطينيون أرضهم ويسمح لهم بإنشاء دولة تستطيع أن تحتل مكانتها فى المجتمع الدولى ، وفى أعقاب أزمة الخليج التى أثبتت أن المنطقة لن تواجه كوارث قادمة فستزداد مطالبة الدول العربية على المدى الذى لا يمكن مقاومته بتصحيح الظلم الذى ارتكب فى حق الفلسطينيين .

وإذا أعيقت أو حددت مثل هذه النتيجة عن الحد الذى اقترحته بعض الشخصيات الرئيسية خلال التوصل إلى الحل الذى يحقق الهدف الفلسطينى لإقامة كيان مستقل ودائم ؛ فإن الحل الدائم لن يتم التوصل إليه ، وسيصبح الوضع أكثر حساسية ولذلك فمن الأفضل مواجهة الحقائق الآن بدلاً من انتظار أن تؤدى الحلول الجزئية (التى لا تعتبر تسوية مطلقة) إلى السلام وتحقيق ما يصبو إليه الفلسطينيون الأصليون وكذلك المستوطنون الأوربيون وغيرهم من السكان الذين يتطلب الأمر التوفيق بينهم .

من الضرورى توجيه هذه البراعة السياسية التى يتميز بها العالم الآن لإيجاد وسيلة تقتنع بها إسرائيل للتخلى عن الصهيونية ويقتنع بها العرب لقبول استمرار كيان يهودى غريب فى وسطهم ، وسيكون هذا الاقتراح الأخير أسهل من الاقتراح السابق لأن العرب لم يعتبروا اليهود أعداء ، على الأقل قبل إنشاء دولة إسرائيل .

ولا شك أن تطلعات المستقبل للسلام فى الشرق الأوسط لا تعتمد على تدخل القوى العظمى أو الهيئات الدولية بل على تطوير التفاهم بين هذين الفريقين اللذين يبدو الآن أنهما على خلاف مع بعضهما البعض ، ولكن هناك بعض الأمل من جهة اليهود

الشرقيين الذين لا يختلفون كثيراً عن الفلسطينيين لأن كليهما تعرض للضغط والازدراء من سادتهم الأتراك على أيام العثمانيين الذين ألزموهما بتولى مهام الأعمال الحقيرة ، ولا يوجد لدى اليهود الشرقيين - مثلهم فى ذلك مثل الفلسطينيين - سبب يجعلهم يحبون الأشكيناز وهم الأفراد الذين لم يجدوا منهم إلا الازدراء وكثيراً ما عرضوهم للاستغلال ، لقد أجبر السلوك الاشكينازى الإسرائيلى اليهود الشرقيين على البقاء فى الدرجة الأدنى وهم الآن يمثلون الطبقة الكادحة فى الدولة اليهودية .

ولكن كلا الشعبين ضحايا للصهيونية وإن كان اليهود أقل من الفلسطينيين فى هذا الصدد ، لقد انتزع اليهود الشرقيون من منازلهم فى شمال أفريقيا والعراق نتيجة للسياسة المقصودة عمداً من جهة إسرائيل ، ونادراً ما حدث ذلك بإرادتهم . ولا شك أنه بدون تحريض النشطاء الصهاينة فإن العديد من الجماعات اليهودية فى شمال أفريقيا لم تكن راضية عن الرحيل ، وقد أتاح استهتار العرب بالشئون السياسية للصهاينة فرصة اتخاذ المبادرة وقد أدى الرد على الاضطهاد الصهيونى للعرب فى فلسطين وما ترتب عليه من اضطهاد وجماعات اليهود فى البلاد العربية إلى ظهور حاجة هذه الجماعات للحماية فى الدولة الصهيونية .

وإذا تم التوصل إلى حل للمشكلة الفلسطينية الإسرائيلية فلابد أن يكون هذا الحل فى المحل الأول مقبولاً لدى سكان البلاد الذين جردوا من ملكية أراضيهم ألا وهم الفلسطينيون ، وإذا لم يتحقق هذا الوضع فلن تكون هناك فرصة لاستمرار أى حل ، وهذا الاقتراح لم يأت نتيجة للاهتمام العاطفى بحرمان الفلسطينيين من مواريثهم ولكن بسبب الاعتقاد بأنه عن طريق إعلان تظلماتهم وتخفيفها يمكن إبعاد التهديد باستخدام الجهد العسكرى لإبادة إسرائيل على المدى الطويل ، وهذا هو السبب فيما قيل منذ وقت طويل عن أن الشعب الفلسطينى يستطيع أن يمنح حق المواطنة لكل من يعيش على أرض فلسطين .

وإذا تحققت العدالة بالنسبة لأى جزء من أجزاء القضية الفلسطينية فإن المناقشات التى ساندت قيام دولة يهودية مستقرة وعلمانية وذات سيادة على أى جزء من أرض فلسطين ستسقط تلقائيًا . إن المناقشات التى تستند إما على السياسة

أو الأخلاقيات لاستمرار الدولة اليهودية فى أى شكل رسمى أو سيادى تصبح أيضًا بلا حجة تدعمها.

والحقيقة هى أن الحواجز الأساسية التى حالت دون التوصل إلى حل فى الماضى تتركز فى هذه الحقيقة التى تقول بأن تحقيق جزء من العدالة للقضية الفلسطينية سيدفع كافة أجزاء الادعاء الصهيونى الذى يطالب بإقامة دولة يهودية فى فلسطين الانهيار، وهذا الإشكال مفهوم لدى الجناح اليمينى صاحب الصوت العالى فى إسرائيل نفسها والذى يعلن الآن حق التملك بوصفه الضمان الأساسى لبقاء الصهيونية فى فلسطين ، ويتواكب هذا الادعاء اليمينى مع المستوطنين الذين يعلنون الحق المعطى لهم من الله لإحتلال أرض فلسطين .

ولن تأتىَ التسويةُ بسهولة كما يبدو الأمر بالنسبة لهؤلاء الذين يشتركون فى الشئون الفلسطينية ، لقد قال زابوتنسكى منذ أكثر من نصف قرن مضى : " لسنا وكلاء أحرارًا : ولا نستطيع الإذعان لأى شىء " ويمكن أن تنطبق نفس العبارة بدون شك على مواقف الفلسطينيين اليوم ، وتعتبر مشكلتهم إذا عبرنا عنها بهذه العبارة فى حاجة إلى عبارة أخرى من أقوال زابوتنسكى ، وهى : " أن مطالبتنا بتحقيق الأغلبية اليهودية لا تمثل الحد الأقصى – إنها تمثل الحد الأدنى" ؛ إنهما عبارتان صريحتان وقاطعتان تعبران عن الأفكار التى يعتمد عليها فى التعامل مع العرب الفلسطينيين وتوضحان سياسة الحكومة الإسرائيلية فى مرحلة السياسات التى نتجت عن انتخابات الليكود فى سنة ١٩٧٩ والتى تأكدت على يد حكومتى مناحم بيجين وإسحاق شامير .

ولابد لأى حل فى المستقبل يلى الوضع غير المتفق عليه الذى شرحناه فى هذه الصفحات أن يأخذ فى الحسبان الأراضى المحتلة فى الضفة الغربية لنهر الأردن ، والمملكة الأردنية الهاشمية ذاتها، والفلسطينيين الذين يعيشون مشردين فى العالم العربى وخارجه ، وأيضًا الذين يعيشون فى مخيمات اللاجئين ، مع الأخذ فى الحسبان أيضًا مصالح سوريا وكذلك إعادة نوع من الاستقرار إلى لبنان وإن كان ذلك يبرهن على الحاجة إلى إعادة تخطيط حدود الدولة الأخيرة بشكل مكثف ، وكافة هذه الأطراف يحق لها شغل مكانها فى المفاوضات بصرف النظر عن كيفية إدارة ذلك أو الإشراف عليه .

ولابد أن تبدأ هذه العملية مع خطة لإقامة حكومة دولة تحل محل إسرائيل بنفس الشكل الذى تطورت عنه أثناء التخطيط لاستقرار عدد كبير من اليهود بشكل دائم ، ولابد أن يسمح ذلك بعودة الفلسطينيين المشردين والموقف الصحيح للعرب الذين يعيشون داخل حدود ما يشكل الآن الدولة الإسرائيلية . إن المعادلة البسيطة التى نبدأ منها لابد أن تصور إقامة كيان فيدرالى يتكون من مقاطعات تحتضن فلسطين كما حددتها خطة التقسيم سنة ١٩٤٧ وإسرائيل كما تحددت فى نفس الخطة وتلك الأجزاء من المملكة الأردنية الهاشمية التى لابد من بقائها ، ولابد أن ينال كل قسم فى الاتحاد حقوقًا متساوية ، وأن تعيش كافة المقاطعات فى داخل حدودها الاتحادية ، وبصرف النظر عن انتمائه الدينى فلابد له من موقف متساوٍ ، ويتم تحديد طبيعة الدولة دستوريًا بأنها علمانية ولا تسمى إسلامية أو مسيحية أو يهودية . ومن الجدير بنا أن نستعيد هنا موارد التخطيط لإقامة دولة أقلية التى وضعتها ثلاث دول أمام الأمم المتحدة فى الوقت الذى كانت تناقش فيه خطط تقسيم فلسطين لأول مرة .

لقد اقترحت الدول الثلاثة إنشاء دولة فيدرالية مستقلة فى فلسطين بعد فترة انتقالية لا تتعدى ثلاث سنوات تسند خلالها إدارة فلسطين وإعدادها للاستقلال لسلطة تقررها الجمعية العامة ، ويعاد النظر فى هذه الفترة الزمنية .

وتضم الدولة الفيدرالية المستقلة دولة عربية ودولة إسرائيلية وتكون العاصمة القدس وهذا الاقتراح قد يحتاج إلى بعض التحفظات ، إن كلمة " دولة " لها مضمون محدد فى سياسات اليوم ، وربما كانت كلمة مثل "مقاطعة" أفضل منها لأنها تشرح مفهوم العضوية فى كيان دولة مستقلة أكبر منها مساحة ، ويتم انتخاب جمعية بطريقة التصويت الشعبى تدعوها سلطة الإدارة للاجتماع على الأساس الانتخابى الذى يؤكد التمثيل الكامل للسكان ويكون لها الحق فى الاشتراك فى وضع الدستور للدولة الاتحادية .

وتقوم الجمعية بعمل مسودة الدستور للدولة الاتحادية بحيث يتضمن الشروط التالية :

- تشكل الدولة الاتحادية حكومة اتحادية وحكومتين للدولتين العربية والإسرائيلية على التوالى .

- وتمنح الدولة الاتحادية السلطة الكاملة للحكومة الاتحادية فيما يخص الدفاع الوطنى، والعلاقات الخارجية ، والهجرة ، والعملة ، وفرض الضرائب للأغراض الاتحادية ، والإشراف على المجارى المائية الخارجية والتى فى داخل الدولة ، والنقل ، والمواصلات ، وحقوق الطبع والنشر ، وبراءات الاختراع .

- وتتمتع الدولتان العربية والإسرائيلية بكافة السلطات الخاصة بالحكم الذاتى المحلى كما تكون لكل منهما السيطرة على التعليم ، والضرائب للأغراض الداخلية داخل الدولة والاستيطان ، والشرطة ، والخدمات ، والإسكان العام والصحة العامة ، والطرق المحلية ، والزراعة ، والصناعات المحلية .

- أما عناصر الحكومة فتتضمن رئيسًا للدولة ، وجهازًا تنفيذيًا، وجهازًا يمثل التشريعات الفيدرالية ويتم الانتخاب لعضوية الغرفة التشريعية الفيدرالية على أساس التمثيل النسبى للشعب بكامله ، أما بالنسبة للغرفة الأخرى فإنه يكون على أساس التمثيل المتساوى للمواطنين العرب واليهود من سكان فلسطين ويتم إصدار التشريعات عند الموافقة عليها بأغلبية الأصوات فى كلا الغرفتين ، وفى حالة عدم الاتفاق بين الغرفتين فإن الإصدار يعرض على جهاز تحكيم مكون من خمسة أعضاء يتضمن ما لا يقل عن عضوين من العرب وعضوين من الإسرائيليين .

- وستكون المحكمة الفيدرالية هى محكمة الاستئناف العليا فيما يخص الشئون الدستورية ، أما أعضاؤها الذين من بينهم مالا يقل عن أربعة من العرب وثلاثة من اليهود فسيتم انتخابهم عن طريق أعضاء الغرفتين اللتين يتكون منهما الجهاز التشريعى الفيدرالى .

- ويضمن الدستور حقوقًا متساوية لكافة الأقليات مع الحقوق والحريات الإنسانية الأساسية ، كما يضمن أيضًا حرية المرور إلى الأماكن المقدسة ويحمى المصالح الدينية .

– وينص الدستور على حل المشكلات الدولية بالوسائل السلمية .

– وربما تكون هناك أيضًا جنسية ومواطنة فلسطينية مستقلة .

– وينص الدستور على المشاركة المتساوية لممثلى كلا الدولتين فى الوفود التى تحضر المؤتمرات الدولية ، وينشأ جهاز دولى دائم للإشراف على الأماكن المقدسة وحمايتها ، يتكون من ثلاثة أعضاء تعينهم الأمم المتحدة وتنص الخطة الأصلية المفروض أنها تستغرق ثلاث سنوات منذ بداية الفترة الانتقالية على السماح بالهجرة إلى الدولة اليهودية بأعداد لا تتجاوز قدرتها على الاستيعاب مع الأخذ فى الاعتبار حقوق المعدل القومى للزيادة ، وتعين لجنة دولية مكونه من ثلاثة أعضاء من العرب وثلاثة من اليهود وثلاثة من الأمم المتحدة لتقدير القدرة الاستيعابية للدولة اليهودية ، وينتهى وجود هذه اللجنة مع نهاية فترة السنوات الثلاثة المذكورة عاليه ، ويكون واضحًا أن هذا الافتراض لا يطبق مرة أخرى وتحدد خطة الأقلية الحدود المقترحة لأراضى العرب واليهود ضمن الدولة الاتحادية .

لقد تحرك العالم منذ سنة ١٩٤٧ عند اقتراح هذه الخطة ولكن مبدئيًا فإن الحل الفيدرالى مازال هو القادر على النجاح فى توفير بيئة سياسية دائمة وآمنة لكافة الأفراد المعنيين ، وتتطلب خطة سنة ١٩٤٧ تعديلاً مفصلاً بالنظر إلى الوضع المتغير والمتدهور الذى نشأ عن مرور أربعين سنة من الصراع ، ولابد أن أهم المواد الواردة بها تحتاج إلى معرفة موقف الفلسطينيين العرب مسلمين ومسيحيين وحقهم فى تحديد مواصفات المواطنة بالنسبة لهؤلاء الذين يعيشون فى أراضيهم .

أما كافة الفلسطينيين الذين صودرت أراضيهم وتركوا البلاد منذ سنة ١٩٤٧ " أو أحفادهم" الذين يقدمون الدليل على أنهم ينحدرون من أصول فلسطينية ، فتخول لهم حقوق العودة والمواطنة الكاملة . وهنا تظهر الحاجة إلى تطبيق فكرة التعويضات التى تدفع لهؤلاء الذين وقع الحجز على أراضيهم أو ممتلكاتهم أو نزعت ملكيتها بمعرفة الإسرائيليين أو دمرت منازلهم بمعرفة السلطات ضمن العقوبات الجماعية أو ما شابه ذلك ، مثلما استحق هؤلاء الذين تم الاستيلاء على ممتلكاتهم بوسائل غير

شرعية أو بالإكراه ، وتنشأ محكمة يتفق على إدارتها طبقًا لإجراءات دولية لوضع هذه الشروط موضع التنفيذ .

ويجرى تفكيك المستوطنات اليهودية التى أقيمت فى الضفة الغربية وقطاع غزة ويعود المستوطنون إلى القسم من الاتحاد الذى كانت أغلبية سكانه من اليهود حسب الانتساب الدينى ، أما المستوطنون الذين يريدون العودة إلى بلادهم الأصلية فتقدم لهم المساعدة لتحقيق هذه الرغبة ، ويفضل إنشاء سوق مشتركة بين مقاطعات الدولة الفلسطينية مع البلاد المجاورة التى تريد المشاركة فيها ، وتظل الدولة الجديدة تنقصها المقومات الاقتصادية للاتحاد فترة طويلة وستحتاج إلى إعانات خارجية من الولايات المتحدة ، والدول المنتجة للبترول ، والسوق الأوربية المشتركة ، وهذه الإعانات ستكون أقل وطأة عن تلك التى كانت تتحملها الولايات المتحدة على مدى السنوات الأربعين الماضية والتى كانت تقدمها الدول العربية للجماعات المنشقة ، والتى ادعت فى وقت أو آخر أنها تمثل فلسطين .

وسيساعد قبول الدستور الفيدرالى على حل مشكلة جزء خاص من المشكلة وأعنى به الموقف العسكرى للدولة الجديدة ، ولقد عارضت إسرائيل بإصرار إنشاء الدولة الفلسطينية على هذه الأرض وساندتها فى ذلك دول أخرى بدعوى أنها ستمثل تهديداً دائمًا لإسرائيل وأن قيام كيان مستقل مع ممارسة حقه الحتمى فى الاحتفاظ بقوات مسلحة لن يكون مقبولاً . وعلى كل حال ، فقد قيل إن مثل هذا التحديد قد يؤدى إلى التطرف إذا كان الهدف هو قيام كيان مستقل أو متمتع بالحكم الذاتى ، ومن جهة أخرى فإنه إذا تمت الموافقة على إقامة كيان فيدرالى فإن إنشاء قوة مسلحة فيدرالية تحت إدارة جميع التجمعات وتختص فقط بالدفاع عن الاتحاد تصبح مبدأ من السهل إجراؤه وقبوله .

وهناك استدلال ضرورى مرتبط بنتيجة تخلى إسرائيل عن الصهيونية ، وهو تقليل إمكانيات استخدام إسرائيل للأسلحة النووية ، وعلى المدى المتوسط أو الطويل لن يكون هناك تهديد لاستقرار الشرق الأوسط إلا عدم التوازن فى القدرات العسكرية الموجود بين إسرائيل والدول العربية ، ومهما كانت النتيجة المتوقعة (أو المأمولة) فمن

الضروري أن يطلب من إسرائيل أن تتخلى عن إمكانياتها النووية كجزء من إجراء عمومي لنزع السلاح ، أو أن يتاح للعرب الحصول على الأسلحة النووية لتحييد ما لدى إسرائيل منه ، لقد أصرت إسرائيل دائمًا على وضع حد السيف على رقبة العرب فى هذا الصدد وأقنعت الحكومات الأمريكية المتتالية بمساندتها للبقاء فى هذا الوضع .

وإذ لم تتخلَ إسرائيل عن الاحتفاظ بالتسلح النووى فلن يكون السلام ممكنًا ، ولما كان موقف إسرائيل يزداد تفاقمًا سياسيًا واقتصاديًا فسيصبح إغراء القيام بمعارضة فى المنطقة عظيمًا بحيث لا تستطيع أن تقاومه ، ولا ننسى أن إسرائيل التى تواجه الإفلاس وفقدان المساندة العالمية على المستوى المتوقع حاليًا ستصبح أشد خطرًا بالنسبة لبقية اللاعبين منها لو كانت أدوات اللعبة بعيدة عن متناول يديها وذلك بهدف تحقيق الأمان .

وإذا أردنا أن يسود المنطقة السلام الذى لم ينتشر على مدى العقود التى شهدت وجود إسرائيل فلن تقتصر التضحيات الجسيمة المطلوبة من إسرائيل على المجال المادى فقط . إن تأثير الديانة الخالصة على المنطقة شديد الأهمية إذا نظرنا إليها من زاوية الإنسان المؤمن بإحدى الديانات الثلاث التى تعود أصولها إلى ذلك الشريط الضيق من سطح الأرض وسيتضح هذا الأثر بشكل أوضح إذا كان هناك من يشك فى ذلك بعد قراءة هذه الدراسة ، إن الديانات الثلاث لها مراكز منتشرة حول المدن فى شرق البحر الأبيض المتوسط حتى تصل إلى غرب شبه الجزيرة العربية ، أما نظام المدينة فسيمثل إحداث تطوير فى النظم التى طبقتها الأجناس البشرية لكى تعيش فيها وهى لها أهمية شديدة بالنسبة لليهودية ، والمسيحية ، والإسلام ومن هذه المدن مدينة نشبت حولها المشكلة الأعظم صعوبة فى المنطقة التى نتحدث عنها والتى على وشك أن يتم التوصل إلى القرار بشأن وضعها ونعنى بها مدينة القدس .

لقد كانت القدس تمثل دائمًا بالنسبة للإسرائيليين الجائزة الكبرى ، أما بالنسبة للعرب فإن ضياعها بعد حرب ١٩٦٧ يمثل الكارثة الكبرى ، وتعتبر القدس هى الدليل العام (بخلاف الهدف العقائدى) للديانات التوحيدية الثلاث ، إنها بؤرة أشد المساومات تعقيدًا بين الديانات الثلاث حيث تعتبر المدينة شديدة الأهمية على الأقل

خلال هذه المرحلة التاريخية ، لأنها هى الأرض مسدودة المسالك لأى من هذه الديانات الثلاث ولابد من تحديد مستقبلها بمعرفة كافة الذين تعتبر ذات أهمية بالنسبة لهم وهم اليهود ، والمسيحيون ، والمسلمون .

ومن المؤكد أن مثل هذه العقدة المتشابكة من الممكن حلها بإعلان القدس مدينة دولية وإخضاع حكومتها لشكل من أشكال الوصاية الدولية . ويعتبر مستقبل فلسطين هو العنصر الأقوى فى الموقف الإسرائيلى إذا تم الوصول إلى هذه المرحلة ، بالرغم من أنها فى حقيقتها ضئيلة الأهمية من الناحية الاستراتيجية أو السياسية ، وقد جرت رؤية وضع القدس بهذه الصورة دائمًا من خلال التسويات التى قدمت بمعرفة شخصيات أخرى غير الشخصيات الرئيسية العنيدة فى كل من الجانبين ، وعلى كل حال ، يجب ألا ننسى أن الكونت برنادوت الوسيط الدولى للأمم المتحدة قد اغتيل على يد عصابة شتيرن التى يقودها إسحاق شامير لأنه طالب بتدويل القدس .

وستظهر القدس فى مشروع المقاطعات المقترح لفلسطين وللوهلة الأولى بوصفها العاصمة القومية للاتحاد ، وسيتطلب وضعها الدولى أن تقوم بمهام سلسلة من الوظائف والعلاقات الإضافية أما الوظيفة الأولى التى ستقوم بمهامها القدس بعد إبعادها عن السياسة فهى توفير موضع لوجود الأمم المتحدة فى المنطقة بشكل دائم وعلى الأديان فى كل المنطقة أن تقدم مفهوم السلام على قمة برامجها المقدسة بالرغم من أن الأمم المتحدة فقدت أصالتها ، وقد أصبح دورها فى كشف مأساة فلسطين دورًا تنقصه الكياسة إلا أن وضع القدس لابد وأن يتيح لها الفرصة لتحقيق بعض مثاليتها وإبعاد الأذى الذى فعلته سواء عمداً أو بدون عمد منذ وقت طويل مضى .

سيوفر الوجود السياسى والإدارى للأمم المتحدة فى القدس ليس فقط ضمانًا لمراقبة أى اتفاق تجرى مناقشته ولكنه سيتيح أيضًا للأمم المتحدة تحرير نفسها من الارتباط بالولايات المتحدة تنظيميًا كما هو الحال الآن ، وسيكون ذلك فى صالح كافة الأمم التى تعيش فى هذا العالم المتغير دائمًا .

وربما كان هذا الوضع الغريب لمدينة القدس هو السبب فى توجيه الكثير من الاهتمام العاطفى نحوها من أتباع الديانات التوحيدية الثلاث وكان من الأفضل قبول

ذلك الوضع لو لم يكن قد تقرر اعتبارها عاصمة للدولة الجديدة ولكن طابعها الدولى المتداخل فى ، إسمها لابد من تقريره بمنحها وضعًا مميزًا ، وإذا تقرر أن تكون هى العاصمة السياسية لدولة ستواجه العديد من الظروف المختلفة على الأقل من خلال الأيام الأولى لنشأتها ومنها النزاع والصراع السياسى فلابد من التقليل من خصائصها العديدة ، أما عن وضعها كمدينة مفتوحة فمن الممكن أن تلعب دوراً أكثر فائدة للجنس البشرى إذا أصبحت مقراً لجزء من الأمم المتحدة ووكالاتها وإذا أصبحت أيضًا مركزًا دوليًا للحج وذلك أكثر من الفائدة التى كانت ستحصل لو استمرت فى القيام بدورها الذى يحقق غرضًا سياسيًا أو محليًا ضيقًا .

وبالطبع فإن الدولة الجديدة ستحتاج إلى عاصمة يتفق عليها جميع الذين لهم حق وضع الدستور ، وربما يكون من الصعب ترشيح المكان المناسب إذا استبعد اليهود ولكن الأمر فى الإمكان وعلى ذلك فإننا لو نظرنا نظرة خارجية بحثًا عن مكان مناسب فإن « أشقلون » على الساحل ستؤدى الغرض لأنها تتميز بأنها مناسبة للعزف على الوتر فى العقول الأوربية وأيضًا العقول الوطنية فى أى جزء من أجزاء الدولة الجديدة . وهناك بديل آخر إذا أردنا تفادى أية صلة بالماضى الوسيط فإن موقع « مدينة جرش » المشهورة كمستوطنة رومانية لابد وأن يفى بالغرض بالرغم من أن علاقاتها الرومانية لن تعزف على الوتر السعيد فى ذاكرة العقول اليهودية ، أما الاختيار الثالث فقد يكون مدينة أريحا ذات الأهمية الرمزية لكل من العرب واليهود بصفتها إحدى المدن القديمة المعروفة فى المجال الأثرى وهى تحتل موقعًا مناسبًا لبداية جديدة .

ولابد من تحديد قضيتين أخريين لهما الأهمية بالنسبة لشعوب شرق البحر الأبيض المتوسط وللاستقرار السلمى لهذه المنطقة ولابد من وضعهما فى نفس المفهوم والمدى الزمنى للمواجهة الإسرائيلية الفلسطينية وهما إحتلال إسرائيل لأراضى هضبة الجولان ووقوع لبنان المأساوى فى الفوضى ، وقد أدى الغزو الإسرائيلى لأراضيها سنة ١٩٨٢ إلى تزايد صعوبة الوصول إلى حل ، ولابد أيضًا من الوصول إلى حل بالنسبة لمشكلة الوجود الدائم للقوات الإسرائيلية والسورية فى ذلك القطر .

ومن المحتمل أن يكون هناك حل لإعادة لبنان إلى وضعها السابق على سنة ١٩٧٦ بصرف النظر عن أنه كان وضعًا ممزقًا ومن ثم يمكن بعد ذلك تحقيق الوضع الأفضل

الذى يهم المسيحيين كما يهم المثقفين السُّنيين المسلمين ، أما بالنسبة للمجتمع الشيعى فى الجنوب الذى يعانى أفراده من حياة الفقر والأوضاع السيئة فيبدو أن كل شىء سيتغير الآن وإلى الأبد ولابد ، أن توضع هذه الحقيقة فى الاعتبار عند مناقشة أى تسوية فى المستقبل .

وفى الاحتمال اقتراح شكل من أشكال البناء الفيدرالى بالنسبة للقطر اللبنانى بالرغم من معارضة معظم الأطراف بشدة لهذه الفكرة فى الوقت الحالى ، والثابت تاريخيًا هو أن الجماعات المختلفة التى شكلت الكيان المعروف باسم لبنان سنة ١٩٤٣ قد احتلت دائمًا مناطق معينة فى البلد ، فالمسيحيون أقاموا فوق الجبال والشيعة فى الجنوب والسنيون فى منطقة الساحل الشمالى . كذلك لابد من الاعتراف بأن سوريا تهتم بوضعها التاريخى ، ولن تتحقق أى تسوية فى هذه المنطقة من شرق البحر الأبيض المتوسط دون مشاركة سوريا ، ورغم كل ذلك فإن وضع سوريا أكثر أمنًا بالنسبة لغالبية بلدان شرق البحر الأبيض المتوسط بوصفها وريثًا للعثمانيين فى المنطقة (لا ننسى أن دمشق كانت مقرًا للحاكم) أكثر من العراق التى لم يكن لها وجود عندما كانت البصرة مقرًا لإدارة إحدى الوحدات الإدارية الضعيفة التى تطالب بالسيطرة على الخليج دون أن تستمر فى ذلك .

وبقدر اهتمام سوريا فمن الواضح أن إسرائيل لابد وأن تنسحب من مرتفعات الجولان بدون شروط ، ويقال إن المستوطنات اليهودية التى تقع على مرأى من الجولان ستظل مهددة للأبد بالقوات السورية العسكرية ، لكن الرد على ذلك هو طالما أن هذه المستوطنات ليس لها حق فى الاستمرار فى مكانها فإن سلامتها أو افتقارها إلى السلامة ليس إلا قضية أكاديمية . وعلى كل حال ، فإن المجتمع الدولى يرفض قيام هذه المستوطنات خارج السيطرة ولذلك فلابد من التخلى عنها . ومرة أخرى فإن الوجود السياسى والعسكرى القوى للأمم المتحدة فى المنطقة مع وجود مكانتها الرئاسية فى القدس سيتكفل بتأمين مراعاة جميع الأطراف للبقاء السلمى فى المنطقة ، وستبدو المملكة الأردنية كما هو واضح الآن فى صورة أكثر البلدان معاناة من التطورات الأخيرة فى المنطقة ، فقد قدر للأردن مثلها مثل الفلسطينيين أن تدفع ثمن مساندتها للعراق أثناء غزو الكويت كما دفعه العدد الأكبر من الفلسطينيين الذين فى

الأردن والذين تبعوا مناصرة قيادتهم للموقف العراقى ؛ ولكن رد الفعل الأردنى كان مفهومًا على الأقل فى حدود الاصطلاحات السياسية ، فقد كان مفروضًا على هذا القطر وهو أقل البلاد حظًا فى المنطقة أن يستوعب حوالى ٣٠٠ ألف لاجئ منذ نهاية الأزمة الكويتية ، ونتيجة لذلك تغيرت صورتها السياسية تغييراً جوهريًا .

وبالرغم من قدرة الأردن على استعادة بعض ثقتها السابقة فى حسن النوايا إلا أن معظم أمنها فى المستقبل يتحقق أكثر عندما تكون شريكا فى الدولة الفلسطينية الفيدرالية حيث تستطيع الأردن أن تضيف إلى مقومات الحياة فى هذه الدولة الكثير خاصة فيما يتعلق بالسلاح ، ولكن قد يدور الحوار بشدة ولفترة محدودة حول أى تطوير يبدو ضروريًا للمصلحة القومية .

لقد أثر الغزو العراقى للكويت تأثيراً شديداً فى تركيز تفكير المجتمع الدولى حول هذه القضايا ، لقد حاول صدام حسين أن يضع حل مشكلة العرب مع إسرائيل مقابل تحقيق مطالبه فى الكويت ، وبالطبع فإن كلاً من القضيتين واضح ولا يتشابه مع الآخر فى الظروف ، وعلى كل حال ، فإن صدام على حق فى إشارته إلى عدل المجتمع الدولى الذى اتحد للدفاع عن أحد أصدقائه المقربين بينما وقف متفرجًا إزاء أفعال إسرائيل بالرغم من إدانة الأمم المتحدة لها مرات متكررة كلما دار السؤال حول نهب إسرائيل الجائر للأراضى الفلسطينية .

وبالرغم من ضرورة عدم تداخل القضيتين إحداهما فى الأخرى مثل تداخل الألوان على لوحة خلط الألوان التى يحملها رسام تنقصه المهارة ، إلا أن المجتمع الدولى سيحاول مواجهتهما جيداً فى نفس المدى الزمنى ، وإذا لم يطلب من إسرائيل إتخاذ موقف جديد وسياسة جديدة فى العالم فلن يكون هناك أمل لإقرار السلام فى الشرق الأوسط ولا فى العالم على المدى الواسع .

وليس من المتوقع علاج هاتين القضيتين فى نفس الفترة الزمنية لأن ذلك سيتطلب مواجهة تراث آخر من الفترة الاستعمارية المتأخرة لأن حدود الدول التى أنشئت فى الثلاثينيات من القرن العشرين وهى لبنان ، وسوريا ، والأردن ، والعراق ، ستحتاج جميعها إلى إعادة التخطيط وسيكون من الصعب مقاومة المناقشة التى تعرض قضية

الأكراد الذين قَسَّموا بشكل محزن بين تركيا ، والعراق ، وإيران ، وروسيا وليس لهم الحق فى اكتساب هوية قومية خاصة بهم . ومع تمزيق الاتحاد السوفيتى الذى حل محله نهائيًا من يعرف الخيار - فمن غير المعقول أن يرفض الأكراد الحصول على الحكم الذاتى أو على الأقل إقامة دولة مكونة من عدة مقاطعات بالنسبة للأقليات الموجودة فى إيران ، وأفغانستان ، والعراق ذاتها ، وتوجد معان كثيرة لهذه العملية ، فإذا تم الاتفاق على السماح للأمم الصغيرة بالحصول على هويتها الخاصة بها فى إثر تمزيق الإمبراطورية السوفيتية فلابد من تطبيق ذلك أيضًا على الأمم الأوربية التى كانت تطالب بالانفصال عن الدول التى تتحد معها الآن بالرغم عنها ، وهذا التوقع لا يلقى الآن ترحيب معظم السياسيين .

وإذا لم تمنح هذه الشعوب التى من أوضح الأمثلة عليها الآن الفلسطينيون - الفرصة للسيطرة على مقدراتها فلن يكون هناك أمل للاستقرار السياسى فى أى جزء من أجزاء العالم التى بها أقليات تشعر بأنها مظلومة ، ويتباعد العالم الآن عن التكتلات السياسية الضخمة بالرغم من البرهان الساطع على ما يحدث الآن فى أوربا ، وينتشر فى كافة الأرجاء الإحساس بالحاجة للحرية الشخصية وحرية التعبير التى لا توجد فى بعض الكيانات الإدارية ذات السياسة المركزية .

إن معرفة إسرائيل وقبولها التسليم بأن الدولة اليهودية ليس لها مستقبل فى الشرق الأوسط أمر ضرورى رغم صعوبة قبوله وضرورته لسلام الشرق الأوسط فى المستقبل ، ولا يعنى ذلك القول بأن عدد السكان اليهود الضخم فى فلسطين ليس له مستقبل . وحقًا فإنه على العكس من ذلك فإن هذه القضية قد أثبتت أن القرارات الشجاعة المطلوبة من الجيل الإسرائيلى الحالى يجب أن يمتزج بها الكرم والرحمة على نطاق واسع لم يحدث من قبل على يد المسلمين والمسيحيين العرب ، الذين يجب أن يتقاسموا مع الإسرائيليين الآمال المتعلقة بالسلام الحقيقى ، والعيش فى سلام والسماح للأجيال القادمة بالتجمع فى ظلال نوع من رابطة الأخوة ، وسيعتمد مثل هذا الاستقرار على كرم غير محدود بين هؤلاء الذين يحددون نتيجة المناقشات التى لابد وأن تسبق أية تسوية ، وبالطبع فإن المطلوب من الإسرائيليين هو الأعظم ، ألا وهو التخلى عن النماذج التى يتمسكون بها والإصرار على امتلاك دولة يهودية خاصة بهم ،

ولابد أن يتأكدوا من أنهم بمثل هذا التخلى سيعيدون قيم العدل والشرف للديانة اليهودية ويؤكدون الوجود الآمن لسكان فلسطين اليهود على مدى الأجيال المقبلة ، وبالنسبة للعرب فعليهم أيضًا قبول بعض التضحيات من المسلمين على وجه الخصوص ، إن عليهم قبول العدد الضخم من السكان اليهود الأجانب فى وسطهم على الدوام .

وفى النهاية فإن هذا حل سياسى وليس حلاً قائمًا على أساس القوة ولن يتحقق إلا إذا أرادت شعوب الشرق الأوسط أن تعيش مع بعضها البعض فى سلام ، وعلى كل حال فليس من السهل إقامة مثل هذه الدولة ، إن تيارات السياسة تمضى فى قنوات متنوعة وغير منتظمة ، ونجد فى فلسطين أن الخيوط التى يتكون منها النسيج أكثر تنوعًا من أى شىء آخر بسبب تداخل قوى عديدة فى شئون المنطقة كما هو الحال فى أى مكان آخر على الأرض .

وحتى تلك المؤثرات السياسية التى يمكن رؤيتها بوضوح فإنها تبدو قاصرة على فئة خاصة ذات اهتمامات متناقضة وضارة بمصالحها ؛ ولكن الدليل التاريخى يبين أن الأمر لن يكون هكذا ، بمعنى أن المظاهر يمكن أن تكون خادعة وأن عدم مرونة الموقف الأساسى اليوم يصبح هو صفقة المساومة غداً ، وقد يبرهن تاريخ الدولة الإسرائيلية على أنه النموذج الأسمى لهذا التناقض .

أما اليهود الشرقيون بالرغم من أنهم فى البداية سيكونون بين أشد المعارضين صخبًا ضد أى تعامل مع العرب ، إلا أنه فى الإمكان أن يؤدوا دوراً أكثر عملية ومبشراً بالتفاؤل فى المجتمع الإسرائيلى ، وهم على خلاف شركائهم فى الدين (الأشكيناز) قد عاشوا بين العرب عدة قرون ، ومن السذاجة كما ذكرنا من قبل أن نتظاهر بأن أسلوبهم فى الحياة بوصفهم أقلية بين المسلمين كان نموذجيًا ، ولكنه على الأقل يمكن احتماله إذا قورن بأسلوب حياة الأعداد الضخمة من اليهود الذين يعيشون فى العالم المسيحى .

والحقيقة هى أن اليهود الشرقيين وهم يهود شمال أفريقيا ، واليمن ، والعراق ، وشرق البحر الأبيض نفسه يعتبرون هم اليهود العرب الذين كانت ثقافتهم ولغتهم

وطريقة حياتهم - فيما عدا ممارساتهم الدينية - لا يمكن تمييزها عن العرب الآخرين الذين عاشوا بينهم أجيالاً لا تحصى ؛ ولكن استحسن الصهاينة والقيادة التى يتولاها الأشكيناز فى إسرائيل أن يقدموا اليهود الشرقيين بوصفهم الأعداء الألداء للعرب على مدى عشرات السنين التى مضت ، ولم يكن اليهود الشرقيون هم الذين أرسوا دعائم الأيديولوجية العريضة القائلة بعظمة الجيش اليهودى التى رسخت فى أذهان الإسرائيليين . ومع المناخ الفكرى السائد فى إسرائيل فإن اليهود الشرقيين يشكلون جبهة صارمة مثل شركائهم فى الدين من الأوربيين ولكن نظراً لأصولهم الشرقية فمن المحتمل أن يكونوا أكثر عملية وأكثر مرونة فى تبنى وجهة النظر الخاصة بالبحث عن تسوية تتيح لهم البقاء فى شرق البحر الأبيض المتوسط دون الحاجة إلى المطالبة باستمرار وجود الدولة الصهيونية بوصفها هوية سياسية .

وإذا أخذنا فى الاعتبار تحقيق درجة معقولة من التغيير السياسى فإن اعتراف إسرائيل بنوع من الهوية الفلسطينية وهو على سبيل المثال إعادة الأراضى المحتلة ، فلاشك أن نفس العناصر التى شكلت منها إسرائيل وضعها الخاص بها سيقبلها بعض المعلقين كمعتقدات لا تدنس حرمتها عند التطلع نحو موقع مؤكد يستطيع المعتدلون العرب أن يوافقوا عليه ، وذلك بقبول ما يقال عن حق إسرائيل فى البقاء . وقد أقرت منظمة التحرير الفلسطينية بحق إسرائيل فى البقاء ولكن السؤال المطروح هو : ما نوع الدولة التى يدعو هذا الحق إسرائيل إلى الالتزام بها ؟ **لن تكون هى الدولة المتفوقة والطائفية التى ترفع وضع فريق اجتماعى فوق جميع الآخرين : فهل هذا هو مفهوم حق البقاء ؟** ويوضح المبدأ الذى لا ينتهك أن يكون لإسرائيل الحق فى الوجود بالشكل الذى اعتمدته لنفسها ، وهذه الحالة التى تظهر فيها إسرائيل كدولة يهودية خالصة مسلحة إلى أقصى الحدود هى السبب الكلى لبقاء إسرائيل ؛ ولكن هذا التحديد العنصرى لهذه الدولة التى أقيمت على الأراضى العربية التى يقبلها ولابد أن يقبلها جميع العرب سواء منهم المعتدلون أو المتطرفون ، والمسلمون ، أو المسيحيون فإنها ستجهض كافة محاولات التوصل إلى الاعتدال أو التسوية ، ولن يستطيع أى شىء أن يغير هذا الوضع الذى تبقى فيه إسرائيل بالشكل المقبول الآن بوصفه إحدى الحقائق السياسية الدائمة وهو وضع يمكن الدفاع عنه والاحتفاظ به وليس وضعًا

أخلاقيًا ، أو تاريخيًا ، أو نهائيًا ، أو سياسيًا . أما نوعية الوضع الذى يجب أن يقتنع بقبوله هذا الجيل من القيادات العربية أو الفلسطينية فلن ينظر إليه أحد بوصفه ملزمًا لأحفاد هذا الجيل إذا ساوموا على أحد الحقوق الأساسية للفلسطينيين فى امتلاك أراضيهم وهذا هو السبب الذى يلزم العالم وإسرائيل باعتماد هذه القضية حسب المفاهيم التى يقبلها العرب فى المحل الأول وهى مفاهيم صارمة ومؤلمة ، ولن يستطيع أحد حتى الفلسطينيون أنفسهم أن يتخلوا عن حقوقهم فى أراضيهم سواء فى هذا الجيل أو الأجيال القادمة .

ولا يستطيع اليهود بصفتهم هذه الادعاء بأن لهم الحق فى إنشاء وطن قومى يخص قومًا آخرين وليس هناك مجال للمساومة ، وإذا لم يعرف العالم هذه الحقيقة ويقنع حكام إسرائيل بأى وسيلة بأن يتخلوا عن مطالبتهم بإقامة دولة يهودية متفوقة وقاصرة على فئة معينة ، فستحل على العالم طلعة معركة هرمجدون . ولكن هناك مبدأ آخر يجب توضيحه وهو أن السكان اليهود الذين يعيشون فى إسرائيل بالرغم من أنهم من المهاجرين أو أحفادهم فليس لهم إلا إحساس واحد هو أنهم " عائدون " بدون السؤال عن كيفية تطبيق الحق فى الوجود الآمن وفى السلام ، وماداموا يقيمون الآن فى فلسطين (أو مكان يسمى قبلاً فلسطين) فلابد لهم من البقاء فى هذا المكان ، ولابد أن يواجه أى حل فى المستقبل هذه القضية وكذلك العرب .

وربما كان موقف المهاجرين اليهود فى فلسطين من أصعب القضايا التى تواجه أيًا من أنواع التسويات ، ولا توجد إلا وسيلة واحدة يمكن بها منح الحق الشرعى للبقاء فى فلسطين لجماعات القادمين الجدد ، و هى رغبة سكان فلسطين الأصليين ؛ فهم وحدهم الذين يسمحون بالمواطنة المشتركة للأغراب الذين فُرضوا عليهم .

إن وجود دولة أجنبية مثل إسرائيل فى الشرق الأوسط له سوابق تاريخية منها المملكة الصليبية التى زرعت بنفس الطريقة وفى نفس المنطقة وبنفس المفهوم الأيديولوجى واستمرت قائمة لمدة تقترب من مائتى عام ، واستمر المسلمون فترة طويلة غير منظمين وأقل استعداداً فى الجانب العسكرى بالنسبة للقوات الصليبية المجهزة بعتاد أفضل مع توافر التنظيم الأفضل ، والتى كانت تمثل أقلية صغيرة يحيط بها بحر

من الأعداء ولكنها استطاعت الاحتفاظ بوجودها على مستوى قتالى أفضل من مستوى خصومها ، وكانت على ثقة من القدرة التى أعطيت لها من الله لتحرير الأرض المقدسة من عبودية المسلمين ، ولكن وبمرور الزمن توافرت الظروف التى أدت إلى هزيمتها هزيمة فادحة وطردها شر طردة ، وانهار الالتزام الأوربى الحماسى نحو المحافظة على بقاء المملكة المسيحية ، وفى نفس الوقت فإن المسيحيين الذين ولدوا فى بيئة مخالفة للمألوف أصبحوا أكثر قابلية للانتزاع من هذه الأرض بعد أن استسلموا لأساليب وعادات الناس الذين عاشوا بينهم ، وأصبحت الدولة المسيحية أكثر بعداً عن خطوط تموينها لأن جذورها كانت فى أوربا ، وظهرت علامات الجفاف على مصادر التموين التى كانت تظهر فيما مضى وكأن معينها لا ينضب ، وأصبحت المملكة المسيحية أكثر اعتماداً على المصادر العسكرية المحترفة (المرتزقة) التى تخضع للمؤثرات والسياسات التى تختلف عن تلك التى حركت هؤلاء الذين أنشأوا هذه المملكة فيما مضى .

لقد اكتشف الذين كانوا يدفعون الأموال لاستمرار هذه المملكة أولويات أخرى أكثر أهمية وأصبحت القيادات العسكرية الخاصة بالفروسية التى كانت تعتبر الذراع القوى للدفاع عن المملكة المسيحية فاسدة ونفعية ، وفى نفس الوقت ظهرت عبقرية عسكرية فى الجانب العربى فى شخص صلاح الدين الأيوبى ، وبدأ العد التنازلى لبقاء الوجود المسيحى الغريب فى وسط فلسطين - وبعد معركة حطين الفاصلة فى سنة ١١٨٧ للميلاد أصبح انهيار هذه المملكة حتمياً وسرعان ما انتهت فى خزى وتنافر .

وربما استطعنا تجاهل هذا التشابه بوصفه سهلاً وخارج عن الموضوع ولكن التاريخ يعيد نفسه دائماً : إن إسرائيل لا تستطيع التأكد من أن العرب لن يصلوا يوماً ما إلى مستوى القوة الذى يجعلهم قادرين على إبادتها بالقوة وليس بالحوار . وهى لن تستطيع التأكد أيضاً من أن هؤلاء الذين اعتادوا صب أرصدتهم المالية للحفاظ على مقومات الحياة للدولة الإسرائيلية سيستمرون فى ذلك ، حقاً قد تظن إسرائيل أنهم لن يتوقفوا عن ذلك . وإذا لم يستطع المجتمع الدولى أن يقنع إسرائيل بأن طابعها كدولة

قاصرة على اليهود يمثل تهديداً دائماً للعرب فلن يكون هناك إلا مخرجٌ واحدٌ ، وإذا لم يسيطر المستشارون العقلاء على هذا التهديد فستتحقق المخاوف التى عبر عنها الكثيرون من أن تستنجد إسرائيل بمبدأ "شمشون" وحينذاك يواجه العالم التهديد بحرب نووية ، إن طبقة العنف والحقد التى ظلت تغلف سلوك إسرائيل منذ إنشائها تجعل هذا التوقع محتمل الحدوث .

إن إمكانيات إسرائيل الضخمة المكونة من الأسلحة التقليدية المتطورة، والأسلحة البيولوجية ، والقدرات الذرية المتقدمة تجعلها أقوى دولة فى المنطقة ، لقد كانت دائماً أكثر مهارة فى إحباط كل محاولة تقوم بها أى دولة عربية لكى تمتلك ولو جزءاً من قدراتها الذاتية ، حتى يظل التسليح الإسرائيلى استفزازاً مستمراً ونموذجاً لخصومها العرب الذين يواجهون عدواً عنيداً متطرف الإيمان بالقوة العسكرية ولديه مخازن عظيمة للأسلحة رهن إشارته ، مما تصعب معه التوقعات بأن يظل كالمتفرج عاجزاً عن التصرف إلى الأبد ، و بالتدريج سيزداد شعور العرب بصعوبة فهم السبب الذى يجعل العالم الغربى يعتبر أن امتلاك الإمكانيات الذرية فى إسرائيل مقبول بينما تعتبر محاولة أى قطر عربى لامتلاك الطاقة الذرية انتهاكاً استفزازياً .

إن سكان إسرائيل الحاليين فى خطر عظيم سواء من جهة مواقفها العسكرية أو من جهة العناصر الأخرى مثل الفساد الذى دخل إلى الكيان السياسى مما أدى إلى تغيير طبيعتها بشكل جذرى ، وقد اعتاد الغرب على الفكرة النمطية التى تصور المواطن الإسرائيلى بوصفه مثقفاً أوربياً مهاجراً يعمل فى الكيبوتز نهاراً وفى الليل يعزف ضمن فرقة للآلات الوترية بينما يضع بندقية تحت قدميه ليدفع بها هؤلاء الذين يهددون بقاء هذا النموذج الذى يعبر عن حياة أصحاب العقليات الرفيعة ؛ ولكن مع انكماش أهمية العنصر الأوربى فى التركيبة السكانية فإن الموقف يصبح أشد خطراً لأن ظهور اليهود الشرقيين فى بؤرة الضوء يحمل معه تغييراً جذرياً فى المجتمع .

لقد فاض خلال السنوات الأخيرة فى إسرائيل سيل من الحكايات التى تزيد الاعتقاد بأن المجتمع الإسرائيلى فى حالة من الانحلال الأخلاقى والسياسى وقد أضافت الأعمال المريبة مثل اختطاف إيخمان ، وصيد الأعداء المتوقعين لإسرائيل

حيثما كانوا واستبعادهم على يد جهاز التجسس الإسرائيلى ، وإغراء المواطنين فى الدول الصديقة بالقيام بالنشاط الهدام ، والحصول على المعلومات الاستراتيجية بوسائل غير مشروعة ، سلسلة من الفضائح المتعلقة بالفساد الذى انتشر على نطاق واسع والجرائم المالية وتجارة السلاح مع الأنظمة أو الحركات التى لا تتعامل معها أى دولة شريفة ، وأخيراً توريط أفراد المخابرات الإسرائيلية فى ارتكاب أخطر الجرائم الحديثة التى تؤدى إلى الهلاك وهو ترويج المخدرات .

ويتم تبرير هذه الأفعال فى نطاق الاعتبارات الفائقة لبقاء الدولة الإسرائيلية فنجد أن كافة الأخلاقيات تنسب إلى هذا الأمر الرفيع ، ولن يعتبر ذلك فى حد ذاته أمراً مدهشاً فى حياة دولة هائمة ولدت وترعرعت فى مثل هذه الظروف التى أحاطت بقيام دولة إسرائيل منذ الأيام المبكرة للحركة الصهيونية حتى اليوم . إن إسرائيل تدعى بأنها تتمسك بالأساس الأخلاقى الرفيع وأن دوافع قادتها كانت رفيعة دائماً وأن التزامها بطهارة الذيل جعلها تتمتع باعتبارات خاصة وأن قبول أفعالها وسياستها لا يتطلب الإجابة عن أى سؤال لأنها مبررة فى حد ذاتها ، وبينما يكشف الكثير من تاريخ إسرائيل عن مدى النفاق والتجرد من الأخلاق إلا أن القناع لم ينكشف ويظهر الوجه الاستبدادى لإسرائيل ويجعله ظاهراً أمام المجتمع إلا خلال العقد الأخير وخاصة خلال فترة حكم الليكود والانتفاضة .

ويجب أن نأخذ فى اعتبارنا مبدأ سياسياً اتبعته إسرائيل فى ممارسة الشئون السياسية وأيضاً فى كافة الحالات المشابهة ، وهو يتلخص فى أن كافة المبادرات السياسية مكشوفة بشكل صارخ و أنها ترفض بسرعة قبل عرضها للموافقة ، ويحدونا الأمل فى أن تلقى بعض الاقتراحات التى يتضمنها هذا الكتاب نفس هذا التتابع من حيث الرفض السريع ثم القبول وهذه مبالغة فى التفاؤل .

وترتكز أهمية تأمين حل للمشكلة الفلسطينية بالنسبة للعالم ليس فقط على إزالة الاختلافات بين مجتمعين لهما أهمية تاريخية عظيمة بعدالة وشرف بل أيضاً السرعة التى يتم بها التوصل إلى حل هذه المشكلة ، وإذا كان من الممكن حل القضية الفلسطينية الإسرائيلية عن طريق إقامة الدولة الفيدرالية التى اقترحناها فى هذه الدراسة فسيكون من الممكن أيضاً تطبيق حلول مشابهة للمشاكل العويصة التى ظلت

تقض المضاجع لعدة قرون فى أيرلندا والتى تكتنف الأكراد الآن فى موطنهم الممزق والمقسم بيد أربع دول ليست خالصة النوايا ، أما العقبات التى تواجه حاليًا الاتحاد السوفيتى السابق فيما يتعلق بحقوق الأقليات داخل النظام السوفيتى ، فلابد من تقليل عددها بأساليب سياسية خلاقة مشابهة لذلك وبينما يواجه العالم نفسه عقبات أكثر صعوبة (ويتزايد الشك فى إمكانية أن يجد الجنس البشرى فرصة حقيقية للبقاء حتى على المدى المتوسط) ، فمن الضرورى أن تمنح الشعوب فى كل مكان الفرصة لتقرير مصيرها وقد تكون هذه الفرصة متاحة فى أن تصبح التكتلات السياسية على سطح الكرة الأرضية أكبر حجمًا وأكثراً بعداً عن الفردية ، وإذا حدث ذلك فإن الكيانات التعويضية ستنشأ بحيث تعيد على الأقل جزءًا من التحكم السياسى المباشر إلى الكثير من المصالح المحلية ، وحتى إذا نشأت الكيانات الفيدرالية نتيجة للضرورة الملحة لكى تحقق اختيارات لم يفكر فيها أحد فربما تكون هى الوسيلة الوحيدة التى يتحقق بها الكثير من التحكم المباشر وعن طريق تطبيقها يصبح فى الإمكان تحقيق تقرير المصير لشعوب مثل الأسكتندليين ، أو أهل ويلز ، أو الباسك أو أهالى سردينيا ، وكافة الشعوب الأخرى التى جردتها المفاهيم الأوربية الخاصة بالقومية من هويتها الذاتية .

وإذا تحقق الحل الذى اقترحناه هنا لقضية فلسطين فإن المساهمة التاريخية لشعب هذا الجزء من شرق البحر الأبيض ستزداد الآن بفضل جماعة المهاجرين الأوربيين النشطاء مما يبرهن على أن هذا الحل يجب ألا يقتصر فقط على مصالح الديانة السماوية ، ولكن إذا لم تتحقق البداية التى تعكس التاريخ القريب لهذه الأرض المتنازع عليها فإن كافة التجارب الأخرى لن تسترع النظر ، وقد تحقق نتائج المبادرة بين إسرائيل والفلسطينيين الآمال التى أنعشتها ولكن الدلائل غير مشجعة .

وخلاصة فكرة هذا الكتاب واعتقاد مؤلفه تتركز فى أن إسرائيل لابد أن تتغير جذريًا إذا أردنا للسلام أن يجد فرصة للدوام ، وستكون النهاية مضحكة إذا كان التأثير الوحيد للاتفاق بين منظمة التحرير الفلسطينية والإسرائيليين هو مجرد منح درجة من الشرعية لدولة إسرائيل التى لا يسعدها مضمون هذا الكتاب ، وسيبقى الظلم، دون أن يُصحَّح الخطأ ؛ ولكن المؤكد هو بقاء الحقوق المشروعة لشعب فلسطين فى تقرير مصيره ولا يُنْتَقَص منها شىء .

ملاحق الكتاب

• الملحق الأول •

صك الانتداب

مجلس عصبة الأمم:

لما كانت دول الحلفاء الكبرى قد وافقت على أن يعهد بإدارة فلسطين التى كانت تابعة فيما مضى للدولة العثمانية بالحدود التى تعينها تلك الدول إلى دولة منتدبة تختارها الدول المشار إليها تنفيذًا لنصوص المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم .

وطبقًا لما هو معلوم عن ارتباط الشعب اليهودى بفلسطين وعلى أساس إعادة إنشاء الوطن القومى لهم فى ذلك البلد.

وحيث إن دول الحلفاء الكبرى قد اختارت حكومة صاحب الجلالة البريطانية للانتداب على فلسطين .

وحيث إن الانتداب على فلسطين قد صيغ فى النصوص التالية ، وعرض على مجلس عصبة الأمم لإقراره .

ولما كان صاحب الجلالة البريطانية قد قبل الانتداب على فلسطين وتعهد بتنفيذه بالنيابة عن عصبة الأمم طبقًا للنصوص التالية :

ولما كانت المادة ٢٢ (الفقرة الثامنة) التى سبق ذكرها تنص على أن درجة السلطة أو التحكم ، أو الإدارة التى تمارسها الدولة المنتدبة لم يسبق الإتفاق عليها سابقًا من قبل أعضاء عصبة الأمم فيجرى تحديدها بوضوح بمعرفة مجلس عصبة الأمم .

ومع تأييد الانتداب المذكور فإن شروطه تحدد كما يلى :

المادة الأولى

يكون للدولة المنتدبة السلطة الكاملة فى التشريع والإدارة فيما عدا ما يكون قد تحدد فى نصوص هذا الصك .

المادة الثانية

تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن وضع البلاد فى أحوال سياسية ، وإدارية ، وإقتصادية تضمن إنشاء الوطن القومى لليهود وفقًا لما جاء بيانه فى ديباجة هذا الصك ، وتطوير مؤسسات الحكم الذاتي ، وتكون مسئولة أيضًا عن الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بصرف النظر عن الجنس والدين .

المادة الثالثة

تشجع الدولة المنتدبة الاستقلال المحلى على قدر ما تسمح به الظروف .

المادة الرابعة

يعترف بوكالة يهودية ملائمة كهيئة عمومية بهدف توجيه النصح إلى إدارة فلسطين والتعاون معها فى الشئون الاقتصادية ، والاجتماعية ، وغيرها من الأمور التى قد تؤثر فى إنشاء الوطن القومى لليهود ، ومصالح السكان اليهود فى فلسطين ، وأن تخضع دائمًا لمراقبة الإدارة ، وأن تساعد وتشارك فى تطوير البلد.

ويعترف بالمنظمة الصهيونية كوكالة ملائمة مادامت دولة الانتداب ترى أن تأليفها ودستورها يجعلانها صالحة لذلك على أن تقوم بعد التشاور مع حكومة صاحب الجلالة

باتخاذ الخطوات اللازمة لتأمين الحصول على مساعدة جميع اليهود الذين يريدون المساعدة فى إنشاء الوطن القومى لليهود .

المادة الخامسة

تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن ضمان عدم التنازل عن أية أراضٍ فلسطينية لحكومة أى دولة أجنبية ، أو تأجيرها لها ، أو وضعها تحت سيطرتها بأى شكل من الأشكال .

المادة السادسة

على إدارة فلسطين مع التأكيد على عدم الإضرار بحقوق ووضع فئات السكان الأخرى أن تسهل الهجرة اليهودية حسب شروط مناسبة ، وأن تشجع بالتعاون مع الوكالة اليهودية المشار إليها فى المادة الرابعة على استقرار اليهود على أرض فلسطين بما فيها الأراضى الأميرية والأراضى الموات غير المطلوبة للأغراض العمومية .

المادة السابعة

تكون إدارة فلسطين مسئولة عن سن قانون الجنسية على أن يتضمن هذا القانون نصوصًا تصاغ بحيث تسهل اكتساب اليهود الذين يتخذون فلسطين مكانًا دائمًا لإقامتهم حقوق المواطنة الفلسطينية .

المادة الثامنة

إن امتيازات وحصانات الأجانب بما فيها مزايا المحاكم القنصلية والمزايا التى كان يتمتع بها الأجانب سابقًا بحكم الامتيازات أو العرف فى الإمبراطورية العثمانية لا تطبق فى فلسطين .

وإذا لم تكن الدول التى تمتع رعاياها بالامتيازات والحصانات السابق ذكرها فى أول أغسطس سنة ١٩١٤، وقد تخلت عنها أو أنها وافقت على عدم تطبيقها لمدة معينة ، فإن هذه الامتيازات والحصانات سوف تعود مرة أخرى عند انتهاء الانتداب سواء كاملة أو مع التعديل الذى اتُّفق عليه بين الدول المعنية .

المادة التاسعة

تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن جعل النظام القضائى الذى يطبق فى فلسطين ضامنًا لحقوق الأجانب وكذلك الفلسطينيين ضمانًا كاملاً .

ويكون احترام الأحوال الشخصية لمختلف الأفراد ، والجماعات ، ومصالحهم الدينية مضمونًا تمام الضمان وخصوصًا إدارة الأوقاف التى يجب أن تجرى طبقًا للشرائع الدينية وشروط الواقفين .

المادة العاشرة

تطبق الاتفاقيات الخاصة بتسليم المجرمين المتعلقة بفلسطين ومعاهدات تسليم المجرمين السارية المفعول بين دولة الانتداب والدول الأجنبية فى فلسطين .

المادة الحادية عشرة

تتخذ إدارة فلسطين جميع الإجراءات اللازمة لحماية المجتمع فيما يختص بتطوير البلاد ، وتخضع لكافة الالتزامات الدولية التى تقبلها دولة الانتداب ، ويكون لها السلطة الكاملة فى وضع ما يلزم من الأحكام لكفالة الملكية العامة أو التحكم فى أى من المصادر الطبيعية فى البلاد ، أو الأعمال العامة ، والخدمات ، والمنافع الموجودة فى البلاد أو التى تنشأ فيما بعد. ، وتلتزم بإقامة نظام للأراضى يتفق مع احتياجات البلاد على أن يراعى بين أشياء أخرى الرغبة فى تطوير الاستقرار وتكثيف زراعة الأرض .

ويمكن للإدارة أن ترتب مع الوكالة اليهودية المذكورة فى المادة الرابعة بناء أو تشغيل أية أشغال أو خدمات أو منافع عامة حسب اشتراطات عادلة ومنصفة ما دامت الإدارة لا تتولى هذه الأمور مباشرة بنفسها ، غير أن كل اشتراط من هذه النوعية يشترط فيه ألا تتجاوز الأرباح التى توزعها الوكالة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة مقدار الفائدة المعقولة على رأس المال ، وأن كل ما يزيد على هذه الفائدة من الأرباح يستخدم لمصلحة البلاد على الوجه الذى توافق عليه الإدارة .

المادة الثانية عشرة

يعهد إلى الدولة المنتدبة بالإشراف على علاقات فلسطين الخارجية وحق إصدار البراءات إلى القناصل الذين تعينهم الدول الأجنبية ، ويكون لها الحق أيضًا فى أن تشمل رعايا فلسطين وهم خارج حدود منطقتها بالحماية السياسية والقنصلية .

المادة الثالثة عشرة

تضطلع الدولة المنتدبة بكافة المسئوليات الخاصة بالأماكن المقدسة والمبانى أو المواقع الدينية فى فلسطين بما فيها مسئولية المحافظة على الحقوق الموجودة ، وضمان الوصول إلى الأماكن المقدسة ، والمبانى ، والمواقع الدينية ، وضمان حرية العبادة مع ضمان متطلبات النظام العام والآداب العامة وتكون دولة الانتداب مسئولة بمفردها أمام عصبة الأمم عن كافة الأمور المتعلقة بذلك بشرط ألا يحول شىء مما ورد فى هذه المادة دون دخول دولة الانتداب مع الإدارة فيما تراه ملائمًا لتنفيذ نصوص هذه المادة وبشرط ألا يفسر شىء من هذا الصك تفسيرًا يخول للدولة المنتدبة التدخل فى بنية أو إدارة المقامات الإسلامية المقدسة ذات الحصانة المصونة .

المادة الرابعة عشرة

تعين الدولة المنتدبة لجنة خاصة لدراسة ، وتحديد ، واعتماد الحقوق ، والدعاوى المتعلقة بالأماكن المقدسة ، والحقوق ، والدعاوى المتعلقة بالطوائف الدينية المختلفة فى

فلسطين وتعرض طريقة تكوين هذه اللجنة ووظائفها على مجلس عصبة الأمم للموافقة عليها ، ولا تعين اللجنة أو تمارس وظائفها بدون موافقة المجلس.

المادة الخامسة عشرة

تتعهد الدولة المنتدبة بأن تكفل الحرية الدينية التامة وحرية ممارسة كافة أشكال العبادة للجميع بشرط المحافظة على النظام العام والأخلاقيات العامة ، ولا يكون هناك تمييز من أى نوع بين سكان فلسطين على أساس الجنس أو الدين ، أو اللغة وألا يطرد أى شخص من فلسطين بسبب معتقداته الدينية وحدها على ألا ينكر أو يمس حق كل طائفة فى صيانة مدارسها لتعليم أبنائها بلغتها الخاصة مادام ذلك مطابقًا لشروط التعليم العمومية التى قد تفرضها الإدارة .

المادة السادسة عشرة

تكون الدولة المنتدبة مسئولة عما تقتضيه المحافظة على النظام العام والإدارة المنظمة من القيام بالإشراف على الهيئات الدينية أو الخيرية لجميع العقائد ، ومع مراعاة هذا الشرط لا يجوز أن تتخذ فى فلسطين أية إجراءات من شأنها إعاقة هذه الهيئات أو التدخل فى مشروعاتها أو التمييز ضد أى ممثل من ممثليها أو عضو من أعضائها بسبب دينه أو جنسيته .

المادة السابعة عشرة

يجوز لإدارة فلسطين أن تنظم على أساس التطوع القوات اللازمة للمحافظة على السلام والنظام للدفاع عن البلاد مع الخضوع لإشراف دولة الانتداب ؛ ولكن لا يجوز لهذه الإدارة أن تستخدمها فى غير الأغراض السابق ذكرها إلا بموافقة الدولة المنتدبة ، وفيما عدا ذلك لا يجوز لإدارة فلسطين أن تؤلف أو أن تستبقى أية قوات عسكرية أو بحرية أو جوية .

وليس فى هذه المادة ما يمنع إدارة فلسطين من المساهمة فى نفقات القوات التى تخص الدولة المنتدبة فى فلسطين ويحقق للدولة المنتدبة أن تستخدم طرق فلسطين ، وسككها الحديدية ، وموانيها لحركة القوات المسلحة ، ونقل الوقود والمهمات فى كافة الأوقات .

المادة الثامنة عشرة

يجب على الدولة المنتدبة أن تضمن عدم التفرقة فى فلسطين بين رعايا أى دولة فى عصبة الأمم (بما فى ذلك الشركات المؤلفة بموجب قوانين تلك الدول) وبين رعايا الانتداب أو أى دولة أجنبية فى شئون الضرائب أو التجارة أو الملاحة أو إقامة الصناعات أو المهن أو فى معاملة السفن أو الطائرات المدنية ، كذلك يجب عدم التفرقة فى فلسطين ضد البضائع الواردة من الدول المذكورة أو المرسلة إليها وتطلق حرية المرور حسب شروط عادلة عبر منطقة الانتداب .

ومع مراعاة ما تقدم وسائر أحكام هذا الصك يجوز لإدارة فلسطين أن تفرض مع مراعاة ما تنصح به الدولة المنتدبة الضرائب والرسوم الجمركية حسب ما تراه ضروريًا ، وأن تتخذ التدابير التى تقتنع بضرورتها لترقية تطوير المصادر الطبيعية فى البلاد ورعاية مصالح السكان ، ويجوز لها مع مراعاة ما تنصح به الدولة المنتدبة أن تعقد إتفاقًا جمركيًا خاصًا مع أى دولة كانت أراضيها ضمن أراضى تركيا الآسيوية أو شبه الجزيرة العربية وذلك فى سنة ١٩١٤ .

المادة التاسعة عشرة

تلتزم الدولة المنتدبة بالنيابة عن إدارة فلسطين بأية اتفاقيات دولية عامة سبق عقدها أو يتم عقدها فيما بعد بموافقة عصبة الأمم بشأن تجارة الرقيق أو تجارة السلاح والذخيرة أو تجارة المخدرات أو تتعلق بالمساواة التجارية وحرية مرور البضائع ، والملاحة الجوية ، والإتصالات البريدية ، والتلغرافية ، واللاسلكية أو الممتلكات الأدبية ، والفنية ، والصناعية .

المادة العشرون

تتعاون الدولة المنتدبة بالنيابة عن إدارة فلسطين بقدر ما تسمح الأحوال الدينية والاجتماعية وغيرها من الأحوال فى تنفيذ أية سياسة مشتركة تقررها عصبة الأمم لمنع ومكافحة الأمراض بما فيها أمراض النباتات والحيوانات .

المادة الحادية والعشرون

تلتزم الدولة المنتدبة بتأمين سن قانون للآثار القديمة فى خلال الاثنى عشر شهراً التالية لهذا التاريخ ، وتنفيذ هذا القانون على أساس القواعد التالية (*) ، ويؤكد هذا القانون المساواة فى المعاملة فيما يتعلق بالحفائر والتنقيب عن الآثار لرعايا جميع الدول التى تدخل فى عضوية عصبة الأمم .

المادة الثانية والعشرون

تكون الإنجليزية ، والعربية ، والعبرية اللغات الرسمية لفلسطين وكل عبارة أو كتابة بالعربية وردت على طوابع البريد أو العملات المستعملة يجب أن تتكرر بالعبرية ، وكذلك فإن كل عبارة أو كتابة بالعبرية يجب أن تتكرر بالعربية .

المادة الثالثة والعشرون

تعترف إدارة فلسطين بالأعياد المقدسة عند الطوائف التى فى فلسطين كعطلات رسمية قانونية لأفراد كل طائفة .

(*) عند هذه العبارة يكتفى المؤلف بالإشارة إلى هذه القواعد دون أن يورد منها شيئًا علمًا بأن النص الأصلى لصك الانتداب يتضمن فى هذه الفقرة ثمانى قواعد تنظم عطيات التنقيب عن الآثارة وكيفية اقتسام الناتج وغير ذلك من الأسس التى لا أعرف لماذا تجاهل المؤلف ذكرها! (المترجم) .

المادة الرابعة والعشرون

تقدم الدولة المنتدبة إلى مجلس عصبة الأمم تقريراً سنوياً بصورة تقنع المجلس بتناول التدابير التى اتخذت خلال العام لتنفيذ نصوص صك الانتداب .

وترفق بالتقرير نسخ من كافة القوانين والتنظيمات التى تنشر أو تصدر خلال العام .

المادة الخامسة والعشرون

يحق للدولة المنتدبة بموافقة مجلس عصبة الأمم أن ترجىء أو توقف تطبيق ما تراه من هذه النصوص غير قابل للتطبيق على الأراضى الواقعة بين الأردن والحدود الشرقية لفلسطين كما ستحدد فيما بعد حسب الأحوال المحلية السائدة ، وأن تتخذ ما تراه من التدابير لإدارة هذه الأراضى وفقًا لهذه الأحوال بشرط عدم اتخاذ إجراء يمكن أن يعتبر متعارضًا مع أحكام المواد ١٥ ، ١٦ ، ١٨ .

المادة السادسة والعشرون

توافق الدولة المنتدبة على أنه إذا وقع خلاف بينها وبين دولة أخرى من أعضاء عصبة الأمم حول تفسير نصوص صك الانتداب أو تطبيقها وتعذر حله بالمفاوضات ، فإن مثل هذا الخلاف يعرض على محكمة العدل الدولية الدائمة المنصوص عليها فى المادة ١٤ من ميثاق عصبة الأمم .

المادة السابعة والعشرون

لابد من موافقة مجلس عصبة الأمم على أى تعديل لشروط هذا الانتداب .

المادة الثامنة والعشرون

فى حالة انتهاء الانتداب الممنوح للدولة المنتدبة بموجب هذا الصك يتخذ مجلس عصبة الأمم ما يراه ضرورياً من التدابير لصون استمرار الحقوق التى كفلتها المادتان ١٣ ، ١٤ ، وأن تحترم حكومة فلسطين الالتزامات المالية التى تحملتها إدارة فلسطين بشكل قانونى خلال فترة الانتداب بما فيها حقوق الموظفين فى رواتب التقاعد أو المكافآت .

ويودع المستند الحالى بصورته الأصلية فى أرشيف عصبة الأمم ، كما تقدم منه صور معتمدة بمعرفة السكرتير العام لعصبة الأمم لجميع أعضاء العصبة .

صدر فى لندن يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢ .

• الملحق الثانى •

قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة

حكومة فلسطين فى المستقبل (قرار التقسيم)

٢٩ نوفمبر ١٩٤٧

الجمعية العامة

عقدت دورة استثنائية بناء على طلب السلطة المنتدبة لتأليف لجنة خاصة وتكليفها بالإعداد للنظر فى مسألة حكومة فلسطين فى المستقبل فى الدورة العادية الثانية .

وقد ألفت لجنة خاصة وكلفتها بالتحقيق فى كافة المسائل ، والقضايا المتعلقة بمشكلة فلسطين ، وإعداد اقتراحات لحل المشكلة .

وقد تلقت وفحصت تقرير اللجنة الخاصة (الوثيقة رقم ٣٦٤ / أ) الذى اشتمل على عدد من التوصيات الإجماعية وخطة للتقسيم مع إتحاد اقتصادى أقرتها غالبية اللجنة الخاصة .

تعتبر أن الوضع الحالى فى فلسطين من المحتمل أن يلحق الضرر بالمصلحة العامة والعلاقات الودية بين الأمم .

تأخذ علمًا بتصريح سلطة الانتداب بأنها تخطط لاستكمال جلائها عن فلسطين فى أول أغسطس سنة ١٩٤٨ ، وهى توصى المملكة المتحدة بوصفها السلطة المنتدبة على فلسطين وجميع الأعضاء الآخرين بالأمم المتحدة فيما يتعلق بضرورة إقرار

وتطبيق خطة التقسيم مع الإتحاد الاقتصادى لحكومة فلسطين فى المستقبل الموضحة فيما بعد تطالب بأن :

(أ) يتخذ مجلس الأمن الإجراءات الضرورية كما هى مبينة فى الخطة من أجل تنفيذها .

(ب) أن ينظر مجلس الأمن – إذا كانت الظروف خلال الفترة الانتقالية تقتضى مثل هذا النظر ، فيما إذا كان الوضع فى فلسطين يشكل تهديداً للسلم ، وإذا قرر مجلس الأمن وجود مثل هذا التهديد وجب عليه فى سبيل المحافظة على السلم والأمن الدوليين أن يضيف إلى تفويض الجمعية العامة إتخاذ إجراءات تمنح لجنة الأمم المتحدة بموجب المادتين ٣٩ ، ٤١ من الميثاق حسب ما ورد فى هذا القرار أن تمارس فى فلسطين المهام المنوطة بها بموجب هذا القرار .

(جـ) يعتبر مجلس الأمن طبقًا للمادة ٣٩ من الميثاق أن أى محاولة لتغيير الوضع المستقر حسب هذا القرار تهديداً للسلم وانتهاكًا للسلم ، وعملاً عدوانيًا .

(د) أن يبلغ مجلس الوصاية بمسئولياته التى تنطوى عليها هذه الخطة .

تدعو سكان فلسطين الى إتخاذ الخطوات الضرورية من جانبهم لوضع هذه الخطة موضع التنفيذ ، وتناشد جميع الحكومات وجميع الشعوب أن تحجم عن القيام بأى عمل يحتمل أن يعيق هذه التوصيات أو يؤخر تنفيذها وتفويض الأمين العام بتغطية نفقات السفر وتكاليف الإعاشة لأعضاء اللجنة المشار إليها فى الجزء الأول ، القسم ب ، الفقرة ١ أدناه وذلك بناء على الأساس والصورة التى قد تحدد الظروف الملائمة وتزويد اللجنة بطاقم العمل الضرورى للمساعدة فى تنفيذ المهام التى كلفت بها اللجنة من قبل الجمعية العامة .

خطة التقسيم مع الاتحاد الاقتصادى

الجزء الأول : دستور وحكومة فلسطين فى المستقبل

(أ) إنهاء الانتداب

التقسيم والاستقلال

١- ينتهى الانتداب على فلسطين فى أسرع وقت ممكن على ألا يتأخر فى أى حال عن ١ أغسطس سنة ١٩٤٨ م .

٢- يجب أن تجلو القوات المسلحة التابعة للدولة المنتدبة عن فلسطين بالتدريج ، ويتم الانسحاب بأسرع ما يمكن ولكن لا يتأخر عن ١ أغسطس ١٩٤٨ بأية حال .

ويجب أن تخطر الدولة المنتدبة اللجنة فى أقرب وقت ممكن نيتها فى إنهاء الانتداب والجلاء عن كل منطقة .

تبذل السلطة المنتدبة أقصى ما فى وسعها لضمان الجلاء عن منطقة واقعة فى أراضى الدولة اليهودية ، تضم ميناء بحرياً وظهيراً خلفياً بما يكفى لتقديم التسهيلات لهجرة كبيرة على أن يتم الجلاء بأسرع وقت ممكن بحيث لا يتأخر عن ١ فبراير سنة ١٩٤٨ بأية حال من الأحوال .

٣ - تنشأ فى فلسطين الدولتان المستقلتان العربية واليهودية والحكم الدولى الخاص بمدينة القدس المبين فى الجزء الثالث من هذه الخطة بعد شهرين من جلاء القوات المسلحة التابعة للدولة المنتدبة على ألا يتأخر فى أى حال من الأحوال عن ١ أكتوبر سنة ١٩٤٨ ، وسنقدم وصفاً لحدود الدولة العربية والدولة اليهودية فى الجزءين ٢ و٣ أدناه .

٤ - تعتبر الفترة ما بين موافقة الجمعية العامة على توصيتها بشأن فلسطين وتحقيق استقلال الدولتين العربية واليهودية فترة انتقالية .

(ب) خطوات تمهيدية للاستقلال

١ - تشكل لجنة مكونة من ممثل واحد لكل دولة من خمس دول أعضاء ، وتنتخب الجمعية العامة الأعضاء الممثلين في اللجنة على أوسع أساس ممكن جغرافياً وغير جغرافي .

٢ - في الوقت الذي تسحب فيه الدولة المنتدبة قواتها المسلحة تسلم إدارة فلسطين تدريجياً إلى اللجنة التي ستعمل حسب توصيات الجمعية العامة وتحت إرشاد مجلس الأمن ، وتنسق الدولة المنتدبة خططها للانسحاب مع خطط اللجنة لاستلام وإدارة المناطق التي يتم الجلاء عنها إلى أقصى حد ممكن .

وفي سبيل تنفيذ هذه المسئولية الإدارية تخول اللجنة سلطة إصدار التعليمات الضرورية وتتخذ الإجراءات الأخرى كلما استدعى الأمر.

٣ - تمضي اللجنة في تنفيذ إجراءات إنشاء حدود الدولتين العربية ، واليهودية ، ومدينة القدس ، تطبيقاً للخطوط العامة لتوصيات الجمعية العامة حول تقسيم فلسطين وذلك بمجرد وصولها إلى فلسطين .

وعلى الرغم من هذا يجرى تعديل الحدود التي قدمنا وصفاً لها في الجزء الثاني من هذه الخطة بحيث لا تقسم حدود الدولة مناطق القرى كقاعدة إلا إذا اقتضت ذلك أسباب ملحة .

٤ - تختار اللجنة وتنشيء في كل دولة بأسرع ما يمكن مجلس حكومة مؤقتاً بعد التشاور مع الأحزاب الديمقراطية والمنظمات العامة الأخرى في الدولتين العربية واليهودية ، وتسير أنشطة كل من المجلسين العربي والإسرائيلي تحت الإشراف العام للجنة .

وإذا لم يكن في الإمكان اختيار مجلس حكومة مؤقتاً لأي من الدولتين حتى ١ إبريل سنة ١٩٤٨، أو إذا انتخب ولم يستطع الاضطلاع بوظائفه فتلتزم اللجنة بأن تخطر مجلس الأمن بهذه الحقيقة ليتخذ الإجراء المناسب فيما يتعلق بهذه الدولة كما تخطر بها الأمين العام لكي يحيط أعضاء الأمم المتحدة علماً بذلك .

٥ – ومع مراعاة نصوص هذه التوصيات يكون لكل من المجلسين فى أثناء فترة الانتقال وتحت إشراف اللجنة كامل السلطة فى المناطق التابعة لها بما فى ذلك السلطة فى قضايا الهجرة وتنظيم الأراضى .

٦ – يتسلم بالتدريج مجلس الحكومة فى كل من الدولتين من اللجنة المسئولية الكاملة لإدارة هذه الدولة خلال الفترة التى تنقضى ما بين إنهاء الانتداب وإقرار استقلال الدولة .

٧ – تعطى اللجنة التعليمات إلى مجلس الحكومة المؤقت لكل من الدولتين العربية واليهودية بعد تشكيلهما أن يمضى فى إنشاء أجهزة الإدارة الحكومية المركزية والمحلية .

٨ – يجند مجلس الحكومة المؤقت لكل دولة – فى أقصر وقت ممكن – ميليشيا مسلحة من سكان تلك الدولة تكفى من حيث العدد للمحافظة على النظام الداخلى ومنع الاشتباكات على الحدود .

وتكون هذه الميليشيا المسلحة فى كل دولة مخصصة لأغراض العمليات تحت قيادة ضباط يهود أو عرب مقيمين فى تلك الدولة إلا أن اللجنة لها حق ممارسة السيطرة العامة السياسية والعسكرية على الميليشيا بما فى ذلك اختيار قيادتها العليا .

٩– يعقد مجلس الحكومة المؤقت لكل من الدولتين فيما لا يتجاوز شهرين من بعد انسحاب القوات المسلحة الخاصة بالدولة المنتدبة انتخابات الجمعية التأسيسية على أسس ديمقراطية .

ويضع مجلس الحكومة المؤقت فى كل دولة بموافقة اللجنة أنظمة الانتخاب .

ويؤهل للتصويت فى هذه الانتخابات فى كل دولة الأشخاص الذين تتجاوز أعمارهم ثمانية عشر عامًا على أن يكونوا (أ) مواطنين فلسطينيين مقيمين بهذه الدولة (ب) عربًا ويهودًا مقيمين فى الدولة ، وإن لم يكونوا مواطنين فلسطينيين وقعوا قبل الاقتراع بيانًا أعربوا فيه عن نيتهم فى أن يصبحوا مواطنين فى تلك الدولة.

يحق للعرب واليهود المقيمين فى مدينة القدس الذين وقعوا بيانًا أعربوا فيه عن نيتهم في أن يصبحوا مواطنين والعرب فى الدولة العربية واليهود فى الدولة اليهودية أن يدلوا بأصواتهم فى الدولتين العربية واليهودية بالترتيب المذكور .

ويجوز للنساء الإدلاء بأصواتهن أو يجرى انتخابهن للجمعية التأسيسية .

ولا يسمح لأى يهودى بأن يجعل إقامته فى منطقة الدولة اليهودية المقترحة خلال الفترة الانتقالية إلا بأذن خاص من اللجنة .

١٠ - تضع الجمعية التأسيسية لكل دولة مسودة دستور ديمقراطى لدولتها وتختار حكومة مؤقتة لتحل محل مجلس الحكومة المؤقت الذى عينته اللجنة . ويضم دستور كل دولة الفصلين الأول والثانى من التصريح المذكور فى القسم (جـ) أدناه ويتضمن فى جملة ما يحتويه أحكامًا لما يلى :

(أ) تأسيس هيئة تشريعية فى كل دولة تنتخب بالتصويت العام وبالاقتراع السرى على أساس التمثيل النسبى، وهيئة تنفيذية مسئولة أمام الهيئة التشريعية

(ب) تسوية جميع الخلافات الدولية التى قد تصبح الدولة طرفًا فيها بالوسائل السلمية وبطريقة لا تعرض السلام والأمن ، والعدل الدولى للخطر .

(جـ) قبول التزام الدولة بالامتناع فى علاقاتها الدولية عن التهديد بالقوة ضد الوحدة الإقليمية أو الاستقلال السياسى لأية دولة أو بأية وسيلة أخرى تتعارض مع أهداف الأمم المتحدة .

(د) تضمن الدولة لكافة الأشخاص حقوقًا متساوية وبغير تمييز فى الشئون المدنية والسياسية ، والاقتصادية ، والدينية ، والتمتع بحقوق الإنسان والحريات السياسية بما فيها حرية العبادة واللغة والخطابة ، والنشر، والتعليم ، وعقد الاجتماعات ، وإنشاء الجمعيات .

(هـ) المحافظة على حرية المرور والزيارات لجميع سكان ومواطنى الدولة الأخرى فى فلسطين ومدينة القدس، مع مراعاة اعتبارات الأمن القومى على أن

تضبط كل دولة الإقامة ضمن حدودها .

١١- تعين اللجنة لجنة اقتصادية مكونة من ثلاثة أعضاء لوضع الترتيبات الممكنة للتعاون الاقتصادى بغرض إنشاء الاتحاد الاقتصادى والمجلس الاقتصادى المشترك كما هو مبين فى القسم (د) أدناه بأسرع ما يمكن .

١٢ - فى أثناء الفترة ما بين إقرار الجمعية العامة للتوصيات الخاصة بمسألة فلسطين وبين انتهاء الانتداب تحتفظ السلطة المنتدبة فى فلسطين بالمسئولية الكاملة عن إدارة المناطق التى لم تسحب منها القوات المسلحة ، وتقوم اللجنة بمساعدة سلطة الانتداب فى تنفيذ هذه المهام وكذلك تلتزم السلطة المنتدبة أيضاً بالتعاون مع اللجنة فى تنفيذ مهامها .

١٣ - ولضمان الاستمرار فى أداء الخدمات الإدارية ولضمان انتقال الإدارة بكاملها - بعد انسحاب القوات المسلحة للسلطة المنتدبة - إلى المجلسين المؤقتين والمجلس الاقتصادى المشترك بالترتيب وهى التى تعمل تحت إشراف اللجنة - يجب أن تنتقل بالتدريج - من السلطة المنتدبة إلى اللجنة - مسئولية كافة مهام الحكومة بما فيها المحافظة على التعاون والنظام فى المناطق التى انسحبت منها قوات الدولة المنتدبة .

١٤ - تسترشد اللجنة فى أعمالها بتوصيات الجمعية العامة وبالتعليمات التى يرى مجلس الأمن ضرورة إصدارها ، وتصبح الإجراءات التى تتخذها اللجنة ضمن توصيات الجمعية العامة نافذة فوراً ما لم تكن اللجنة قد تسلمت قبل ذلك تعليمات مضادة من مجلس الأمن .

وتلتزم اللجنة بأن تقدم إلى مجلس الأمن تقريراً شهرياً أو أكثر من تقرير إذا كان ذلك مرغوباً فيه .

١٥ - ترفع اللجنة تقريرها النهائى إلى الدورة العادية التالية للجمعية العامة ولمجلس الأمن فى وقت واحد .

(جـ) التصريح

ترفع الحكومة المؤقتة فى كل دولة مقترحة قبل الاستقلال تصريحًا إلى الأمم المتحدة يتضمن فى جملة ما يتضمنه النصوص التالية :

تعتبر الشروط التى يتضمنها التصريح قوانين أساسية للدولة ، ولا يتعارض أى قانون أو نظام أو إجراء رسمى مع هذه الشروط أو يتدخل فيها ، ولا يقدم عليها أى قانون أو نظام أو إجراء رسمى . .

الفصل الأول - الأماكن المقدسة و المبانى والمواقع الدينية

١- لا تنكر أو تمس الحقوق القائمة المتعلقة بالأماكن المقدسة والمبانى أو المواقع الدينية .

٢- فيما يختص بالأماكن المقدسة تضمن حرية الوصول ، والزيارة ، والمرور بالتوافق مع الحقوق القائمة لجميع المقيمين والمواطنين فى الدولة الأخرى وفى مدينة القدس وكذلك للأجانب دون تمييز فى الجنسية على أن يخضع ذلك لمتطلبات الأمن القومى والوقار .

٣ - تصان الأماكن المقدسة والمبانى أو المواقع الدينية ولا يسمح بأى عمل يمكن أن يمس بطريقة من الطرق صفتها المقدسة ، وإذا بدا للحكومة فى أى وقت أن أى مكان مقدس أو مبنى أو موقعًا دينيًا فى حاجة إلى ترميم عاجل بجوز للحكومة أن تدعو الطائفة أو الطوائف المعنية لتنفيذ مثل هذا الترميم ويجوز للحكومة تنفيذه بنفسها على نفقة الطائفة أو الطوائف المعنية إذا لم يتخذ إجراء خلال فترة زمنية معقولة .

٤ - لا تفرض ضريبة على أى مكان مقدس أو مبنى أو موقع دينى كان معفيًا من الضرائب فى تاريخ إنشاء الدولة ، ويجب ألا يحدث أى تغيير فى وضع هذه الضريبة يكون من شأنه التمييز بين مالكى أو قاطنى الأماكن المقدسة أو المبانى أو المواقع

الدينية أو يكون من شأنه وضع هؤلاء المالكين أو القاطنين فى موضع أقل شأنًا بالنسبة إلى الوضع العام للضريبة عما كان موجوداً فى وقت تبنى توصية الجمعية .

٥ - يحق لحاكم مدينة القدس تقرير ما إذا كانت أحكام دستور الدولة فيما يتعلق بالأماكن المقدسة ، والمبانى ، والمواقع الدينية التى تقع ضمن حدود الدولة والحقوق الدينية المختصة بها ، تطبق وتحترم بصورة صحيحة وعليه أن يتخذ قرارات تصدر على أساس الحقوق القائمة فى حالات الخلافات التى قد تنشب بين الطوائف الدينية المختلفة أو حقوق طائفة دينية واحدة حول هذه الأماكن والمبانى والمواقع ، ويجب أن يلقى التعاون التام وأن يتمتع بالامتيازات والحصانات الضرورية للاضطلاع بمهامه فى الدولة .

الفصل الثانى - الحقوق الدينية وحقوق الأقليات

١ - تكون حرية العقيدة والممارسة الحرة لكافة طقوس العبادة المتفقة فقط مع النظام العام والأخلاقيات مضمونة للجميع .

٢ - لا يجوز التمييز بين السكان بأى شكل من الأشكال على أساس الأصل أو الدين أو اللغة أو الجنس .

٣ - لكافة الأشخاص الخاضعين لولاية الدولة الحق فى حماية القانون .

٤ - يجب احترام القانون العائلى والأحوال الشخصية لمختلف الأقليات ومصالحها الدينية بما فى ذلك الأوقاف .

٥ - باستثناء ما يتطلبه حفظ النظام العام وحسن الإدارة لن يتخذ أى إجراء من شأنه أن يعيق أو يتدخل فى مشروعات الهيئات الدينية أو الخيرية لكافة العقائد أو يتحيز ضد أى ممثل أو عضو لهذه الهيئات بسبب دينه أو قوميته .

٦- تضمن الدولة القدر الكافى من التعليم الابتدائى والثانوى للأقلية العربية والأقلية اليهودية على التوالى بلغتها وحسب تقاليدها الثقافية .

وتضمن حق كل طائفة في الاحتفاظ بمدارسها لتعليم أبنائها بلغتها الخاصة مادامت تلتزم بمقتضيات التعليم ذات الطبيعة العامة كما تفرضها الدولة وتستمر المؤسسات التعليمية الأجنبية فى نشاطها على أساس حقوقها القائمة .

٧ - لن تفرض أية قيود على حرية أى مواطن بالدولة فى استعمال أية لغة فى المحادثات الخاصة أو فى التجارة أو فى الدين أو الصحافة أو فى المطبوعات بكافة أنواعها أو فى الاجتماعات العامة [١] .

٨ - لا يسمح بنزع ملكية أى أرض تخص عربيًا فى الدولة اليهودية (بمعرفة يهودى فى الدولة العربية) [٢] إلا للمنفعة العامة ، وفى جميع حالات نزع الملكية يجب دفع تعويض كامل بالمقدار الذى تحدده المحكمة العليا قبل تجريد المالك من أرضه .

الفصل الثالث - المواطنة والاتفاقيات الدولية والالتزامات المالية

١- المواطنة :

إن المواطنين الفلسطينيين المقيمين فى فلسطين خارج مدينة القدس ، والعرب ، واليهود المقيمين فى فلسطين خارج القدس وهم غير حائزين على الجنسية الفلسطينية يصبحون مواطنين فى الدولة التى يقيمون بها ويتمتعون بكافة الحقوق المدنية والسياسية بمجرد الاعتراف باستقلال الدولة ، ويجوز للأشخاص الذين تجاوزوا الثامنة عشرة من العمر خلال عام واحد من تاريخ الاعتراف باستقلال الدولة التى يعيشون فيها أن يختاروا جنسية الدولة الأخرى بشرط ألا يكون لأى عربى يقيم فى منطقة

(١) يضاف الشرط التالى إلى التصريح فيما يخص الدولة اليهودية : تمنح تسهيلات متساوية فى الدولة اليهودية للمواطنين المتحدثين باللغة العربية لاستخدام لغتهم العربية فى الحديث وفى الكتابة ، وفى التشريعات المستخدمة أمام المحاكم وفى الإدارة .

(٢) تستخدم فى التصريح الخاص بالدولة العربية عبارة " بمعرفة عربى فى الدولة اليهودية " . بدلاً من عبارة " بمعرفة يهودى فى الدولة العربية " .

الدولة العربية المقترحة الحق فى اختيار جنسية الدولة اليهودية المقترحة وألا يكون لأى يهودى يقيم فى منطقة الدولة اليهودية المقترحة الحق فى اختيار جنسية الدولة العربية المقترحة. وتتضمن ممارسة هذا الحق الزوجات والأطفال الذين تحت سن ثمانية عشر عاماً التابعين للأشخاص الذين مارسوا هذا الاختيار .

ويجوز للعرب المقيمين فى إقليم الدولة اليهودية المقترحة ولليهود المقيمين فى إقليم الدولة العربية المقترحة الذين وقعوا إقراراً برغبتهم فى الحصول على جنسية الدولة الأخرى أن يشتركوا فى انتخابات الجمعية التأسيسية لهذه الدولة ولكن ليس فى انتخابات الجمعية التأسيسية للدولة التى يقيمون فيها.

٢ - الاتفاقيات الدولية:

(أ) تربط الدولة بجميع الاتفاقيات والمعاهدات الدولية العامة والخاصة التى كانت فلسطين طرفًا فيها ، وعلى الدولة أن تحترم هذه المعاهدات والإتفاقيات طوال المدة المقررة لها مع عدم الإخلال بأى حق فى الإنهاء قد تنص عليه هذه الاتفاقيات والمعاهدات .

(ب) كل نزاع حول تطبيق هذه الاتفاقيات أو المعاهدات الدولية التى وقعتها أو انضمت إليها سلطة الانتداب نيابة عن فلسطين أو بشأن استمرار صحتها يرفع إلى محكمة العدل الدولية وفق أحكام نظام المحكمة .

٣ - الالتزامات المالية:

(أ) على الدولة أن تحترم وتنفذ جميع أنواع الالتزامات المالية التى أخذتها الدولة المنتدبة على عاتقها نيابة عن فلسطين فى أثناء ممارستها الانتداب والتى تعترف بها الدولة ، ويشمل هذا الشرط حق الموظفين فى مرتبات التقاعد ، والتعويضات ، والمكافآت .

(ب) تفى الدولة عن طريق المشاركة فى المجلس الاقتصادى المختلط بتلك الالتزامات التى تشمل فلسطين كلها كما تفى بشكل فردى بتلك الالتزامات التى يمكن التفاهم بشأنها وتوزيعها بالعدل بين الدولتين .

(جـ) يجب إنشاء محكمة ادعاءات تابعة للمجلس الاقتصادى المشترك مكونة من عضو واحد تعينه منظمة الأمم المتحدة وممثل للمملكة المتحدة وممثل للدولة المعنية ، ويرفع إلى هذه المحكمة كل نزاع بين المملكة المتحدة وهذه الدولة فيما يتعلق بالمطالب غير المعترف بها قبل هذه الأخيرة .

(د) تبقى الامتيازات التجارية الممنوحة بالنسبة إلى أى جزء من فلسطين قبل موافقة الجمعية العامة على القرار صالحة وفق شروطها ما لم تعدل بطريق الاتفاق بين صاحب الامتياز والدولة .

• الملحق الثالث •

دولة إسرائيل

إعلان الاستقلال

كانت أرض إسرائيل هى مهد الشعب اليهودى وقد تشكلت هنا شخصيته الروحية ، والدينية ، والقومية ، وهنا حقق استقلاله وخلق ثقافة ذات مغزى قومى وعالمى وهنا دون وأعطى الكتاب المقدس للعالم .

وقد ظل الشعب اليهودى بعد نفيه من أرض إسرائيل وفيًا لها فى كافة الدول التى تشتت فيها ، ولم يكف عن الصلاة أو يفقد الأمل فى عودته إليها واستعادة حريته القومية .

وسعى اليهود مدفوعين بهذه العلاقة التاريخية على مدى القرون للعودة إلى أرض آبائهم ، واستعادة دولتهم ، وعاد أفراد جماهيرهم فى العقود الأخيرة فأصلحوا الصحراء وأحيوا لغتهم وبنوا المدن والقرى وأنشأوا مجتمعًا ناميًا يسيطر على شئون حياته الاقتصادية والثقافية ، أنهم يبحثون عن السلام ، ولكنهم على استعداد للدفاع عن أنفسهم ، لقد جلبوا بركات التقدم لجميع سكان البلاد ويطمحون إلى تأسيس دولة مستقلة .

انعقد المؤتمر الصهيونى الأول فى سنة ١٨٩٧ بدعوة من ثيودور هرتزل الأب الروحى للدولة اليهودية وأعلن حق الشعب اليهودى فى تحقيق بعثه القومى فى بلاده الخاصة به .

واعترف وعد بلفور الصادر فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ بهذا الحق وأكده من جديد صك الانتداب الصادر عن عصبة الأمم التى أعطت موافقتها العالمية الصريحة على الصلة التاريخية بين الشعب اليهودى وفلسطين وحقه فى إعادة بناء وطنه القومى .

وكانت مجزرة الهلوكوست التى حلت مؤخراً بالشعب اليهودى وأدت إلى إبادة اليهود فى أوربا دليلاً واضحاً على ضرورة حل مشكلة تشرده وافتقاره إلى الاستقلال عن طريق إقامة الدولة اليهودية التى ستفتح الأبواب لجميع اليهود وتمنحهم مكانة مرموقة ضمن الأسرة الدولية .

ولم يتوقف الناجون من القتل المهلك فى أوربا وكذلك اليهود الذين فى الأراضى الأخرى عن بذل جهودهم للوصول إلى أرض إسرائيل فى مواجهة الصعوبات ، والعوائق ، والأخطار ، ولم يتوقفوا عن تأكيد حقهم فى حياة الكرامة ، والحرية ، والكد الشريف فى أرض أجدادهم .

لقد ساهم الشعب اليهودى فى فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية مساهمة كاملة فى معركة الأمم المحبة للحرية ضد شرور النازى ، وقد أكسبته تضحيات جنوده وجهودهم فى الحرب حقه فى الاعتبار ضمن الأمم التى أسست الأمم المتحدة .

لقد أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ قراراً يدعو إلى إقامة دولة يهودية فى فلسطين ، وطالبت الأمم المتحدة سكان القطر باتخاذ الخطوات اللازمة من جانبهم لتنفيذ الخطة . أن اعتراف الأمم المتحدة هذا بحق الشعب اليهودى فى إنشاء دولته المستقلة حق يتعذر الرجوع عنه .

إنه هو الحق الطبيعى للشعب اليهودى فى أن ينشىء كيانًا مستقلاً فى دولته ذات السيادة .

وبناء عليه نجتمع هنا نحن أعضاء المجلس القومى ممثلين عن الشعب اليهودى فى فلسطين وحركة الصهيونية العالمية فى يوم انتهاء الانتداب البريطانى على فلسطين ، وبفضل الحق الطبيعى والتاريخى للشعب اليهودى وقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة .

ونعلن هنا إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين والتى ستدعى مدينة إسرائيل (دولة إسرائيل) .

ونعلن هنا أنه منذ وقت انتهاء الانتداب في منتصف ليلة ١٤ - ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ وحتى قيام أجهزة الدولة المنتخبة في حينها طبقًا للدستور الذى ستقوم بإعداده الجمعية التأسيسية في مدة لا تتجاوز أول أكتوبر سنة ١٩٤٨ سيمارس المجلس القومى صلاحيات مجلس الدولة المؤقت ، وأن الإدارة القومية ستمثل الحكومة المؤقتة للدولة اليهودية التى ستدعى إسرائيل .

وستفتح دولة إسرائيل أبوابها أمام هجرة اليهود من كافة الأقطار التى تشتتوا إليها ، وستحقق تطور البلد لصالح كافة سكانه على أساس مبادئ الحرية والعدالة والسلام كما حملها أنبياء إسرائيل ، وستحافظ على المساواة الاجتماعية والسياسية الكاملة لجميع مواطنيها بدون تفرقة فى الدين أو العنصر أو الجنس وستضمن حرية الدين ، والاعتقاد والتعليم والثقافة وستحمى الأماكن المقدسة لجميع الأديان وسوف تكون وفية لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة .

وستكون دولة إسرائيل على استعداد للتعاون مع أجهزة وممثلى الأمم المتحدة لتنفيذ قرار الجمعية العامة الصادر فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، وستتخذ الخطوات الضرورية لتحقيق الاتحاد الاقتصادى على كل الأراضى الفلسطينية .

وإننا نناشد الأمم المتحدة أن تساعد الشعب اليهودى فى بناء دولته وأن تقبل عضوية إسرائيل فى الأسرة الدولية.

ونناشد السكان العرب فى دولة إسرائيل وسط الهجوم الجائر أن يحافظوا على سبل السلام ويقوموا بدورهم فى تطوير الدولة على أساس المواطنة الكاملة القائمة على المساواة والتمثيل المناسب فى كافة الأجهزة والمؤسسات المؤقتة والدائمة .

إننا نمد أيدينا إلى جميع الدول المجاورة وشعوبها بالسلام وحسن الجوار وندعوها إلى التعاون مع الأمة اليهودية المستقلة لخير الجميع ، ودولة إسرائيل على استعداد للمساهمة فى تقدم الشرق الأوسط بكامله وتمتد دعوتنا إلى الشعب اليهودى فى كافة أنحاء الدنيا للاحتشاد إلى جانبنا فى عملية الهجرة والتطور وأن يقف معنا فى معركة تحقيق حلم الأجيال لخلاص إسرائيل .

إننا نضع ثقتنا فى الله (صخرة إسرائيل) ونوقع على هذا الإعلان فى هذه الدورة لمجلس الدولة المؤقت على أرض الوطن فى مدينة تل أبيب عشية هذا السبت الموافق الخامس من أيار (مايو) سنة ٥٧٠٨ عبرية الموافق الرابع عشر من مايو ١٩٤٨ ميلادية .

المؤلف فى سطور :

مايكل رايس :

عمل خلال السنوات الثلاثين السابقة على وضع هذا الكتاب مستشاراً لعدد من حكومات شبه الجزيرة العربية ، ومن ضمنها حكومات البحرين وسلطنة عمان وقطر والمملكة العربية السعودية . وهو صاحب خبرات عظيمة فى أعمال الهيئات والمنظمات الدولية ومن ضمنها جامعة الدول العربية ومنظمة الدول العربية المصدرة للبترول . وقد عمل كثيراً فى مجال الآثار بالمنطقة حيث قاد الفريق المسئول عن تخطيط وتصميم أول متحف للبحرين ، وبعد ذلك متحف قطر الوطنى ، ومتحف عمان ثم متحف الآثار والسلالات البشرية فى الرياض ، ومتحف القوات المسلحة السلطانية فى عمان والمتاحف الإقليمية بالمملكة العربية السعودية ، وفى سنة ١٩٨٠ حصل على جائزة أغا خان فى العمارة لقيامة بتصميم متحف قطر الدولى . وفى سنة ١٩٨٣ صمم ونظم المؤتمر الدولى الذى كان يدور حول « البحرين على مدى العصور » حيث عمل محرراً مشاركاً خلال الجلسات . وقد كتب دراسات كثيرة فى الموضوعات الأثرية والتاريخية ومن هذه الدراسات الكتب التالية :

1 - The Arab case , .
2 - Dilmun Discovered,
3 - Search for the paradise land .
4 - Egypt's making ,
5 - the Archaeology of the Arabian Gulf .

وشارك الشيخة "حياة على آل خليفة " فى إصدار أبحاث ونتائج المؤتمر الدولى « البحرين على مدى العصور » فى كتاب .

كما شارك الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة فى إصدار دراسات مؤتمر « البحرين على مدى العصور » الخاصة بالتاريخ . وقد صدر الكتابان عن دار نشر :
Kegan Paul International .

ويقيم مايكل رايس فى كامبردج شاير .Cambridgeshire

المترجم فى سطور :

إبراهيم سلامة إبراهيم :

كاتب ومترجم مصرى ، ولد فى القاهرة فى عام ١٩٣٨ ، وتخرج فى قسم التاريخ بكلية الأداب جامعة القاهرة فى عام ١٩٦١ ، ثم حصل على دبلوم الدراسات العليا فى الصحافة والنشر فى كلية الإعلام بجامعة القاهرة فى عام ١٩٨٣ . وعمل منذ تخرجه فى مجال الطيران المدنى بوظيفة ضابط مراقبة جوية حتى أصبح كبيراً لضباط المراقبة الجوية وخلال السنوات الخمس الأخيرة من العمل الوظيفى انتقل إلى ديوان وزارة الطيران المدنى .

له الكثير من المؤلفات والترجمات ، فى مجال علم النفس ترجم كتاب : التوافق النفسى – للدكتور : توماس هاريس . ثم كتاب الطب النفسى والتحليل النفسى – للدكتور : إريك برن . وفى مجال عمله بالطيران المدنى ألف : الطيران المدنى والسلام العالمى – نشرته الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٩١ . ثم ترجم كتاب المؤرخ الإنجليزى ألفريد بتلر : الكنائس القبطية القديمة فى مصر (جزءان) وقد طبعت منه طبعتان سنة ١٩٩٣ ، ٢٠٠١ – وترجم كتاب السائحة الإنجليزية إميليا إدواردز : رحلة الألف ميل . كما ترجم أيضاً كتاب المؤرخ سومرز كلارك : الآثار القبطية فى وادى النيل – وطبعت منه طبعتان سنة ١٩٩٩ ، وسنة ٢٠٠٠ ثم ترجم كتاب الدكتورة بربارة واترسون : أقباط مصر – سنة ٢٠٠٢ ، كما ترجم كتابين آخرين نشرهما له المشروع القومى للترجمة أولهما : الاتصال الجماهيرى – من تأليف مجموعة من كبار أساتذة الإعلام الأمريكيين أضيفت إلى كتاب آخر فى الاتصال نشرته له هيئة الكتاب تحت عنوان : الإعلام التطبيقى – واستخداماته فى تطوير الإدارة ، من تأليف : فرانسيس برجين ، موسوعة : الأديرة الأثرية فى مصر – لمؤلفه : كولين كريستوفر وولترز . عقدى السبعينيات والثمانينيات .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	چيرار چينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ - نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت: عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ - الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ - مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ - ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ - لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت . فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت . أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت . أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت . سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت . خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت . عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت . عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت . إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (المجلد الأول)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت . إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت . عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت . عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت . محمود على مكى
١٠٩ - حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت . منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت · أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت . نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت . سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت · نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت · منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت لميس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت · نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ -نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت منيرة كروان
١٢٣-الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت . عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت . شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت . عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت · أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت. س إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت . سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت . وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - پارسيفال	ريشارد ڤاچنر	ت مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية . تاريخ ودليل	أ . م. فورستر	ت . حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت . عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت . سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف اليمبى
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جي آنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت . مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية	ديڤيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت . صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت . نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت . سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت · محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت · شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت · شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت . محمد محمد الخطابى
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت . إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت . حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت · إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت . سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت . محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت . ياسين طه حافظ
١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت . فتحى العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	الڤين كرنان	ت بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	پول دى مان	ت · سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – ساحت نامه إبراهيم بك جـ١	زين العابدين المراغى	ت . محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت · محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو – أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت · أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت · جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت · فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت · مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت · جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت · على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت · محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت . محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت · محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت · محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت . نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت · على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت · رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت · نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت · السيد محمد نفادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت . طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ - المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماردينا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت ماري تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت . مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت . طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت . إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت . عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولمة والتحرير	الانكتاد	ت . ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رايوخ	ت · نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت . صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت . ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت . صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكيبيل	ت . نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت · توفيق على منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت . عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف · محمد الجوهرى
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت · على بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت · حسن بيومى
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الچينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – سياحت نامه إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

العنوان	المؤلف	المترجم
٢٩٣ - مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر	بوالو	ت رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ - مكبث	وليم شكسبير	ت محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ - فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهوانى	ت . ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل ماركس	ت هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ - أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ - أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ - فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس	ريـوس	ت . إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - الحماسة - النقد الكانطى للتاريخ	چان - فرانسوا ليوتار	ت نبيل سعد
٣٠٧ - الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت . جمال الجزيرى
٣١٠ - يونج	ناجى هيد	ت . محيى الدين محمد حسن
٣١١ - مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت . فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت عبد الله الجعيدى
٣١٤ - الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ - جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروونديتو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ - محاكمة سقراط	أ . ف . ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ - بلا غد	شير لايموفا - زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ - الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت أشرف الصباغ
٣١٩ - صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج١)	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ - وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كلينباور	ت خالد مفلح حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت . محمود سلامة علاوى
٣٢٥ - عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ - المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت . حسن صقر
٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت . توفيق على منصور
٣٢٨ - يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت . عبد العزيز بقوش
٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت . محمد عيد إبراهيم

الكتاب	المؤلف	المترجم
٣٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامى صلاح
٣٣١ – عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت : سامية دياب
٣٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٣٣ – الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ – لقطات من المستقبل	أرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٣٣٥ – عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٣٣٦ – متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ – فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٣	علي أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ – اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٣٤١ – قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٣٤٢ – سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ – العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ – الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ – الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ – سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٣٤٧ – الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٣٤٨ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ – بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٣٥١ – مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٥٢ – قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٣٥٣ – الفن الإسلامى فى الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٤ – الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٥ – التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٥٦ – الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٣٥٧ – متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ – أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ – محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٣٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربينى
٣٦١ – التصحر . التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ – تلميذ بابنبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ – حركات التحرر الأفريقى	ريتشارد جيبسون	ت : صبري محمد حسن
٣٦٤ – حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ – سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ – نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد

٣٦٧ – القلم الجرىء	نخبة	ت : البرّاق عبد الهادى رضا
٣٦٨ – المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت . فوزية العشماوى
٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت . وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت · حمادة إبراهيم
٣٧٥ – الخلود	ميلان كونديرا	ت . خالد أبو اليزيد
٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت إدوار الخراط
٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ – المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ – ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت · جمال عبد الرحمن
٣٨٠ – حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٣٨١ – أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت · رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ – تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت . أحمد محمد نادى
٣٨٣ – هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت . إيزابيل كمال
٣٨٥ – مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت . يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ – أغنيات وسوناتات	چون دن	ت : بهاء چاهين
٣٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت . سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ – الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت : منى الدروبى
٣٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت . عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ – فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : زينب محمود الخضيرى
٣٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت . هاشم أحمد محمد
٣٩٥ – آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت سليم حمدان
٣٩٦ – السافاك	تقى نجارى راد	ت :محمود سلامة علاوى
٣٩٧ – نيتشه	لورانس جين	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ – سارتر	فيليب تودى	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ – كامى	ديفيد ميروفتس	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو	مشيائيل إنده	ت : باهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات	زيادون ساردر	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت : عماد حسن بكر
٤٠٤ – تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت : ظبية خميس
٤٠٥ – إيزابيل	أندريه جيد	ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧ – الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ – معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت · عنان الشهاوى

العنوان	المؤلف	المترجم
٤٠٩ – انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامي عمارة
٤١٠– خلاصة القرن	كارل بوبر	ت : الزواوي بغورة
٤١١ – همس من الماضي	جينيفر أكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ – تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج٢)	ليفي بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ – أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخاري
٤١٤ – الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت : أمل الصبان
٤١٥ – صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ – مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت : مصطفى بدوي
٤١٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ – سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواي	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ – العصر الذهبي للإسكندرية	جون ماريو	ت : نسيم مجلي
٤٢٠ – مكرو ميجاس	فولتير	ت : الطيب بن رجب
٤٢١ – الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي	روي متحدة	ت : أشرف محمد كيلاني
٤٢٢ – رحلة لاستكشاف أفريقيا جـ١	نخبة	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ – إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت : وحيد النقاش
٤٢٤ – لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامي	ت : محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ – من طاووس حتى فرح	محمود طلوعي	ت : محمود سلامة علاوي
٤٢٦ – الخفافيش وقصص أخرى من أفغانستان	نخبة	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧ – بانديراس الطاغية	باي إنكلان	ت : ثريا شلبي
٤٢٨ – الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت : محمد أمان صافي
٤٢٩ – هيجل	ليود سبنسر وأندرزجي كروز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ – كانط	كرستوفر وانت وأندرزجي كليموفسكي	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ – فوكو	كريس هيروكس وزوران جفتيك	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ – ماكياڤلي	باتريك كيري وأوسكار زاريت	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ – جويس	ديڤيد نوريس وكارل فلنت	ت : حمدي الجابري
٤٣٤ – الرومانسية	دونكان هيث وجودن بورهام	ت : عصام حجازي
٤٣٥ – توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت : ناجي رشوان
٤٣٦ – تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ – رحالة هندي في بلاد الشرق	شبلي النعماني	ت : جلال السعيد الحفناوي
٤٣٨ – بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت : عايدة سيف الدولة
٤٣٩ – موت المرابي	صدر الدين عيني	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠ – قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت : محمد الشرقاوي
٤٤١ – رب الأشياء الصغيرة	أروندات روي	ت : فخري لبيب
٤٤٢ – حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت : ماهر جويجاتي
٤٤٣ – اللغة العربية	كيس فرستيغ	ت : محمد الشرقاوي
٤٤٤ – أمريكا اللاتينية الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت : صالح علماني
٤٤٥ – حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلري	ت : محمد محمد يونس

العنوان	المؤلف	المترجم
٤٤٦ – التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	ت أحمد محمود
٤٤٧ – نظرية الكم	ج. ب. ماك ايفوى	ت ممدوح عبد المنعم
٤٤٨ – علم نفس التطور	ديلان ايفانز – أوسكار زاريت	ت ممدوح عبد المنعم
٤٤٩ – الحركة النسائية	مجموعة	ت جمال الجزيرى
٤٥٠ – ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا – ريبيكارايت	ت جمال الجزيرى
٤٥١ – الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن / بورن ڤان لون	ت إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢ – لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجنانزى / أوسكار زاريت	ت محى الدين مزيد
٤٥٣ – القاهرة إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت : حليوم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤ – خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت . سوزان خليل
٤٥٥ – تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كوبلستون	ت محمود سيد أحمد
٤٥٦ – لا تنسنى	مريم جعفرى	ت هويدا عزت محمد
٤٥٧ – النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر اوكين	ت إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٨ – الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت جمال عبد الرحمن
٤٥٩ – نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت جلال البنا
٤٦٠ – الفاشية والنازية	ستوارت هود – ليتزا جانستز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦١ – لكان	داريان ليدر – جودى جروفز	ت إمام عبد الفتاح إمام
٤٦٢ – طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبد الرشيد الصادق محمودى	ت . عبد الرشيد الصادق محمودى
٤٦٣ – الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت كمال السيد
٤٦٤ – ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	ت حصة منيف
٤٦٥ – قصص اليهود	لويس جنزبرج	ت . جمال الرفاعى
٤٦٦ – حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت : فاطمة محمود
٤٦٧ – التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ت ربيع وهبة
٤٦٨ – روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت أحمد الأنصارى
٤٦٩ – جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت مجدى عبد الرازق
٤٧٠ – الأراضى والجودة البيئية	نخبة	ت . محمد السيد النئة
٤٧١ – رحلة لاستكشاف أفريقيا ج٢	نخبة	ت عبد الله الرازق إبراهيم
٤٧٢ – دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت . سليمان العطار
٤٧٣ – دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت سليمان العطار
٤٧٤ – الأدب والنسوية	بام موريس	ت سهام عبد السلام
٤٧٥ – صوت مصر أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت . عادل هلال عنانى
٤٧٦ – أرض الحبايب بعيدة بيرم التونسى	ماريلين بوث	ت سحر توفيق
٤٧٧ – تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت أشرف كيلانى
٤٧٨ – الصين والولايات المتحدة	ليو شيه تشنج ولى شى دونج	ت عبد العزيز حمدى
٤٧٩ – المقهى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت . عبد العزيز حمدى
٤٨٠ – تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	ت . عبد العزيز حمدى
٤٨١ – عباءة النبى	روى متحدة	ت رضوان السيد
٤٨٢ – موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت فاطمة محمود
٤٨٣ – النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	ت أحمد الشامى

٤٨٤ – جمالية التلقى	هانس روبيرت ياوس	ت رشيد بنحدو
٤٨٥ – التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	ت سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٦ – الذاكرة الحضارية	يان أسمن	ت . عبد الحليم عبد الغنى رجب
٤٨٧ – الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	ت سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٨ – الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	ت سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٩ – هُسِّرل الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسِّرل	ت محمود رجب
٤٩٠ – أسمار الببغاء	محمد قدرى	ت عبد الوهاب علوب
٤٩١ – نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	ت سمير عبد ربه
٤٩٢ – محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	ت محمد رفعت عواد
٤٩٣ – خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	ت محمد صالح الضالع
٤٩٤ – كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	ت شريف الصيفى
٤٩٥ – اللوبى	إدوارد تيفان	ت . حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦ – الحكم والسياسة فى أفريقيا جـ١	إكوادو بانولى	ت مجموعة من المترجمين
٤٩٧ – العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	ت مصطفى رياض
٤٩٨ – النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	ت أحمد على بدوى
٤٩٩ – تقاطعات . والأمة والمجتمع والجنس	نخبة	ت فيصل بن خضراء
٥٠٠ – فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	ت طلعت الشايب
٥٠١ – تاريخ النساء فى الغرب	أرثر جولد هامر	ت سحر فراج
٥٠٢ – أصوات بديلة	هدى الصدّة	ت هالة كمال
٥٠٣ – مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	ت محمد نور الدين عبد المنعم
٥٠٤ – كتابات أساسية ج١	مارتن هايدجر	ت إسماعيل المصدق
٥٠٥ – كتابات أساسية ج٢	مارتن هايدجر	ت : إسماعيل المصدق
٥٠٦ – ربما كان قديساً	آن تيلر	ت عبد الحميد فهمى الجمال
٥٠٧ – سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	ت شوقى فهيم
٥٠٨ – المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبد الباقى جلبنارلى	ت عبد الله أحمد إبراهيم
٥٠٩ – الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	آدم صبرة	ت قاسم عبده قاسم
٥١٠ – الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	ت : عبد الرازق عيد
٥١١ – كوكب مرقَّع	آن تيلر	ت . عبد الحميد فهمى الجمال
٥١٢ – كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	ت جمال عبد الناصر
٥١٣ – العلم الجسور	تيد أنتون	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤ – مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	ت مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥ – من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	ت فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦ – إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	أرنولد واشنطون – ودونا باوندى	ت . صبرى محمد حسن
٥١٧ – نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	ت سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨ – استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	ت هاشم أحمد محمد
٥١٩ – محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	ت أحمد الأنصارى
٥٢٠ – الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	ت أمل الصبان

٥٢١ – قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	ت : عبد الوهاب بكر
٥٢٢ – إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	ت : على إبراهيم منوفى
٥٢٣ – الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	ت : على إبراهيم منوفى
٥٢٤ – الملك لير	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٥٢٥ – موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	ت : نادية رفعت
٥٢٦ – علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	ت : محيى الدين مزيد
٥٢٧ – كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	ت : جمال الجزيرى
٥٢٨ – تروتسكى والماركسية	طارق على وفلْ إيفانز	ت : جمال الجزيرى
٥٢٩ – بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	ت : حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠ – مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	ت : عمر الفاروق عمر
٥٣١ – ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	ت : صفاء فتحى
٥٣٢ – المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	ت : بشير السباعى
٥٣٣ – تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	ت : محمد الشرقاوى
٥٣٤ – الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	ت : حمادة إبراهيم
٥٣٥ – مخزن الأسرار	نظامى الكنجوى	ت : عبد العزيز بقوش
٥٣٦ – الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون	ت : شوقى جلال
٥٣٧ – للحب والحرية	نخبة	ت : عبد الغفار مكاوى
٥٣٨ – النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	ت : محمد الحديدى
٥٣٩ – خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	ت : محسن مصيلحى
٥٤٠ – توجهات بريطانية – شرقية	السير روناك ستورس	ت : رؤوف عباس
٥٤١ – هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	ت : مروة رزق
٥٤٢ – قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	ت : نعيم عطية
٥٤٣ – السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	ت : وفاء عبد القادر
٥٤٤ – ميلانى كلاين	نخبة	ت : حمدى الجابرى
٥٤٥ – ياله من سباق محموم	فرانسيس كريك	ت : عزت عامر
٥٤٦ – ريموس	ت.ب وايزمان	ت : توفيق على منصور
٥٤٧ – بارت	فيليب ثودى وآن كورس	ت : جمال الجزيرى
٥٤٨ – علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	ت : حمدى الجابرى
٥٤٩ – علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	ت : جمال الجزيرى
٥٥٠ – شكسبير	نيك جروم وبيرو	ت : حمدى الجابرى
٥٥١ – الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	ت : سمحه الخولى
٥٥٢ – قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	ت : على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣ – مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	ت : رجاء ياقوت
٥٥٤ – مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	ت : عبد السميع عمر زين الدين
٥٥٥ – الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	ت : أنور محمد إبراهيم ومحمد نصر الدين الجبالى
٥٥٦ – چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	ت : حمدى الجابرى
٥٥٧ – الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٥٥٨ – الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين ڤان لون	ت : وفاء عبد القادر

٥٥٩ – الماس الزائف	تشا تشاجى	ت : عبد الحي أحمد سالم
٥٦٠ – صلصلة الجرس	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٥٦١ – جناح جبريل	محمد إقبال	ت . جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢ – بلايين وبلايين	كارل ساجان	ت : عزت عامر
٥٦٣ – ورود الخريف	خاثينتو بينابينتى	ت · صبرى محمدى التهامى
٥٦٤ – عُش الغريب	خاثينتو بينابينتى	ت · صبرى محمدى التهامى
٥٦٥ – الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا . ج. جيرنر	ت . أحمد عبد الحميد أحمد
٥٦٦ – تاريخ أوربا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	ت : على السيد على
٥٦٧ – الوطن المغتصب	مايكل رايس	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٤٨٩٠ / ٢٠٠٣

المجلس الأعلى للثقافة

الوطن المغتصب

إسرائيل فى فلسطين والبحث عن الحل

يقدم هذا الكتاب عرضًا حديثًا للصراع العربى الإسرائيلى حول فلسطين كتبه مؤلف يتمتع بخبرة عميقة حول هذا الموضوع. والكتاب يقدم للقارئ دراسة حديثة فكريًا وزمنيًا تكشف عن ارتباط الوجود الإسرائيلى ببقاء الحركة الصهيونية وتغلغل النفوذ الأجنبى فى منطقة الشرق الأوسط بوجه عام والمنطقة العربية بوجه خاص، وذلك عن طريق كشف الجذور التاريخية للحركة الصهيونية والفكر الصهيونى حتى إنشاء دولة إسرائيل وتمويلها بالمهاجرين والأموال والسلاح المتطور كى تقوم بوصفها شوكة فى جسم الوطن العربى. ويشرح المؤلف الأسباب والدوافع التى لا يعرفها القارئ العادى، كما يقدم الكثير من الأسرار التى تتعلق بهذه الدولة الدخيلة وأطماعها التوسعية، وفى الوقت نفسه فإنه يقترح بعض الحلول التى تساعد على التوصل إلى تسوية نهائية إلى قيام الدولة الفلسطينية.